كلمات

١ □

ليست الأولى في التاريخ ، ويقينا لن تكون الاخـيرة . مادامت القوة هي الناموس الوحيد على الأرض ، منذ كانت الأرض ، فان طغيانها لن يتوقف . والقوة غاشمة ، مجنونة، همجية، مندفعة ابدا بغريزة الدمار . هي، لذلك ،اجتياحية. كيف اذا كان الاجتياح مدججا بأضخم آلات الحرب !؟ .

ليست الأولى في التاريخ ، ولن تكون الاخيرة . ما ان تمتلك امتلاءها قوة ، حتى تتحرك في راسها غريزة الطغيان، ثم تتدفق في الأرض حولها : غزوا ، فاحتلالا ، فابادة للارض والإنسـان .

ثم ، بعد ذلك ، ياتي الانحسار .

٢ □

لاينحسر الغزو من تلقاء نفسه .

في مواجهة القوة الهمجية المندفعة تنبثق ، فجاة ، قوة كانت كامنة في وجدان الشعوب المحتلة .. قوة عملاقة ،هائلة، بطلة ، تنتصب ملء الأرض ، وتعلن مقاومة الاحتلال .

« لم أكن يوما متعطشا الى فعل البطولات في الحرب . اردت أن أكون معلما ، ولكن ، بدلا من أن احمل المسطرة والطباشير ، حملت السلاح . ليس هذا ذنبي ، يجب علينا ان نريق دماءنا لكي ندمر هذا الوحش الهائل . اذا لم نفعل ذلك ، لن نكون جديرين باسم انسان » .

الصمود ، فالمقاومة . هكذا ، أخيرا ، ينتصر الشعب .

هكذا يحدث انحسار الغزو .

□ ٣ □

ليس في السلاح وحده يكون الصمود .

لابد للمقاومة من سلاح . انما لابد أيضا من صلابةالروح.

لايكون الصمود في خنادق القتال وحدها بل في كل شيء . الهشاشة تقتل المقاومة .

الضعف والهشاشة عدوان داخليان . والضعفوالهشاشة ينبغي القضاء عليهما في البدء . دونما صلابة لايستطيع الشعب ان يقاتل .

صلابة الثقافة جزء فاعل في صلابة السلاح .

□ ٤ □

في مثل هذه المحن نتساءل عن صلابة الثقافة ، عنالكلمة التي لاتنحني ، واللغة التي لاتيأس . تنحني المدن احيانا ، اما الثقافة فيجب ان تموت واقفة . اذا انحنى الفكر انحنت الروح . واذا الروح انحنت بقيت البندقية بلا يد .

في هذه المحن يلزمنا فكر لايضعف ، ثقافة لاتبشر بالاستسلام .

وفي هذه المحن يلزمنا ان تنصب الثقافة كلها باتجاه صلابة الشعب .

رئيس التحرير

الدراسات والبحوث:

كلمات

رئيس التحرير

التراث والأصالة وجبران

د. منيف موسى

الظاهرة اليهودية في التاريخ

أحمد يوسف داود

الفلسفة المفقودة

صالح العياري

أزمة الحضارة:

انحطاط الثقافة الصناعية

جوزيف ا. كاميلري

ترجمة: فؤاد خوري

التراث والأصالة وجبران

د. منيف موسى

(لا يطمح هذا البحث الى درس كل نتاج جبران وكل مناحيه ، بل يهمه ان يفتح بعض الكوى على ملامح اصيلة تجديدية عند جبران خليل جبران) .

بين الانسان والتراث ، غير وشيجة ، تشد الى الينابيع الاولى ، لتجذر هذا الانسان في تربته الأصيلة ، التي منها استمد غذاءه ونماءه .

والتراث هنا ، ليس كل ما تركه السلف من معالم حضارية وفكرية وادبية وعلمية فحسب ، بل هو بنية الذهنية التي تتفاعل بين العقل الطبعي ، والعقل المستفاد ، والعقل الفعال المبدع الخلاق ، كما تحدد ذلك الفلسفة الاشراقية .

من هنا كان الحديث على كل معاصرة وحديث وحداثة يستوجب التكلم على التراث من حيث هو ارث تواصل بين اجيال الامة وتطورها الحضاري ــ الفكري ــ الانساني .

وهذا التراث ، ليس طوطما ، او بلية كما قد يتوهم المتنكرون ، ولا هو شيء مقدس لا يجوز مسه كما قد يتوهم المتزمتون ، انما هو تفاعل انساني بين القديم والجديد من اجل بناء المستقبل الذي تستشرفه الامة ــ القومية ، لتصل به الى حد العالمية ــ الانسانية في محاولة مواكبة الحضارة الكونية .

وقد تكون منطلقات الصراع بين التراث والمعاصرة ، هي نقطة التصادم بين فكر يرضى بالقديم على أنه موروث له قداسته وحرمته ، وبين فكر تحديثي ، يرفض المقولات القديمة التي تعيق الاخذ بالمسترفدات الجديدة الوافدة ، وعليه يكون مبدأ الحداثة : « صراعا بين النظام القائم على السلفية ، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام ، وقد تأسس هذا الصراع في الحضارة العربية ، في اثناء العهدين الاموي والعباسي ، حيث نرى تيارين للحداثة :

الاول : سياسي ــ فكري ويتمثل من جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم ، بدءا من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مرورا بالقرامطة والحركات الثورية المتطرفة . ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية والالحاد ، وفي الصوفية على الاخص .

اما **التيار الثاني** ، ففني ، وهو يهدف الى الارتباط بالحياة اليومية ، كما عند ابي نواس ، والى الخلق لا على مثال ، خارج التقليد وكل موروث كما عند ابي تمام . الاتجاه الاول يلغي الارستقراطية الوراثية في الحكم . والاتجاه الثاني يلغي عصمة الاوائل في الفن . . . .

وذا صح هذا القول ، عن عهود متأخرة في الاسلام ، كون الاسلام تأسيسا لرؤية جديدة ونظام جديد ، فان الثقافة العربية القديمة هي

نتاج قيمتين : جاهلية واسلامية . لكن الاسلام ، بدءا من لحظات الوحي الاولى ، وضع حدا لنهاية تحتضر كانت تقوم على تمثيل الحياة والكون، وارس بداية قائمة على الوحي ، تنفذ الى داخل الحياة والكون ، ولذلك يقول ادونيس في كتابه الثابت والمتحول : « بحيث ان النهاية صارت هي نفسها البداية . فما يكون النهاية لابد من ان يكون البداية ايضا اذ هو نفي لكل ما سبقه مما يناقضه من جهة ، وتأسيس للاصول من جهة ثانية . الجاهلية تتقدم الاسلام ، ظاهريا ، لكن الاسلام يتقدمها جوهريا . ومن هنا لا نعرف الاسلام بالجاهلية وانما نعرف الجاهلية بالاسلام ، وهي مقولة قال بها من قبل طه حسين ، في كتابه « في الادب الجاهلي »(٢) فالاسلام هو الاصل الذي يعرف به ، وفي ضوئه كل شيء ، كان قبله . وكل شيء يجيء بدءا منه .. واذا كان الاصل هو الثابت القديم ، وما يجيء هو المتحول المحدث فان القضية الاساسية في دراسة الثقافة العربية . وفي التراث العربي بعامة ، هي في فهم طبيعة العلاقة بين رؤيا الثبات ورؤيا التحول ، او طبيعة الصراع بين اهل الاتباع واهل الابداع ...(٣) وقولنا هنا يتناول المسألة الشعرية او القضية/الشعر ، لا مسألة الايمان ، او القضية/ الدين ، فنحن في حديثنا ههنا انما نتناول البنية الابداعية الشعرية ، البنية /الذهنية الادبية .

وفيما يتصل بالشعر ، كلنا يعلم ان الشعر الجاهلي ، يعتبر المثال الاكمل للعبقرية العربية ، ان لم يكن عن صعيد المحتوى ، فعلى صعيد الشكل . وان لغته تكاد تكون ارقى ما توصل اليه الابداع العربي في العصور القديمة . لكن الاسلام ابطل هذا الاعتبار فكانت آيات القرآن الكريم المنزلة وحيا ، بيانا بهر العرب الجاهلين : قلوبهم والبابهم ، فعدوها شعرا ، بل سحر ، يفوق تصورهم لشعرهم ولعبقريتهم ، والا ما معنى الآية الكريمة « وما علمناه الشعر وماينبغي له ، ان هو الا ذكر وقرآن مبين .. »(٤) .

والقضية الكبرى التي تتمثل في هذه الآية الكريمة ، تخرج من كون الوحي ــ اللغة قد اسس مفهوما جديدا على صعيد البنية الذهنية والبنية

الاجتماعية ، ومن هنا كانت العودة الى الاصالة ، والتراث في المنظور الاتباعي ، عودة الى الوحي ـ اللغـة . اي الى القديـم الكامل لا الى الطبيعة . ومن هنا ايضا نفهم كيف ان العربي في هذا المنظور موجود رحميا في اللغة ، وكيف ان قوته الاولى السياسية والثقافية ، انما هـي قوة بيانية »(٥) والبيان عند العربي وان شمل الشعر ، فانه في الاساس يقوم على لعبة اللفظ ـ المفرد او الفصاحة ، التي يمكن ان تشكل الشعر، لا القصيدة . ومن هنا قول العرب في احكامهم النقدية : امدح بيت ، واغزل بيت واهجى بيت ... الخ ـ وعلى هذا الاساس نفهم ، ان الاسلام الذي اثر في الشعر تأثيرا كبيرا ، انما كان تأثيره في المحتوى لافي الشكل . وظلت قضية الشاعر العربي الاسلامي من حيث ولاؤه للجماعة واحدة ؛ فبالجاهلية كان الولاء قبليا ، اما في الاسلام فانتقل الولاء للدين الجديد ... نقول هذا ونحن نضع في حسابنا ، قضية الشعراء الصعاليك الذين خرجوا على القبيلة والعادات والاعراف ، يعني خروجهم على الراهن، ورفضهم لقائم موروث ، وبناء على هذا نفهم قضية التراث من حيث هو ارث وقضية الاصالة من حيث هي قيمة تحقق ذات الانسان . ففي كل عمل قديم او حديث اصالة ، كما ان في كل عمـل قديم او حديث ناسخا ومنسوخا وتقليدا ومحاكاة . وبذلك تحدد الاصالة بانها ليست التراث وحده ، وانما هي جوهر وجود المبدع /الفرد في قلب هذا التراث ، وبناء لهذا المفهوم ندرك ان شعرنا القديم بغالبيته كان الشعر نفسه . ولكنه كان شعر بلاط وشعر خليفة . ولم يكن شعر شاعر . وهو من حيث انه يمدح ويهجو ويرثي ، سلعة اي قوة عمل تتمثل في الشعراء. كان الشاعر يبيع نفسـه ، قصيدة ، قصيدة ـ كالسلعة . وكان معرضا لتقلبات الدولة او الخليفـة ، ولم يكن الشاعر من حيث هـو بائع في موقع الانسـان الحـر الذي يسيطر على سلعتـه . وانما كان يبيعهـا من موقع الانسان المضطر . فهو لا يقدر ان يعيش الا اذا اعطاه الخليفة ـ ولا يعطيه الخليفة الا اذا كان شعره ينمي الراسمال السياسي للخليفة اذا جاز التعبير . وكانت قيمة السلعة تابعة لمدى طاقتها على تنمية هذا الراسمال . من جراء هذه السياسة . دخل الشعر في حيز المملوكية ،

حيز الاتباعية ، الا ان لنا في محاولات ابي نواس وابي تمام واضرابهما . مقولات زعزعت بعض الثابت في هيكلية الشعر العربي فعد شعرهمـا خروجا على التراث لانه خروج على المألوف . فالموازنة بـين الطائيين للآمدي ، مليئة بأحكام تدين ابا تمام لانه « خرج على سنن القوم » ولـم يقتنع الا بالتناهي فيما يخرج عن العادة وخرج « عن عادات بني آدم ليكون امة وحده » ومعانيه لا حقيقة لها « لانه مارأينا ولا سمعنا » مثلها، ولان الشعر هو وصف الشيء « على ما هو ، وكما شوهد ، من غير اعتماد لإغراب ولا ابداع » وهذا الخروج الذي قام به ابو تمام دفع الآمدي الى وصف شعره بانه « من كـلام اهـل الوسواس والخطرات واصحاب السوداء » . .(٦) وهذا ما يفسر قول ابي تمام نفسه لرجل كان سأله : « يا ابا تمام . لِمَ لا تقول من الشعر ما يعرف ؟ فقال : وانت لم لا تعرف من الشعر مايقال ؟ فافحمه .(٧) » لكن ابا تمام نفسـه كان يقع فيما ثار عليه اذ كان ينظم قصائد على الطريقة الجاهلية ، من حيث البدء بالاطلال وذكر الديار والوقوف على الدمن ، واغلب هذه القصائد كانت في المدح ، وكأنه بذلك اراد ان يرضي صاحب السلطان ، ولذا فهـو عاد الى الثابت ليرضي اصحاب الثابت . وبناء على هذا تفهم قضية الشعر العربي في القديم .

لكن الذي اتاح لابي تمام وابي نواس وغيرهما من شعراء حركـة التحديث في شعرنا القديم ، لان يقوموا بثورتهم هو التواصل الحضاري بين العرب وغيرهم من الامم ، فاذا كانت الحضارة العربية الجاهلية ــ الاسلامية ، نتاج العقل العربي وحده ، وفي ذلك قال الجاحظ : « دولة بني مروان عربية اعرابية » فان الحضارة العباسية هي نتاج تلاقح امم من رومية ــ بيزنطية وفارسية وهندية . ومن هذا المعيار ، يفهم تحديث العقل العربي في العصر العباسي وتفهم بالتالي صراعات المحافظين والمحدثين في تلك الحقبة . لكن اللافت للنظر في كل هذه القضايا ، ان الثابت العربي شكل مراكز عقلية مهمة في العصر العباسي ، لم يعدم الاصالة المتفردة في مسيرة الشعر العربي ، فابو نواس ، هو في معيار الثابت والمتحول ، وابو تمام كذلك ، والمتنبي . على ان اكثر ما يميز هذه الاصالة في فرديتها

وتفردها ، الشعر الصوفي ، الذي اصبح يتناول علاقة الانسان بالانسان، او صورة لعالم قائم ، فان الشعر الاسلامي يمثل علاقة الانسان بالسلطة وقد صارت اللغة طقوسية ، بينما الشعر الصوفي تمثل باقامة علاقة ارضية بعلاقة فوق ــ ارضية . وغدت اللغة معه تجهد لخلق كون جديد . ولا نعني هنا الصوفية الدينية فقط ، بل صوفية اللغة ــ التعبير ، وقد ابطل المفهوم الجديد للغة ــ من حيث هي محاكاة ــ ابطل القديم ، من حيث انه أصل للمحاكاة او نموذج ويتضمن هذا الابطال النظر الى العالم من وجهة جديدة نعتبره بحثا مستمرا . ليس للانسان فيه الا ان يؤسس ، بالفن ، صورة عن عالم يجدر بالانسان ، حيث يجد نفسه ويتعرف عليها ، وليس له في مغامرة البحث هذه ، غير اللغة ــ اللغة هي طينة الخلاّق . وهكذا لم يعد علم الجمال ، بالنسبة اليه ، علم جمال النموذج او الثابت ، بل علم جمال الابداع او التغير . فالابداع هو الشيء الوحيد الذي يمكن ان يمارسه الانسان بجدارة ليؤسس وجوده في افق البحث . بتعبير آخر أخذ الانسان يمارس هو نفسه عملية خلق العالم(٨) . وهنا نمكن تحديد مفهوم « الاصالة » ضمن دائرة التراث .

ونضرب صفحا عن الحديث على الشعر في عصور الجمود والركود ، الا ما جاء قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين عندما عاد الشعر الى اصالته العباسية على ايدي نخبة من الشعراء أمثال البارودي وشوقي وحافظ ، غير ان لنا من بيان خليل مطران ، في مقدمة الجزء الاول من ديوانه الصادر في العام ١٩٠٨ انقاذا للتجديد مع المحافظة على السلفية في بعض وجوهها ، وكذلك في مقالته في مجلته « المجلة المصرية » والمقال بعنوان « الكتاب امس والكتّاب اليوم » حيث قال : « ادرك في هذه الايام ان اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتما ان تكون خطتنا . بل لهم عصرهم ولنا عصرنا . ولهم آدابهم واخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا واخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا، لهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا . لا لتصورهم وشعورهم ، وان كان مفرغا في قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية . . »(٩)

قمطران برايه هذا ، يعمق الشعر بجذوره التراثية من حيث اللغة ، ويؤصله في ذاته المفردة من حيث ان الشعر تعبير عن الانسان بلغة خلق وابداع. وكل هذا عائد للثقافة التي اصابت العصر ، ذاك ان التكثيف الثقافي والحضاري لهو المحول الاول ، يجتنى عن قصد او عن غير قصد ، عن وعي أو عن غير وعي ، وينقل الشعر الوجداني من وضع الفطرة البريئة الى مختزنات الفلسفة والدين والعلوم الموضوعية. وتتحول طبيعة العاطفة الساذجة والتخيل البدائي بالثقافة الى عالم دينامي صوري ، فتصهر مخزونات المعرفة وتحولها الى طاقة الشاعر والفرد ، لا يقبس ولا يقلد وانما يغدو قوة محولة جديدة تبدع المقتبس وتبعث من الموت الحياة .(١٠)

للتدليل على صحة هذا القول ، يذهب انطوان غطاس كرم في تحليله لشعر البارودي الذي يعتبر شعرا ذاتيا بقوله : « في هذا الرجوع الى تجربة الذات لم يفتتح للشعر فنا مبتكرا ، ولا هو اثقله باحمال الفلسفة الانسانية ، والتاملات الغيبية المطلقة ، وانما هو عود الى النفثات الغنائية وفنونا وطرازا قصيد والى الصور القريبة المتناول ، او هو عواطف متفاوتة العنف في صور لم تفارق نجوى الطبع ، او ما ينسب الطبع ، بعد تصفية الاخراج الفني ـ بل تراه ملتزما عمود الشعر من حيث وحدة البيت واستقلاله ، وترصد القافية ، وقرب مآخذ المعاني ، واستواء معادن الالفاظ ، واجتناب المعاظلة ، وانتفاء المعميات ووحشية الاغراب . فقوام التأليف هو البيت صيغة صوتية ، وتأثير طرب . ولا يضير احيانا ان تبدل مراكز الابيات ، او ان يتقدم وصف الليل على لوحة الخيل ، او تجعل الابيات الحكمية بعد استطراده الى مجلس انسه مادامت اجزاء لا كلا أوحد . . »(١١) .

من خلال هذا الكلام نفهم ان الحركة النهضوية في شعرنا الحديث ، انما كانت تأصيل التراث واصوله اي استرجاع الماضي الجلل ، في حاضر مشوش قلق ، وعلى هذا ، يستقر الراي ان البارودي واشياعه ومن هم في مدرسته ، لم يكونوا في حركة الشعر الحديث ثورة محولة ولا ارتفاعا الى شاهق جديد ، فمن خلال الشعر القديم تنبهوا الى مطويات

انفسهم ، ولم يعوزهم استنباط تكنيك شعري جديد وانما شأنهم انهم عدوا عن الرعيل الذي سبقهم ، وعن طراز الانحطاطيين ليرتادوا الاصالة من مواردها الاولى يتحسسونها شعريا ولغويا فلا يستنبطون لغة في قلب اللغة . انما انماطهم بحترية مكرورة ، منحدرة ، يحاولون رد الشعر الى مسلكه وبهذا الراي تفهم جماعة البعث والاحياء من رواد نهضتنا الحديثة »(١٢) .

ومدى ادراك هذا المفهوم يقوم على ان ثقافة البارودي ونفر من جيله، كانت عربية اصيلة ، الا شوقي الذي اخذ بقسط من ثقافة باريس . لذلك يتقرر او يتحصل لدينا ، أن الاضافة الحضارية في الشعر الحديث تبدو مرهونة بالمثاقيل الثقافية عربية وغربية ، وان الثقافة التي نعني ؛ لا تتعلق بالشاعر كفرد وانما هي منوطة ايضا بالجمهرة البشرية ، التي انبثق منها الشاعر وتجاوبت معه ، فكان حصيلتها تراثيا ... والشاعر وجه امته وعندها يندر ان يقوم شاعر كبير بالمعنى الانساني المطلق ، في جمهرة لم تصب من الثقافات الانسانية ما يؤول الى هذا المفهوم الشامل .(١٣) وبناء على هذه المقولة نستطيع القول ان خليل مطران يشكل حلقة الوصل ، بين التراث والمعاصرة او التحديث ، ونميل الى الاعتقاد بانه اللمعة العربية الحديثة التي التهبت فيها الشعلةالغربية وفيها زيت عربي . وغدا الذهن الاصيل معه ، واللغة الام لديه مزيجاعربيا غربيا معا ، وهذه التعادلية الثقافية او المصاهرة الحضارية هي السبيل الاسلم الى تعليل الاصالة في الشعر العربي الحديث ، التي تنظر الى الجديد من خلال التراث العربي والى التراث العربي من خلال التذوق الفني لآداب الفرنجة .(١٤)

واذا كان مطران قد وقف موقفا حذرا بين التراث واصوليته ، وبين الحديث واصالته ، خشية ، او اقتناعا ، او جسا لنبض المحدثين المحافظين ، فان ادباء المهاجر وشعراءه ، قد مضوا بعيدا في التحلل من قيود المملوكية ، او قل الاتباعية القاسية ، وان التفاعل الثقافي والنزوع الى الحرية ، والتعبير عن وجدان الانسان الحديث وفكره ، ولدت في

المهاجرين ميولا الى مفهوم ادبي يكاد ينفصل عن التراث العربي القديم الا اقله ، ويرتد ثورة متمردة على المنسحبين اتباعا في اطاره . ولاول مرة في تاريخ الادب العربي ، يجاوز الشعر اتصاله بفن الغناء الى اتصاله بسائر الفنون الجميلة حتى يرتقي النثر الى مستوى الشعر .

وهنا تبرز ميزتان رئيستان في حركة تحويل مسار الشعر العربي الحديث ، اما الاول ، فهي تجلي الثقافة الغربية ، عند بعض المهاجرين اصلا لهم ، والثانية ترجمة الكتاب المقدس بالعربية ،فيستغل هذا الكتاب بمهديه العتيق والجديد ، في ادب الكثير منهم ، لذا جعل هؤلاء المهاجرون ينظرون الى القديم من خلال الحضارة الجديدة ، وراحوا يشغلون انفسهم بقضية الادب فحاولوا تهديم القديم ليبدأوا من جديد . وخير دليل على ما نذهب اليه كتاب « الغربال »(١٥) لميخائيل نعيمة . ومقال : « مستقبل اللغة العربية » لجبران .(١٦) على ان جبران كان استاذ المهجريين والنور الذي تمشو اليه ابصارهم(١٧) حتى ان قصيدته الطويلة « المواكب »(١٨) وهي تعد من بواكير آثاره الصوفية ـ الهمت شعراء المهاجر . لا بل شعراء الوطن المقيم ، تأغليت عندنا ، بنايات الشعر العربي الحديث ذاك ان الملامح التي اضافها تاريخ الشعر العربي في العصر العباسي ، شاركت في تشكيل صورته الاصلية ، وطبيعته المميزة ، هضمه للثقافة العميقة حتى ولو كانت موغلة في العقلانية ، على ان تخرج بعد ذلك في صورة شعرية شفافة رفافة ملائمة لطبيعة الشعر ، ثم مرونة قوالبه اللغوية والموسيقية والتصويرية بما يلائم حركة الحياة ومتطلباتها في البيئة الجديدة .(١٩)

هذا الكلام يقودنا الى الحديث على جبران خليل جبران ، وموقعه في رحلة ادبنا الخالد .

جبران ، هو الوشيجة بين الغدير والنور ، سماح لمع مشرقية تضرب في النورانية الصافية الى ماض جلل ، في اعماق هذا الشرق المفن ، فاذا صوته المرنان تغاريق الابداع في ذاته ، يشيل من الارض ، كوم ورد تتلون

كما الرؤيا في العيون . وهي تنهض من كبوة نوم الى السماء . فالادب العربي ولا سيما الشعر قد تعرض لهزات ، خصوصا جمود القافية العربية وقد قام بهذه الهزة اطفال جبران ومدمنو ايليا أبي ماضي(٢٠) وان التجديد بالمعنى الصحيح كان طارئا على مصر ــ وفق تعبير احسان عباس ومحمد يوسف نجم ــ وفد عليها من لبنان ، وهما يقصدان خليل مطران وادباء المهاجر(٢١) .

يلوح لنا جبران اليوم ، في تراثه الجريء ، وقد اختصر الكينونة ، في كلمة من نار ، أو حرف من ندى ، فاذا الدهشة المفردة سر يرسم الكون في مقالة « موسيقى » علـى المشارف القرمزية المتألقة ابتسامات فجر وانداء ، تمسح مرايا الحنين الى غابر اخضر ، ذلك أن « الروح اكبر من الفضاء واقوى من الزمان واعمق من البحر واعلى من النجوم »(٢٢) .

ولم يكن جبران مخطئا في قوله هذا ، فهو بحدسه الشعري وحسه الرفاف الرهيف لم يكن ككل الاولاد ، بل كان « خارجا على المألوف »(٢٣) وكثيرا ما كان يقول : ما كنت صبيا طيبا لاني كنت قلقا . كنت اشعر بأني غريب ضائع لا استطيع ان اجد طريقي ولكن امي عرفت ذلك دون ان احدثها به اذ ماكنت بحاجة ان احدثها به »(٢٤) .

وكثيرا ما كان جبران يتذكر ايام حداثته ، كان يقول : « لست ادري كيف احتملوني ، امي وحدها استطاعت ان تفهم ذلك الصبي الغريب لقد كنت بركانا صغيرا كنت زلزالا صغير »(٢٥) .

نعم . لقد كان جبران غريبا ، وكثيرا ما ردد قوله : « انا غريب في هذا العالم » وكان بركانا ، وهذا البركان صار كبيرا ، واحدث هزة في اعصاب الشعر العربي . جاء ليقول كلمة وقد قالها : « جئت لاقول كلمة وسأقولها »(٢٦) كأنه بذلك كان يستشرف ارهاصات النبوة ، وهو نفسه يشير في احدى رسائله الى ماري هاسكل سنة ١٩٢١ بقوله : « الروسي العظيم طموحه ان يكون قديسا ، وطموح الالماني العظيم ان

يكون فاتحا ، والفرنسي العظيم ان يكون فنانا كبيرا ، والانكليزي العظيم أن يكون شاعرا كبيرا ... والشرقي العظيم ان يكون نبيا »(٢٧) .

وليس في نيتي أن استعرض كل نتاج جبران ، فهذا النتاج يحتاج الى دراسات طويلة وحسبي منه دقائق ممرعات احاول فيها القاء بعض الضوء على التبادعيات الجبرانية .

ملحمة الاغتراب اللبناني سفر في الامام ، وسفر في الفوق تمتهن المادة والعقل من أجل اكتناه المطلق . فاذا الادب المهاجري المسّلم الكبير ، في بناء نهضتنا الثقافية الحديثة ذاك ان شعراء ، المهاجر وادباءه ، شكلوا اندلسا جديدة : « فعطروا الشعر العربي باريج رياضها ، وقد البسته اميركا حللا من الحياة والنور ، ومزجت النثرية مزج الراح بالراح ، وجسمت صوره الخيالية حتى تكاد تلمسها باليد ولو انها الطف من الاثير »(٢٨) وكانت غاية اولئك الافذاذ ، انتشال ادبنا من ترهاته البالية ومسحه بالنور والحياة ، لتعود اليه صحته ، بعد ان ران عليه طويل موات . واذا الارهاصات النهوضية الحديثة تظهر بوادرها ليلة الثامن والعشرين من نيسان من العام ١٩٢٠ حيث ولدت الرابطة القلمية وعلى راسها جبران ، واذا هذه « الرابطة » تضم قوى ادباء المهاجر وشعرائه وتوحد مسعاهم في سبيل اللغة العربية وآدابها ، وغرضهم بث روح جديدة ، نشيطة في جسم الادب العربي ، وانتشاله من وحدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فاعلة في حياة الامة والعرب جميعا ...(٢٩) وقد وجدت بربارة يونغ بين اوراق جبران قصاصة صغيرة كتب عليها « ان رابطتنا تتألف من اثني عشر شاعرا عربيا اكثرهم من الشباب ولن يكون فيها غيرهم ان الموت وحده هو الذي سيخلي مكانا لشاعر جديد ، وهذه الرابطة هي الاصل لتلك التي في حلب والقاهرة ودمشق وبيروت وطرابلس ..(٣٠) .

ان الرابطة هذه بمفهوم جبران هي الصدى العميق الذي كان يرن في الوطن المقيم ، وهو يتململ في سبيل التجديد والانعتاق من اسر القديم .

وقد كانت ابدع تقاليد الشعر العربي لدى شعراء الرابطة الاثني عشر تتغذى بعاطفة ثالوثية من الايمان والمحبة والعمل ، وقد اعتزموا السير حتى النهاية ، الى ان تحيا بذور الحق والجمال في قلوب العرب فتزهر في آدابهم كما كانت تحيا وتزهر من قبل ، ولا عجب ان يقول جبران .. رابطتي .. بحماسة لا تقل عن قوله ... بلادي ...

وهؤلاء الصفوة من رجالنا في ديار الاغتراب ، وهم رجال موهوبون ادركوا قبل غيرهم اي رجل هو جبران . ولذا فقد كانوا يجتمعون بلذة ويتحدثون بابتهاج فرحين ، فيقرا الواحد منهم شعره ويستمع لاشعار اصدقائه ثم يتباحثون متجادلين فينشب بينهم احيانا .. قتال كبير .. كما وصفه جبران ، ولم يكن فيهم من يقبل ان يتزحزح عن موقفه دون ما سبب . وتقول بربارة يونغ كثيرا ما سمعت جبران يتحدث عن «الرابطة القلمية فلقد كان اعضاؤها اخوانه بالروح كما انهم مواطنوه . وقد جمعتهم لغة واحدة هي ليست العربية فحسب بل هي لغة القلب ، لغة الشعر لغة الحق والجمال ، وكم كانوا يتحدثون عن الشرق وعن المحبة والحنان والعدالة حديثا طيبا جميلا . »(٢١) .

من اجل العرب والعربية كانت « الرابطة القلمية .. وايمانها ان الامة التي لا تعطي ادبا خالدا لا يمكن ان تكون جديرة بالبقاء والخلود ، فارادت هذه الرابطة ان تجعل من الادب ادب الروح الخالدة الباقية ، لا ادب ملوك وخلفاء ، وقصور وبلاطات . ولا ادب قبلية وعنجهية عصبية ، بل ادب الانسان ، ادب الحياة(٢٢) . وقد اعلنت الرابطة عن طريقها : « بأن ليس كل ما سطر بمداد على القرطاس ادبا ، ولا كل من حرر مقالا او نظم قصيدة موزونة بالاديب فالادب الذي اعتبرته ، هو الادب الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها . والاديب الذي تكرمه هو الاديب الذي خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير . ذاك ان النفس هي اس الوجود وان كل ما يبحث في النفس انما

يبحث عن المزاملة في الخلق والابداع وان سلطان الادب ليس الا ما يجول في افكار النفس باحثا عن مسالكها مستطلعا اثارها مستفسرا اسرارها . وشرف الاديب ، ابدا في مشاطرة العالم اكتشافاته في عوالم نفسه »(٢٣) فالادب عند الرابطة القلمية ، كان في ابعد مراميه رسولا بين نفس الكاتب ونفس سواه ، والاديب الذي يستحق ان يدعى اديبا هو من يزود رسوله من قلبه ولبه »(٢٤) .

وجبران كان الاديب وكان الشاعر ، وقد اعلن هو نفسه عن ذلك بقوله : « انا شاعر ، انظم ما تنثر الحياة وانثر ما تنظمه ، ولهذا انا غريب وسأبقى غريبا حتى تخطفني المنايا وتحملني الى وطني »(٢٥) .

وجبران في شاعريته ، كان غريبا عن العالم المادي الذي لم يفهم هذا الشاعر ، ولان الشاعر بدوره لم يجد في الحياة من يعرف كلمة من لغة نفسه ـ وقد عبر جبران عن غربته هذه بقوله : « انا غريب في هذا العالم ، انا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير انها تجعلني افكر ابدا بوطن سحري لا اعرفه وتملأ احلامي باشباح ارض قصية ما راتها عيني »(٢٦) .

هذا الاقوال الجبرانية تقودنا الى الحديث على الشعر عند جبران « انا اعرف ان لدي شيئا اقوله للعالم ، شيئا مختلفا عن اي شيء آخر : يقول جبران في سنة ١٩١١(٢٧) وتقول فيه ماري هاسكل : انه يعيش في ظل إله غريب »(٢٨) .

هذا الشيء الغريب ، هو الشعر ، وهذا الاله الغريب هو الشعر ، في اي شكل من اشكاله ، وجبران يريد ان يقوم بشيء فريد ، غريب « اني اريد ان احب للاشياء التي لم اقم بعملها بعد »(٢٩) واذ يحلل ذاته نقديا ، يعلن نفسه مبدعا خلاقا . انه شاعر يبدع او يحاول ان يبدع كونا جديدا عالما جديدا ، هو عالم فردوس منشود فتش عنه الشاعر عبر كيانه وروحه ... انا لست مفكرا (يقول جبران) انا خالق

اشكال » (٤٠) . وهو في ابتداعه الاشكال تلك ، انما عن وحي ، فجبــران كان ذا احساس مرهف عال مؤلم ولقد كان في اعماق نفسه هاتف يدعوه وكان عليه ان يستجيب لنداء هذا الهاتف ، وهو يقول : « هل علي ان اجيب الهاتف ؟(٤١) ذاك انه كان يشعر كأنه رجل قد وصل منذ لحظات من كوكب اخر ، انا رجل بلا امس على هذه الارض ، ان حركات الناس واصواتهــم غريبة عني »(٤٢) .

ان الهاتف الذي كان يلح على جبران ، هو سحر الكلمة ، الكلمة ــ الشعر ، التي تبدع جديدا لا التي تنسخ رسما او تزين مومياء . يقول في ١٩٢٠ « ان لي اسلوبي الخاص باللغة الانكليزية ــ لكني لن اتمكــن قط من تغيير اللغة الانكليزية بالشكل الذي غيرت به اللغة العربية . ففي العربية قد خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة كانت قد وصلت حــدا بالفا من الكمال ــ لم ابتدع مفردات جديدة بالطبع ، بل تعابير جديــدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة .. »(٤٣) .

وهذا عائد الى كون جبران الذي يكتب بالانكليزية كان مجذرا بتراثه العربي ؛ فهو وان كان محاولا ان يتعلم التعبير عن افكاره بالانكليزية مباشرة »(٤٤) كان يفكر بالعربية وينظم بها ، ثم يترجم بالانكليزية بدقــة متناهية »(٤٥) ذاك انه وان كان يعتبر نفسه مواطنا عالميا فهو يشعر بانه عربي وليس في ذلك تناقض عنده(٤٦) من هنا كانت كتابة الشعر عنــده بالانكليزية جهدا شاقا، اذ كان يستعذب التفكير بالعربية والتكلم بالانكليزية فيلقى من يكتبها له .(٤٧) وهذا ما يفسر لنا كتابته لكتاب النبي نحوا من خمس مرات ، وهو نفسه استمر يكتب باللغة العربية حتى اواخــر حياته . وكان حبه لقراءتها بصوت عال تلذذا يزداد مع الايام ، وكان يلذ له ان يقرأ التوراة العربية مترجما ما يقرأ ليقارن الاميركيون ما يترجم بالانكليزية (٤٨) . فجبران ادرك غنى ثروة لغته الام اللغوية ، وانها الاداة الاسلم للتعبير عن فكره ورؤاه ، وقد قال : « خمسون كلمة تؤدي معنى الحب في العربية وليس بالانكليزية سوى كلمة واحدة ...(٤٩) رغــم

ان ماري هاسكل قد قالت في انكليزيته ، ان انكليزية خليل (وهـذا الاسم يعرف به عند الاميركيين) هي ارفع انكليزية اعرفها ، لانها لغـة خلاقة وبسيطة بساطة رائعـة .

ومنذ حداثته ، كان جبران خليل جبران ، ثائرا على كل شيء وهو مع ثورته على الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، قـد وجه ثورته الى النواحي اللغوية والادبية ، وقد طالت هذه الثورة فـن الشعر ، وهو يقول لماري هاسكل في سنة ١٩١٤ انه كان حتى ، وهو طفل حساسا جدا فيما يتعلق بالالفاظ وانه كان يريد ان يقول الاشياء بطريقته الخاصة : « الطرق القديمة لم تكن تعبر عن اشيائي الجديدة . وهكذا كنت اعمل دائما على ما ينبغي ان يعبر عنها. ولم اقتصر على صياغة الفاظ جديدة بل ان ايقاعاتي وموسيقاي كانت جديدة ــ واشكال التاليـف كلها كانت جديدة ، كان علي ان اجد اشكالا جديدة لاراء جديدة(٥٠) . لكنه مع هذه الثورة لم يتنكر لعروبته ولتراثها لقد قال : « انا اعتقـد ان فن اليوم مدين بابدع عناصره للعرب الذين حافظوا على الروح التي كتب بها كتاب الموتى والافيستا وسفر ايوب وعززوها .(٥٢) كما قال : « لعل اعظم الاداب هي الاداب العربية ــ او بالاحرى السامية والاغريقية والانكليزية » .(٥٣)

قلنا في ثنايا هذا البحث ان الرابطة القلمية كانت من اجل العربية والعروبة والعرب وجبران خليل جبران يعتز بانتمائه العربي ويكبـر تراث العرب واصالتهم وعلومهم وفنونهم ، وهو مقتنع بـان الحضارة العربية كان لها اثرها الفاعل في النهضة الاوروبية مثلما آمن ان نهضـة الثقافة العربية في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن فيها اشياء كثيرة من المؤثرات الغربية .(٥٤) كما انه كان يدرك ان التواصل الحضـاري وقف على كل الامم ، شريطة ان يغنى الادب والفكر القوميان اولا : وان عملية الصهر الاخوي واجب انساني ، لذلك يقول : « ولكن في عمليـة الصهر الاخوي الكبرى هذه يكون من واجب كل شعب ان يتقدم بطابعه الوطني لا ان يتخلى عنه . وقد قدم الشعب العربي للعالم كثيرا وسيقدم

الكثير ايضا . وعندما يعرف الغرب ادب العرب سيجده ادبا من اغنى اداب الارض ، والقرآن هو القطعة الرائعة فيه ولقد كان للعرب قيما قبل الاسلام ، في عصر الجاهلية كما يسمى ، شعر رائع مثير فيه رجولة وفيه خيال راسخ هائل اصيل مما كان له اثره في العالم الغربي . وخذ على سبيل المثال سفر ايوب فهو كتاب عربي ترجمه العبرانيون الى لغتهم وادعوه لانفسهم . وقد استلزمت تلك الثروة الهائلة من الشعر استنباط الكثير من الاوزان المعقدة لشبطه . وعليك ان تتذكر ان الشعر عند العرب لم يكن يومئذ ، وليس هو اليوم وقفا على المثقفين القلائل ولكنه ملك الجماهير الغفيرة الثمن ... »(٥٥) .

ويذهب جبران الى ابعد من هذا في تقديره للشعر العربي هذا الكنز القومي اللساني الحضاري ، فيعزو ان القصيدة القصيرة المعروفة ب « السونيت » Sonnet مثلا نقلها الايطاليون عن العرب .(٥٦)

ويقف جبران من التراث العربي وقفة المقدر المحترم ، ويعلن للملأ ان في تراثنا كنوزا ثمينة بمقدورها ان تسهم في عملية بناء الثقافة العالمية . يقول:« فلدينا من الشعر الرومانتيقي الذي يمجد البطولة الكثير مما لايزال دفينا . وفي آدابنا ، ليال عربية ، ماتزال غير مترجمة هي ابدع من « الليالي » التي تعرفون ، ولدينا كنز ثمين من الفلسفة الصوفية لم تمسه بعد يد غريبة . فعندما تضاف هذه الثروة الطائلة الى الثقافة العالمية سيعرف العالم عندئذ انها تقدمة شعبنا العظيم »(٥٧) .

فهل كان جبران بدعواته هذه صوت الشعب العربي في ديارالاغتراب ان في كلمات جبران نفسه ردا على هذا السؤال ، وهو رد فيه ايجابية وايمان بقدرات شعبه وابناء بلاده ويكفي انه كان يؤمن بقوة العادات العربية وبأثرها الفعال في حياة العرب وتفكيرهم ، لذلك قال في رسالة وجهها الى الشباب الامريكيين المتحدرين من اصل لبناني وسوري .

« اني اؤمن انكم تستطيعون ان تقولوا ، لاميرسون وويتمان وجيمس: في عروقنا يجري دم الشعراء والحكماء القدماء ... واننا نرغب في ان نأتي اليكم ونأخذ ، ولكننا لن نأتي بأيد فارغة ...

(وعندما تقفون) امام قباب نيويورك وواشنطون وشيكاغو وسان فرنسيسكو (قولوا في قلوبكم) نحن سليلو قوم بنوا دمشق وجبيل وصور وصيدا وانطاكية . ونحن هنا لنبني معكم وبعزم نبني .

هذا الكلام فيه الدليل الكبير على تعلق جبران بتراثه وشعبه وامته وحضارتها . ودليل ساطع على ان هذا الشاعر المتغرب الغريب ، لم ينِ يرفع مداميك الفكر من اجل تحقيق مكانة امته تحت الشمس . وقد يبدو في هذا الكلام شيء من المغالاة ، لكننا اذا عدنا الى كل تراث جبران نجد ان هاجسه الاكبر كان تحرر امته من كل قيد .

وهذا التحرر اراده جبران قبل اي شيء اخر تحررا ابداعيا لان في التقليد جمودا وعبودية . لذلك فانه يميز فيما يتعلق بين تقليد الغرب للشرق ثم تقليد الشرق للغرب : الغرب قلد الشرق بحيث مضغ وحول الصالح مما اقتبسه الى كيانه ، اما الشرق فانه اليوم يقلد الغرب فيتناول لما يطبخه الغربيون ويبتلعه دون ان يحوله الى كيانه بل على العكس انه يحول كيانه الى كيان غربي . وهذا ما يجعل الشرق يبدو في عين جبران اشبه بشيخ هرم فقد اضراسه ، او بطفل لا اضراس له(٥٨) . ويخلص جبران الى حقيقتين : الاولى هي : « ان روح الغرب صديق وعدو لنا ، صديق اذا تمكنامنه ، وعدو اذا وهبنا له قلوبنا ، صديق اذا اخذنا منه ما يوافقنا ، وعدو اذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه . والثانية هي انه خير للانسان ان يبني « كوخا حقيرا » . من ذاته الاصيلة ، من ان يقيم « صرحا شاهقا » من ذاته المقتبسة .(٥٩)

« وطبيعي ان يتغير ، ضمن هذه النظرة ، معنى الشاعر من جهة ومعنى الشعر من جهة ثانية . فلم يعد الشاعر ذلك الشخص الذي

يكتب القصيدة كنوع كتابي ، اصطلح عليه في التقليد الكتابي ، بل اصبح الشاعر « كل مخترع مكتشف » ولم يعد الشعر تبعا لذلك منحصرا في القصيدة الموزونة المقفاة ، وانما اصبح رؤيا شاملة جديدةللعالم والانسان، وشكلا كتابيا موزونا اومنثورا ، يحتضن هذه الرؤية يتطابق معها وينقلها الى الاخر . وبدءا من ذلك يضع جبران الاسس الاولى لتحديد الشعر والكتابة بشكل عام ، تحديدا جديدا .(٦٠) .

لقد راى جبران في انماط الشعر العربي القديم او التقليدي قوالب جاهزة ورواسم مهيأة شبيهة بالازياء الجاهزة ، فما على الشاعر ساعتئذ الا ان يقيس ما يناسبه منها فيختاره . لذلك فرق بين الشاعر المبدع والمقلد قائلا : « الشاعر ابو اللغة وامها ، واذا كان الشاعر ابا اللغة وامها فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها . المقلد هو الذي لا يكتشف شيئا ولا يخلق امرا بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ، ويصنع اثوابه المعنوية من رقع يجزها من اثواب مَن تقدمه(٦١) .

ويخاطب المقلدين الذين يسرقون غيرهم ويتسكعون على الابواب ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء اثر المتقدمين فخير لكم وللغة العربية ان تبنوا كوخا حقيرا من ذاتكم الوضعية . مـن ان تقيموا صرحا شاهقا من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكـم زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة فخير لكم وللغة العربية من ان تموتوا مهملين محتقرين من ان تحرقوا قلوبكم بخورا امام الانصاب والاصنام . ليكن لكم من حماستكم القومية دافع الى تصوير الحيـاة البشرية بما فيها من غرائب الالم وعجائب الفرح . فخير لكم وللغـة العربية ان تتناولوا ولو ابسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من ان تعربوا اجل واجمل ما كتبه الفربيون(٦٢)

في هذا القول يدعو جبران الى الاصالة في الشعر ، اصالة الشاعر واصالة التعبير يعني الصدق في التعبير عن التجربة الشعرية ـ الشعورية . مثلما يرفض قصائد المناسبات وبيع الكلمة في اسواق المحافل والقصور.

ومثلما يرفض التقليد كذلك يرفض نقل التراث الغربي بحجة انه تجديد. وكل ما يبتغيه أن يكون الشاعر أصيلا صادرا عن نفسه معبرا عن عصره وهذه الدعوة كثيرا ما ترددت اصداؤها في حركة تحديث الشعر العربي فجبران رأى الشعر الى زمانه ، قد صار مادة تتناقلها الايدي ولا تدري بها النفوس .

وقد عرّف الشعر بأنه الروح المقدسة المفعمة بالحياة ، قال : « الشعر ياقوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب او تنهدة تسرق من العين مدامعها ، اشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وان جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه ارقى »(٦٣) .

فجبران بتعريفه الشعر هذا ، يرفض المقولة القديمة ، الشعر كلام موزون مقفى ذو معنى ، فلا الوزن ولا القافية ولا المعنى ، هي التي تصير الكلام شعرا ، الشعر اذا بمفهوم جبران ، فوق التعريفات والحدود ، انه الروح البشرية بكل حالاتها ، وما تعريف الشعر وحده بوزن او غيره ، الا تقييد لحرية الشاعر لذلك يثور جبران على القيود الشعرية القديمة ، وقد رأى في اوزان الخليل عقودا لا توائم الجيد الحديث ، فقال : « لو تخيل الخليل ان الاوزان التي نظم عقودها واحكم اوصالها ستصير مقياسا لفضلات القرائح وخيوطا تعلق عليها اصداف الافكار لنثر تلك العقود ، وفصم عرى تلك الاوصال : ولست منفردا في وحدة الاستياء — يقول جبران — بل رأيتني واحدا من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثلا بالجاموس » (٦٤) .

كذلك تحرر جبران من قاموس الشعر العربي القديم وقال بالتجديد في القاموس الشعري ومقالته : مستقبل اللغة العربية ، التي نشرت في عام ١٩٢٣ ، تحدد قضية التحرر اللغوي ، وهو في هذه المقالة يربط تجدد اللغة بتجدد الانسان ، فاللغة ، مظهر من مظاهر الابتكار وان مستقبلها يتوقف على الفكر المبدع الكائن ، او غير الكائن — في الامة التي تتكلم اللغة

العربية . وهذه القوة في الابتكار هي الجوع والعطش والشوق الى غير المعروف . اللغة سلسلة احلام لا تنتهي كالحياة التي لا تنتهي . وهذا متوقف على الشعراء ، اذ الشاعر هو ابو اللغة وامها ، لا اللغوي الذي يدرسها ويحللها . من هنا كان الابتكار ومستقبل اللغة بل الثقافة ككل مرتبطة بقوة الابتكار ، اي بالشاعر(٦٥) . وليس من شك في ان التخلص من آثار الكلاسيكية بحاجة الى نفوس متحررة صافية تستطيع ان تنتصر على الرواسب القديمة وترتفع على النمط المألوف الذي انحدر الينا عبر الاجيال واكتسب قدسية واحتراما في نفوس الناس(٦٦) . ولم يكن جبران وحده في هذه المعركة ، بل كل الصفوة من ادباء المهاجر وشعرائه ، فها امين الريحاني يشارك في تلك المعركة فيقول : « من الخطأ ان يظن ان كل ما جاء به عرب الجزيرة انما هو منتهى الفصاحة والبلاغة » وان استعاراتهم كلها جميلة في كل مكان وزمان . ومن الوهم ان نتصور في الماضي رب العصمة والكمال كما انه من الوهم ان نحصر نبوغ زماننا في احسان لغة مضر وقحطان(٦٧) . ولنا في كتاب ميخائيل نعيمة « الغربال » دليل على الثورة المهاجرية .

وجبران « يعبد الكلمة »(٦٨) يعني انه متصوف في محراب اللغة . لكن اية لغة ؟ لغته التي تعبر عن افكاره . فهو ينتظر احيانا اسابيع لتأتيه عبارة واحدة ، ذلك انه يرفض الطرق القديمة . وهو لم يبدع كلمات جديدة ، لكنه حمّل الكلمات مفاهيم جديدة ، كان يريد ان يقول الاشياء بطريقته الخاصة ، فالطرق القديمة لا تعبر عن اشيائه الجديدة ، انما بالحرية اي حرية تطوير اللغة وآدابها ، يستطيع ان يعبر ، والحرية هذه سبيل الخلق والعظمة ، لا التقليد والمحاكاة ، وهو في تجديده صياغة الفاظ جديدة تعدى ذلك الى الايقاع والموسيقى . وكل اشكال التأليف عنده كانت جديدة وخير شاهد على ما نذهب اليــه قصيدته الطويلة « المواكب » ومنها بيت يقول فيه :

هل تحممت بعطر   وتنشفت بنــور(٦٩)

وقد يظن ظان ، ان جبران في دعوته الشعرية انما يدعو الى الانسحاب من التراث ، او هدم ما بناه السلف . والحقيقة ان جبران في كل ما صدر ، صدر عن صدق في نفسه وصدق مع غيره ، وان ثورته على التقليد لا تهدف الا الى مضاعفة مسؤولية الشاعر تجاه واقعه الانساني في نطاق واقعه القومي ، ولهذا ينعي جبران على شعراء التقليد تبذلهم في شعرهم ويرى ان المغنين والشعراء في الشرق حملة مباخر ، بل عبيد . .

والقصيدة عند جبران بناء فني متكامل يحس بها الشاعر قبل ان تبرز فوق الورق انه يعرف قصيدته قبل كتابتها : يقول : « ان بعض الشعراء يبدأون القصيدة وهم لا يعرفون كيف ستنتهي بهم ، اما هو فيعرف دائما القصيدة من قبل ان يبدأ بأجزائها وهذه القصيدة ، مثل بذرة تنمو تدريجيا وتنضج تدريجيا ، انها لحن يقول « عندما اكتب قصيدة تطنطن برفق في عقلي ، كموسيقى »(٧٠) ، وهذا الكلام يذكرنا بكلام الرمزيين ولا سيما ملارميه . وهكذا يتضح لنا ان صناعة الشعر عند جبران عمل عاطفة وعقل ونفس . وهو لا يماظل في الكلام ، ولا يكدح وراء اللفظ وبرء الجمال . بل يحاول ان يدخل افكارا تحت ستار الجمال بطريقة بسيطة ، لانه يعتقد . . « بأن التعبير الفني الصادق هو بسيط ــ وبانه يقول ما يقصده ليس الا »(٧١) .

وبما ان جبران كان مرهفا لصوت الهاتف المجهول الذي يناديه دائما ، فهو يرى ان باستطاعته كتابة الشعر ساعة يشاء . قال في عام ١٩١٧ ، ان قول الشعر ايسر عليه من كتابة الأمثال . ففي حال الامثال لا يستطيع ان يصنعها بل عليه ان ينتظرها اذ هي تصنع ذاتها . اما الشعر فعلى عكس ذلك . استطيع ان اكتب الشعر ، والشعر الجيد في اي وقت تقريبا(٧٢) .

وكان جبران من اول القائلين بقصيدة النثر في أدبنا العربي الحديث ففي رسالة الى مي زيادة (١١ / ١ / ١٩٢١ م) يقول : « فكم مرة نريد ان نبدي فكرة بسيطة فنضعها في ما يتيسر لنا من الالفاظ ، تلك الالفاظ

التي تعودت اقلامنا سكبها على الورق ، فينتج عن كل ذلك « قصيدة منثورة » او « مقالة خيالية ، اما السبب فهو اننا نشعر ونفكر بلغة اصدق واصح من اللغة التي نكتب بها ، نحن بالطبع نحب القصائد المنثورة والمنظومة ونحب المقالات الخيالية وغير الخيالية بيد ان العاطفة الحرة شيء والبيان ... شيء آخر . مذ كنت صبيا في المدرسة وأنا ابتعد بقدر استطاعتي عن التعابير القديمة المتداولة لانني كنت ولم ازل اشعر بأنها تخفي الفكر والعاطفة اكثر مما تظهرهما »(٧٣) ..

لقد فهم جبران « قصيدة النثر » وادرك انها تعبر بحرية عما يعتمل في اعماق الشاعر ، والمهم في كل القضية « العاطفة » ذات الايحاء الشعري. وقد يقول بعضهم ان نثر جبران نثر شعري والحقيقة ان هناك فارقا بين النثر الشعري وقصيدة النثر . النثر الشعري ، أطنابي يسهب بينما قصيدة النثر مركزة ومختصرة ، وليس هنــاك ما يقيد مسبقا النثر الشعري ، اما في قصيدة النثر فهناك شكل من الايقاع ونوع من تكرار بعض الصفات الشكلية . ثم ان النثر الشعري سردي ، وصفي ، شرحي. بينما قصيدة النثر ايحائية »(٧٤) .

وقد ادرك الاميركيون قضية قصيدة النثر عند جبران : وها هو يكتب لماري هاسكل في عام ١٩١٥ ، ان قصيدتين طويلتين من « المجنون » قرئتا في اجتماع للجمعية الشعرية الاميركية ، وان نقاشا طويلا جرى بعد القراءة وان بعض الجمهور علقوا بأن القصيدتين بديعتان والبعض بأنهما غريبتان وعسيرتان على الفهم ...

« ويكتب لها في خريف ١٩١٣ عن كتابه « دمعة وابتسامة » . ويقول ان مجموعة من بواكير قصائده النثرية ستصدر (صدرت«دمعة وابتسامة» في ١٩١٤)(٧٥) .

قد يكون جبران ابا لقصيدة النثر في الشعر الحديث ، وقد يكون الريحاني لكن أحد النقاد الاميركيين يقول : « ان طابع جبران وعمق تأثيره

في العالم العربي كله ليستدل عليه من انه خلق كلمة جديدة هي الجبرانية ، ولكن القراء الانكليز لن يستطيعوا ادراك ما تعنيه هذه الكلمة . انها تعني الرؤى الصوفية والجمال الموزون والبساطة والحيرة في بحث « مشاكل الحياة » كما انها تعني قوة دراماتيكية خارقة وبراعة عميقة وايحاء كالبرق لماحا ، وحياة غنائية ، وجمالا شعريا كاملا يتخلل كل ما يلمس بيده »(٧٦) .

ويبدو لبعض الدارسين ان لا صلة لقصيدة النثر والتراث غير اللغة ، واما تقنية هذه القصيدة فهي تحصيل لقناتين ، قناة انكلو سكسونية ، اتت عبر جبران وامين الريحاني ثم التأثير الفرنسي الذي جاءنا عبر المؤثرات الفرنسية والتعليل هنا اذا كانت قصيدة النثر هي نتاج اجنبي خصوصا عند جبران فأين يكمن تأثير التوراة والانجيل وهما مشرقيان وجبران قبس الكثير منهما ، مثلما استفاد من تراثه القومي ، اضف الى ذلك ان جبران قد اعجب بالقرآن الكريم ، وقال فيه هو أرفع رائعة في اللغة العربية(٧٧) .

وفي قصيدة النثر عند جبران ، نجد الشبه قويا بينها وبين القصيدة الغنائية LYRIQU فالجمل والفقر تزداد قصرا لتقابل أبيات الشعر ، كما تزدحم الصور المبتكرة والكنايات ، وتتوالى العبارات متوازنة او متقابلة فيرتفع الايقاع الموسيقي ويزداد معه التكرار والتضاد والتنسيق الشعري ، فنخرج من المقالة ــ القصيدة ، وكاننا كنا في حلم ، فجبران لا يصرح بل يلمح عبر ايحاء الكلمات(٧٨) . ولنا خير دليل على ذلك مقطعات من كتاب « النبي » . فجبران استطاع كما يقول : « ان يخلق لغة جديدة في قلب اللغة العربية » ولا مجال ههنا لان نورد نماذج من نثره الذي ارتفع به الى حد قصيدة النثر . ففي تضاعيف مجموعته الكاملة نره جمالية نثرية وشطحات شعرية اخاذة ولغة جديدة « جبرانية » مشحونة بالرؤى النورانية واللفتات الصوفية والايقاع الموسيقي والرنة الهامسة على اصالة مشرقية تحدوها اللمع الاجنبية . فكانت اللغة التي خلقها جبران في قلب

اللغة العربية اصالة عميقة حول بها النثر العربي الحديث عن مساره . اذ صهر كل مخزونه الثقافي الذي افاده من الشرق والغرب ، فرده الى فنيْه كليهما فعل ابداع وعاش تجربة الحضارة من لقاء الميراث العربي بالميراث الانساني فأزهرت على انامله اللغة الشائخة ورد" اليها النضارة الضائعة ، وخلق للشعر العربي المعاصر قسما من معجمه الشعري ورموزه من قضاياه ومواقفه ، بما فتح في الالفاظ في مجالات الظلال وما حملها من رؤى الافتراض والاحتمال والهمس الجميم(٧٩) .

ان اللغة التي خلقها جبران كانت وليدة فكره وثقافته فهو يقول عام ١٩٢١ ، انه لم يستعمل قط قاموسا عربيا ــ ولم يفتح قط قاموسا عربيا نصف دزينة من المرات في حياته ، وانه لم يدرك انه كان يستعمل العربية بشكل يختلف عن الآخرين ، الى ان اخبره الآخرون عن ذلك . وكان قد قال في عام ١٩١٦ ، انه يفضل فكرة سقيمة معبرا عنها بجمال وموسيقى على فكرة جيدة معبر عنها في قالب رديء(٨٠) .

فجبران في اصالته المبرأة ، يريد ان يكون متفردا مبدعا لا مقلدا ناسخا ، « ان لدي شيئا اقوله للعالم ، شيئا مختلفا عن أي شيء آخر » . هنا تكمن هذه الاصالة القائمة على وعي بعيد للتراث وفهم اكيد للذات المبدعة ، يقول جبران (١٩١٤) « ان في الادب العربي اشياء كثيرة اعظم من آثاري ــ ولكن اقول بصراحة ان آثاري هي اكبر آثار في اللغة العربية اليوم »(٨١) . وبذلك يكون جبران قد عاد بالشعر الى التراث ديباجة اصيلة والى الذات الخلاقة هنيهة شعرية اصيلة ، فزاوج بين التراث والحداثة في عملية صوفية موغلة في الخيال المبتكر .

وكابد جبران الشعر المنظوم ، لكنه لم يلتزم بنائية القصيدة العربية القديمة ، وانما كتب شعره الموزون على بحور معدلة أو مجزوءة حتى انه في قصيدته الطويلة « المواكب » ذات الصوتين استخدم بحرين شعريين ، وكان بذلك ممهدا للثورة التي احدثتها حركة الشعر الحر في ادبنا ، وكأنه بذلك كان ينادي بجمع البحور ، او تشابك الاوزان » . اما قصائده

المنظومة فهي من نمط الموشحات والاراجيز التي لها مثيل في تراثنا القديم . فجبران لم يبتدع اشكالا جديدة في الشعر المنظوم وقد نلمح في بعض شعره أثر القديم .

غير ان جبران اكثر من تنويع القافية في شعره جريا على نمطية الشعر الغربي والموشح الاندلسي . فكان بذلك خارجا من التراث اذ لنا في شعرنا القديم بعض المقطعات ذات البحر الخليلي الواحد والقافية المنوعة »(٨٢) لكن الذي يميز مقطعات جبران ، الايحاء والرمز والظل والتجريد ... ومهما كان موقع جبران من التراث والمعاصرة فان شعره يظل جبراني النسج وتبقى قماشته كيفما اختلفت الالوان ، جبرانية الطابع والنفس . ونمثل على شعر جبران بالمقطوعة التالية نموذجا يظهر نهج هـذا الشاعر ويصور نمطيته في كتابة الشعر ، يقول في قصيدة « النفس » :

يا نفس لولا مطمعي بالخلد ما كنت اعي

لحنـاً تغنيـه الدهـور

بل كنت انهي حاضري قسرا فيغـدو ظاهري

سرّاً تواريـه القبـور(٨٣)

ان تراث جبران الفكري والادبي والفني ، هو حصيلة ثقافة واسعة تواترت بالدرس والمطالعة ، وقد تعددت منابع هذه الثقافة ، فكانت عربية مشرقية وغربية انكلوسكسونية ولاتينية ، استلهم جبران تراث العرب . ولا سيما القرآن ونهج البلاغة ودرس تراث الهند وفارس . واستفاد من اليونان واللاتين والالمان . ولم تكن محاولاته التجديدية وليدة المصادفة والطفرة بل كانت تأثرا واحتكاكا وبعد رؤيا على اصالة عربية لبنانية ، حضارية . فقد اعجب بالمتنبي وبابن خلدون واحب ابن سينا وخصوصا

في قصيدته « النفس » وكان بينه وبين الغزالي وشائج وطوف مع ابن الفارض في دنيا الصوفية وتعلق بديك الجن الحمصي . وهام مع مجنون ليلى ، ونادم ابا نواس وتفلسف مع المعري واستشف بالمعتمد بن عباد الانفة والكبرياء .

اما على صعيد الثقافة الغربية ، فقد قبس من نيتشه وسبينوزا ودانتي ، وملتون وتغنى مع شعراء الرومنطيقية والرمزية ، وتأثر اكثر ما تأثر بوليم بليك ، وخصوصا من ناحية الصوفية وتجسم في رسمه اسلوب رودان النحات الفرنسي . وقد استفاد من كل ما قرأ على تفاوت وبعد أصالة .

وهو في الغوص على منابع الذات الانسانية كان مؤســس المدرستين الرومنطيقية والرمزية في أدبنا العربي اذ كان ماهدا للشابي ، وابي شبكة، وصلاح لبكي والتيجاني يوسف بشير (السودان) ونفر كبير من شعراء الرومنطيقية والرمزية العربيتين ، فقد وجه الشعراء الذين يحاولون الاسلوب الرمزي الى ابتداع الصور المجنحة الشفافة ، المكتنفة بضباب الحلم والابهام ، التي تطلق الخيال وتحتمل غير معنى(٨٤) . وآمن أن المستقبل لن يكـون قاسيا على نتاجـه وعرف انه لن يكون بوسعه ان يستثير اهتمام اولئك الذين يعبدون آلهة قديمة ، ويتبعون افكارا قديمة ويعيشون برغائب قديمة ، لكن ثمة اناسا يستطيعون ان يتحرروا من سائر قيود الأمس(٨٥) .

وصفوة القول : ان جبران يبقى الاديب والشاعر اللبناني الوحيد الذي باستطاعته ان يحتل مركزا سامقا في الوطن العربي وخارجه . وهذا عائد لثقافته المتنوعة المفتوحة على رياح العالم . وعلى كل البذور المخصبة: شرقية ومتوسطية ونيتشوية وانكلوسكسونية، ولاتينية، على اصالة ذاتية متفردة ، وبذلك يضحي جبران التعريف الآخر للبنان . المنعطف ، الكبير بين الشرق والغرب(٨٦) .

الهوامش

(١) ادونيس صدمة الحداثة ط١ ، دار العودة بيروت ١٩٧٨ ، ص ٩ — ١٠ .

(٢) راجع طه حسين في الادب الجاهلي ، ط٩ ،دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ، ص ٧٠ومابعدها .

(٣) ادونيس « الثابت والمتحول » ، الكتاب الاول ، ط١ دار العودة بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥ .

(٤) القران الكريم : سورة يس : ٦٩ .

(٥) ادونيس : الثابت والمتحول ، ١ ، ص ١٠٨ .

(٦) م . ن . ص ٥٣ .

(٧) ابو بكر الصولي : « اخبار ابي تمام » ، ط٣ ، تحقيق خليل محمود عساكر ونظير الاسلام الهندي ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٧٢ .

(٨) ادونيس : الثابت والمتحول ، ١ ، ص ١٠ .

(٩) خليل مطران « الكتاب امس والكتاب اليوم » المجلة المصرية ، ١٩٠٠ ، بعدد ٣ ، ص ٨٥ .

(١٠) انطون غطاس كرم : « مدخل الى دراسة الشعر العربي الحديث . عامل الثقافة » في « كتاب العيد » ، اشرف على تحريره ، جبرائيل جبور ، منشورات العيد المئوي الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(١١) م . ن . ص ٢٢٩ .

(١٢) راجع م . ن . ص ٢٣٠ .

(١٣) م . ن . ص ٢٤٣ .

(١٤) راجع : م . ن . ص ٢٤٦ .

(١٥) راجع مقالات كتاب الغربال لنعيمة ، باية طبعة من طبعاته .

(١٦) جبران : المجموعة الكاملة ، طبعة صادر — بيروت ، ص ٥٥٤ وما بعدها .

(١٧) الشعر العربي في المهجر ـ امريكا الشمالية ط٢ ، دار صادر بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤١ .
وروز غريب : ادباءالمهجر في مصادر الثقافة في لبنان ، لا . ط . مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٠٤ .

(١٨) جبران . م . ك . ص ٢٥٣ ومابعدها .

(١٩) احمد هيكل :« الشعر العربي المعاصر بين الاصالة والتجديد » في مؤتمر الاصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة . جامعة الدول العربية ، المنظمة العربيةللتربية والثقافة والعلوم (ادارة الثقافة)القاهرة ـ مطبعة التقدم ، ١٩٧٣ ، ص ٩٤ .

(٢٠) الشعر العربي في المهجر ، ص ٣٣ .

(٢١) روز غريب « ادباء المهجر » في كتاب مصادر الثقافة في لبنان ، ص ١١٤ .

(٢٢) جبران في كتاب بربارة يونغ « هذا الرجل من لبنان » لا . ط . دار الاندلس بيروت ترجمة سعيد بابا ، ١٩٦٤ ، ص ٣٥ .

(٢٣) م . ن . ص ١٨٥ .

(٢٤) م . ن . ص ١٨٥ .

(٢٥) م . ن . ص ٣٩

(٢٦) جبران : م . ك . ص ٣٤٩ .

(٢٧) توفيق صائغ : اضواء جديدة على جبران ، لا . ط . الدار الشرقية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢٨) المقتطف ١٩٢٢ ، اذار .

(٢٩) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ط ٦ ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٧٠ ومابعدها .

(٣٠) بربارة يونغ : « هذا الرجل من لبنان » ، ص ٦٩ .

(٣١) م . ن . ص ٧٠ .

(٣٢) ميخائيل نعيمة مقدمة مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١ ، ط ٢ ، دار صادر دار بيروت ـ بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٥ ـ ١٩ .

(٣٣) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ص ١٧١ .

(٣٤) مجموعة الرابطة القلمية : ص ٦ .

(٣٥) م. ك .. ص ٤٨٨ .

(٣٦) م . ن . ص ٤٨٧ .

(٣٧) اضواء جديدة على جبران ص ٢٣٥ .

(٣٨) م . ن . ص ٢٣٣ .

(٣٩) م . ن . ص ٢٣٤ .

(٤٠) م . ن . ص ٢٣٤ .

(٤١) بربارة يونغ : هذا الرجل من لبنان ، ص ٤٦ .

(٤٢) م . ن . ص ٤٦ .

(٤٣) اضواء جديدة على جبران ، ص ٣٣ .

(٤٤) بربارة يونغ هذا الرجل من لبنان ، ص ١٥٢ .

(٤٥) م . ن . ص ١٢٠ .

(٤٦) م . ن . ص ١١٤ .

(٤٧) م. ن. ص ٩٣ .

(٤٨) م. ن. ص ٧١ .

(٤٩) م. ن. ص ٧١ .

(٤٩) م. ن. ص ٧١ .

(٥٠) اضواء جديدة على جبران ، ص ٣٢ .

(٥١) م. ن. ص ٢٣١ .

(٥٢) بربارة يونغ : هذا الرجل من لبنان ، ص ٢٠٨ .

(٥٣) م. ن. ص ٢٠٩ .

(٥٤) م. ن. ص ١١٥ — ١١٧ .

(٥٥) م. ن. ص ١١٤ — ١١٥ .

(٥٦) م. ن. ص ١١٥ .

(٥٧) م. ن. ص ١١٧ .

(٥٨) راجع م. ك. ص ٤١٩ — ٤٢١ .

(٥٩) م. ك. ص ٥٦٢ .

(٦٠) ادونيس : صدمة الحداثة ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٦١) م. ك. ص ٥٦٠ .

(٦٢) م. ن. ص ٥٦٢ .

(٦٣) م. ن. ص ٢٨٧ .

(٦٤) م. ن. ص ٢٨٧ .

(٦٥) م. ن. ص ٥٥٤ . وصدمة الحداثة ص ٢٠٥ .

(٦٦) كمال نشات « شعر المهجر » ، لا . ط . الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ، ص ٦٢ .

(٦٧) م. ن. ص ٦٢ — ٦٣ .

(٦٨) اضواء جديدة على جبران ، ص ٢٣١ .

(٦٩) م. ك. ص ٣٦٣ (وفاموسيا استحم ، لا تحمم) .

(٧٠) اضواء جديدة على جبران ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٧١) م. ن. ٢٣٢ .

(٧٢) م. ن. ص ٢٣٢ .

(٧٣) « الشعلة الزرقاء » رسائل جبران خليل جبران الى مي زيادة ، لا ، ط ، تحقيق وتقديم سلمى حفار الكزبري وسهيل بشروئي ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٧٩ ، ص ١٠٤ .

(٧٤) صدمة الحداثة ص ٢٠٩ .

(٧٥) اضواء جديدة على جبران ، ص ٢٢٦ .

(٧٦) هذا الرجل من لبنان ص ٧٢ — وراجع انيس الخوري المقدسي : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٤١٩ ومابعدها .

(٧٧) راجع : هذا الرجل من لبنان ، ص ١١٤ .

(٧٨) روز غريب جبران في اثاره الكتابية ، ط ١ ، دار المكشوف ، بيروت ١٩٦٩ ، ص١٧٨ .

(٧٩) انطون غطاس كرم : ملامح الادب العربي الحديث لا . ط . دار النهار ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١٢٤ .

(٨٠) اضواء جديدة على جبران ، ص ٢٣٢ .

(٨١) م . ن . ص ٢٣٦ .

(٨٢) راجع : المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، لا. ط. تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٣ — ١٤ .

(٨٣) م . ك . ص ٥٩٨ .

(٨٤) روز غريب : جبران في اثاره الكتابية ، ص ٢٩١ .

(٨٥) اضواء جديدة على جبران ، ص ٢٣٦ .

Antoine gattas karam : « La vie et l'Oeuvre Littéraire de Gibran khalil Gibran » , N. E. Dar An Nahar , Beyrouth , 1981 , P. 272 .

الظاهرة اليهودية في التاريخ

أحمد يوسف داود

« الشعوب المفتقرة الى بيئة طبيعية وجذور حضارية عميقة عريقة ، هي شعوب زائلة وان اصبحت في فترة من الزمان قوة غالبة . فهي اما ان تمتصها الشعوب المغلوبة منتصرة بحضارتها مع الزمن على شدة الغزوات العابرة ، أو تبعثرها احداث جامحة تقتلعها من تربة هي غريبة عنها وقد عجزت عن ان تكون فيها اصيلة ثابتة » .

اسد الاشقر : تاريخ سورية ونشوء العالم العربي

- ١ -

حين نضع جانبا خلط التوراة ومبالغات كتبتها في اخبار يهود الالف الاول قبل الميلاد .. وحين نستقرىء جيدا أوهام آلاف الباحثين — او تزويراتهم ، لا فرق — عن العبقرية الاستثنائية الخارقة لـ « الشعب !! » اليهودي .. فما هي الصورة التي تتكشف لنا عن حقيقة الوجود التاريخي لذاك « الشعب » ، سياسيا واجتماعيا .. فكريا ودينيا ؟! وماذا يتبقى لليهود من ركام الادعاءات التي شغلت العالم وما تزال تشغله منذ قرون ؟!

قد تفسر العودة الآن الى جذور « الظاهرة اليهودية » وتتبع خط سيرها في التاريخ ، بأنها صيغة للهروب من معالجة الواقع ، او قد تفهم على انها نوع من الدعاية المبتذلة المضادة التي تستهدف اسقاط الاعمدة المحورية لدعاية الخصم عن طريق اصطناع نقيض لها .. لكن حقيقة الامر شيء مختلف تماما . فالجميع يعرفون ان اسرائيل ليست « شيئا » يمكن تصفية الفاعلية السلبية لوجوده بالخطب البليغة والشعارات المدوية والخطب الطنانة ولا حتى باكتساب تعاطف الراي العام العالمي . الجميع يعرفون ان تصفية الفاعلية السلبية للوجود الاسرائيلي يقتضي فقط نصرا عسكريا ، نهائيا وحاسما !!

لكن النصر يحتاج كي يتحقق الى تهيئة عربية ذاتية ، او الى « مقدمات » لابد منها . وفي طليعة تلك المقدمات ترسيخ وتعميم «المعرفة» الكلية الشاملة بالخصم ، بحيث يمكن دائما توقع ردود الفعل التي تصدر عنه ، او تحديد المبادرات التي سيتخذها في شروط وظروف معينة ، أو ادراك المدى الاقصى الذي يمكنه الوصول اليه في هذا المجال او ذاك ، أو تعيين الحد الذي يجد نفسه عنده مجبرا على المجازفة بهذه النقطة او تلك وبالتالي ضبط قدرته على المناورة واحباطها ، وانتزاع زمام المبادرة الفعلية من يده ودفعه الى ما لا يريد الاندفاع اليه من اعمال ... الى آخره .

وبتعبيرات اخرى ، فان الوجود الاسرائيلي العدواني ليس مجرد حصيلة للانحطاط العربي المزمن والعلاقات الدولية المعاصرة ، بل هو —

في شكل تعبيره المجتمعي عن ذاته ـ نمط تكيف « الظاهرة اليهودية » مع شروط عصرها . فهو على ذلك مستند في نشوئه وسيرورته ومصيره على أسسها السيكولوجية والقيمية الناجمة عن تاريخ تطورها الكلي ! وهكذا تنكشف خطورة البحث عن « الظاهرة اليهودية » في التاريخ ، بانكشاف علاقتها الجوهرية باسرائيل ! ان الاسس السيكولوجية والقيمية المذكورة تحدد المفاصل الاساسية لحجم كل بنية مجتمعية اسرائيلية ، ولدورها وفعاليتها عبر العلائق الداخلية المتبادلة .. وهذا يعين على رسم صحيح لملامح الصورة التفصيلية للمركب المجتمعي العام في اسرائيل ، ويكشف لنا عناصر القوة الفعلية في مجموع وجودها ، كما يفضح الثغرات ونقاط الضعف القاتلة فيه ، ويبرز بالنتيجة ـ وبجلاء كاف ـ مجمل اتجاهات تطوره ووتائرها ... لا بل انه يساعد على ادراك تقريبي لأهم السمات الفاعلة في شخصية كل قائد اسرائيلي ، وهو مالا تخفى قيمته الهامة على أحد . ومن يمارس وعيا سليما للظاهرة اليهودية في التاريخ لا يمكن له اطلاقا ان يفكر بامكانية السلام مع اسرائيل ـ أيا كانت صيغة ذاك السلام ـ ما لم يكن خائنا ! بل ان المناورة في هذا الاتجاه ، تحت اي حجة كانت ، أمر مرفوض مادمنا نحن الطرف الاضعف والمغلوب !! ان المجتمع الاسرائيلي الراهن ليس مجرد « غيتو » كبير للتجارة الربوية والسمسرة الدولية في منطقة عربية غنية وضعيفة ، بل هو حصيلة ثلاثة آلاف عام من الشذوذ المترتب على فقدان الشخصية ايضا . وقد عبر هذا الشذوذ عن نفسه دائما بالحقد الشرير والتزوير المخرب ، والعقيدة البدائية الوحشية المنغلقة ، والتعصب الشوفيني الاحباطي المدمر ... والمجتمع الاسرائيلي ، فوق ذلك ، هو الآن قوة غالبة في تربة لا جذور له فيها ، مما يجعل الذعر الخفي المتصاعد المكبوت خصيصة من ابرز واطغى خصائصه التكوينية الدافعة الى دموية عنيفة .

وقادة المجتمع الاسرائيلي تحكم توجهاتهم حقيقتان تفضيان بهم الى التمسك بهدف واحد لا ثاني له .

انهم يعرفون جيدا حقيقة ان الامتصاص الحضاري للغزوات العابرة

من قبل الشعوب العريقة الراسخة المغلوبة قدر لا مهرب منه ، مالم يتم الحفاظ على وتيرة متنامية لروح الغزو الاولى . وهم يعرفون أيضا حقيقة « أن من يسيطر على هذا الشرق يسيطر على العالم » ويريدون هـذه السيطرة لتحقيق الوعد الذي قطعه « رب الجنود » على نفسه(*) !!! وكلتا الحقيقتين تضعهم في طريق واحد لا بديل له ولا خيار معه : طريق تدمير العرب تدميرا شاملا ونهائيا . اذ بدون ذلك سيتم الامتصاص الحضاري عاجلا أم آجلا ، هذا اذا لم تأت « الاحداث الجامحة » التـي تقتلعهم اقتلاعا من التربة الغريبة عنهم . . أوبدون ذلك ايضا لا سيطرة على الشرق سيطرة فعلية ، مهما بدت الظواهر اليوم وكأنها تنطق بوقوع هذه السيطرة !!

ان هذه المعلومات التي تبدو شائعة وبسيطة ، تشكل « مفاتيح » لا غنى عنها لتصور امكانات المستقبل ، بقدر ماهي « قواعد » ثابتـة لشرح واقع الحال . فاستنادا اليها نستطيع ان نحكم سلفا على كامب ديفيد ــ رغم كل ماتهبه لاسرائيل ــ بان اسرائيل تعتبرها مناورة تغطي « فترة اعداد » للانقضاض العسكري . وستصفيها حين تجد ذلك مناسبا لها ، هذا ان لم يتمكن العرب من تصفيتها في الوقت المناسب لهم !.. ونحن مثلا بمعونة تلك « المفاتيح والقواعد » نستطيع الجزم بأن مـن يتوقع من المعارضة الاسرائيلية أكثر مما يتوقع من بيغن فسوف يمنى بخيبة أمل شديدة !! وثمة امر آخر ذو اهمية بالغة نستطيع الجزم به ايضا هو ان دعاة الدول الطائفية ، ومنشئيها ، والعاملين لها ، لـن تسمح لهم اسرائيل أن يستمتعوا بدولهم القزمة وقتا طويلا رغم ما قد تبديه من مساندة في البدء . فهي بفعل حتمية التوجه الى التدمير الشامل للعرب تعمل على بعثرة القوى العربية وتمزيقها وتساعد على كل ما يفتت البلدان العربية الى وحدات صغيرة متناحرة ، ولكن ذلك انما تفعله بهدف تسهيل الانقضاض عليها . وانهائها حين تجيء لحظة الانقضاض المرتقبة . .

(*) طور الكهنة صيغة هذا الوعد خلال تاريخهم من تملك ارض اللبن والعسل في فلسطين الى السيادة الشاملة على العالم !

ومن جهة اخرى نستطيع ان نتأكد من ان تعميق احساس الرعب والحقد في شخصية المجتمع أو الفرد الاسرائيلي سيكون دائما عصب استراتيجية التثقيف والتسييس الداخلي ومحورها ، بغية الحفاظ على روح الغزو الاولى وتصعيدها . وانه لأمر ذو دلالة ان يقوم شخص كبيغن بتلك « الاستعراضات » الطقوسية كقراءته في التوراة عند حائط المبكى وهو يرتدي الزي الديني الخاص .. وما شابه !

اما تقديمه التوراة للرئيس الاميركي جيمي كارتر قائلا « ان كنت مؤمنا فاعمل بما في هذا الكتاب » فهو تصرف ـ حين نمعن النظر فيه جيدا مقارنين بين منطوق التوراة وواقع الحال الاسرائيلي ـ يؤكد بدلالاته البليغة على صحة كل ماذهبنا اليه واثبتناه حتى الآن ، اضافة لعنصر الابتزاز الخطر فيه ، والموجه الى كل المجتمعات المسيحية اصلا .

ـ ٢ ـ

ملاحقة خط سير « الظاهرة اليهودية » في التاريخ ، ليست اذن هروبا من معالجة الواقع ، بل هي دخول اليه من ابوابه الرئيسية ، او نظر فيه من جذوره . غير ان هذه الملاحقة لا تستوفى بمقال ولا بمجلدات . ولذلك سنعمد الى حصر اهتمامنا بمعالجة النقاط الحاسمة والفاعلة في صيرورة « الظاهرة » وتبيان النتائج التي آلت اليها . بالقدر والعمق اللذين يتيحهما لنا مقال في مجلة .

١ ـ جذور الظاهرة :

لم يعد الاعتماد على التوراة كمصدر لتاريخ الشرق القديم امرا واردا لدى الباحثين اليوم ، ولذلك فان الفكرة التوراتية عن اصل اليهود والاحداث المبنية عليها بتلفيق ساذج ومتناقض ، وضعت جانبا ، واخذ البحث في الوثائق الاثرية : المصرية والحثية والكنعانية والآشورية ... وغيرها ، يجري بوتيرة متصاعدة عن اي اشارة لوجود العبرانيين او

شعب اسرائيل أو اليهود ... الذين ــ حسب رواية التوراة ــ يبدون كواحدة من القوى العظمى في المنطقة ! لكن حصيلة البحث كانت سلبيــة بشكل شبه كامل . فهناك اشارة الى « اسرائيل » وردت على مسلــة للفرعون منفتاح في طيبة بمناسبة تدميره احدى غزوات « شعوب البحر » على الجبهة الليبية . وهناك اشارة في نصوص ماري الى (بنويامين / بنيامين / اي ابناء الجنوب) باعتبارهم عشيرة مــن لصوص الطــرق التجارية في بادية الشام . وقد ذهب الدكتور فيليب حتى في كتابه (تاريخ سورية) الى أن قبيلة راحيل دخلت مصر مع الهكسوس ، وازدهرت في ارض جاسان ثم طردت منها (غادرتها حسب تعبيره) في اوائل القرن الثالث عشر . اما جاك بيران ــ كما ينقل عنه اسد الاشقر ــ فيرى في كتابه (تاريخ الحضارة المصرية القديمة) ان العبرانيين كانوا بين الشعوب الآسيوية المستعبدة في مصر ، التي كان يجلبها المصريون مــن حروبهم في آسيا ويشغلونها في الاراضي والمناجم الملكية ، وانهم ثاروا خلال الغزو الاول لشعوب البحر فبطش بهم الفرعون وطردهم . وكان ذلك امرا ثانويا ، أقل شأنا من ان يذكر في المدونات المصرية ووثائقها التاريخية . على اي حال لم يكن باقيا امام الباحثين ، على اختلاف مذاهبهم ، غير التكهنات واستقراءات واقع المنطقة في مرحلة ظهور العشائر التي دعيت « بالعبرانيين » او « الشعب العبراني » ! ويمكن تلخيص ذلك الواقع كما يلي :

تدفقت « شعوب البحر » ــ والتسمية غامضة المدلول ــ على سورية فدمرت مملكة الحثيين والمدن الكنعانية على طول الساحل السوري ، وبدأت حصار مصر من جهة ليبيا ومن جهة الشرق . لكن منفتاح ثــم رعمسيس الثالث تمكنا من استئصالهم نهائيا في ليبيا وفي سورية ، وبقي منها الشعب الفلسطي او الفلسطيني الذي استوطن الساحل بين عكا وغزة . وطبيعي أن يرافق هــذا الغزو اضمحلال في سائر المرافــق الاقتصادية وخصوصا التجارة . وهذا ما أوقع العشائر الجوالة المرتزقة، من سيناء الى العراق عبر البادية ، في مازق حيوي خطير . ويبدو ان هذه العشائر كانت تتألف من بقايا الهكسوس ، وبقايا الجيش الحثي ،

وبقايا « نصف المتحضرين » على اطراف البادية غربا وجنوبا ممن دفعهم ضغط موجة الغزو باتجاه الصحراء ، تضاف اليهم بقايا الهاربين من مصر والمطرودين منها ، وربما بقايا من شعوب البحر بعد تصفيتها ... كما يبدو انها اجتمعت في وقت ما من القرن الثاني عشر قبل الميلاد عند نبع في جنوبي بئر السبع يعرف باسم « قادش » واقامت فيما بينها « حلفا قبليا » وفق التقاليد القبلية المعروفة ، فاختارت الها ضامنا للحلف هو « يهوه » وجعلت علامة العهد قطع لحم الغرلة . وكانت غاية الحلف ايجاد مستقر ومجال حيوي لاصحابه . وكانت اقرب البقاع واسهلها بلاد كنعان الجنوبية ـ اي فلسطين ـ !!(١)

ان رواية التوراة في الاسفار الاولى الخمسة مختلفة بالطبع . وهذه الاسفار كتبت حسب الموسوعة اليهودية ـ في بابل وانجز نصها النهائي حوالي ٤٠٠ ق.م ! لكن الارجح هو أن الرواية من متخيلات علماء المدراش ـ التعليم الشفهي للتوراة ـ دونت في القرن السادس الميلادي. وقد جرى تنقيحها نهائيا وتثبيتها مع بقية الاسفار من قبل علماء طبرية هاسوريين في القرن العاشر الميلادي ، كما يشير بيبروسي في كتابه : (مدينة ايزيس)(٢) .

مهما يكن فان العشائر الاثنتي عشرة ـ ويبدو ان هذا العدد افترضه الكتبة بتأثير بابلي كلداني ـ توجهت بعد الحلف الى فلسطين ، متجنبة ـ كما يقول حتي ـ ممالك ادوم وموآب وعمون الصغيرة (وكان عددهم لا يمكن ان يتجاوز ستة آلاف أو سبعة آلاف اذا اعتبرنا شروط حياة الصحراء وقلة المياه والكمية المحدودة من الطعام والاراضي الصالحة لرعي لقطعان)(٣) .

---

(١) عرضت قبلا لهذه الواقعة في مقال عن كتاب « امبراطورية الخزر » لكوستلر ـ مجلة المعرفة عدد آيار ١٩٨١ م .

(٢) ترجمة فريد جحا ـ منشورات وزارة التعليم العالي بدمشق ١٩٨٠.

(٣) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ الجزء الاول من الترجمة العربية لحداد ورافق ـ دار الثقافة ١٩٥٨ ـ بيروت .

وللقارىء الآن ان يتخيل اي مركب سيكولوجي كان يتحكم بسلوك « اخلاط العشائر » تلك ، كما سماها الدكتور حتي ؟! والى اي مدى يمكن ان تهمها القضايا الروحية والعقيدية والاخلاقية ؟! وايـة دوافع كانت تحرك فعلا اولئك الجائعين المطاردين ؟ ومن اي عقد نقص يعانون ؟!

وبعد ذلك علينا ان نلاحظ بضعة امور ذات اهمية خاصة :

اولا : المذابح الوحشية التي تتحدث عنها التوراة بزهو ، محاولة ستر بربريتها الدموية بوشاح ديني خادع .. يجب الا تثير استغرابنا . فـاذا كانت اخلاط العشائر الغازية قد نفذتها فعلا في البقعة التي احتلتها من فلسطين فقد كانت بذلك مخلصة لسيكولوجية الرعب المتاصل فيهـا بسبب **الجوع** ، والمطاردة ، وفقدان اتزان الشخصية ، وانعدام بعدها الاخلاقي الذي لا يوفره الا سوية معينة من التحضر .

لقد كان اولئك اللصوص وقطاع الطرق والغزاة البرابرة والبداة الهمج يطرقون ارضا غريبة لا جذور لهم فيها وهذا ما يثير رعبا دائما فيهم ، ورد فعل دموي عندهم .. ومن جهة ثانية هم مطاردون بخوف الموت جوعا في الصحراء ومدفوعون بشراهة الذئب نحو ارض الاحلام والشبع : **ارض اللبن والعسل !!**

اما اذا كان كتبة التوراة هم الذين خاضوا هذه المعارك في خيالهم ولحسابهم بعد العديد من القرون التالية للغزو ، فالامر يعكس ببساطة رغباتهم الوحشية اللاانسانية . وهو تفجير لموروثهم المكبوت اذ تلقوه ــ متطورا خلال قرون من الشروط السيئة ــ عن اصله لدى تلك الاخلاط ، واشتد حتى وصل نقطة الانفجار في حالة عجز تام عن التنفيذ العملي .. فقام الخيال القصاص بتنفيذه على الورق ، كـ «بديل» وكـ « تعويض » !

ثانيا : يجب الا نستغرب ايضا عدم توحد القوى الكنعانية والآرامية لدرء الخطر الوافد مع تلك الاخلاط . فعدا عن سيادة نظام « المدينة ــ

الدولة »(٤) في سورية كلها آنذاك ، لم يجد سكانها في حركة تلك العشائر الضعيفة البائسة مايثير الخوف والاهتمام . كانت المنطقة بكاملها قد عانت طوال قرنين من التخريب المدمر لغزوات شعوب البحر ، كما كانت قد تعودت أن ترى باستمرار جيوش الامبراطوريات الكبرى وهي تجتاحها وتقتتل فوق أرضها ، ثم تختتم فصول حروبها بمعاهدات « وتوازنات قوة »على حسابها وكان ذلك يخلق فيها فراغات جغرافية سكانية محدودة ما تلبث أن تمتلىء بواسطة غارات البدو الصغيرة ونزوحاتهم البسيطة حيث يجري تذويبهم بسرعة في الكل الحضاري للبلاد !

ومن المؤكد أن الغزو العبراني كانت له هذه الصفة فعومل بكثير من التسامح وعدم المبالاة !!

ثالثا : يلعب يهوه ــ حسب التوراة المتداولة الآن ــ دورا ساذجا وطريفا مبعا في حياة عشائر الحلف ويظهر اليوم تحت أسماء لم تكن لـه اطلاقا قبل القرن الاول الميلادي على الاقل مثل : الله ، والرب .. وغير ذلك . لكنه في حقيقته لم يكن بالنسبة للعشائر أكثر من «ضامن» لعقد التحالف!! أما من حيث المركز الروحي والعبادة فلم يكن الا واحدا من عشرات الآلهة التي تملأ المنطقة . وهذا ما يقول به واقع الحال آنذاك وما تدل عليه التوراة ذاتها . أما تطورات يهوه وطقوسه وحكاياته التي وصلتنا فمسألة مختلفة ، وسوف نعرض لها بعد قليل .

رابعا : لمتابعة البحث بوضوح أكثر ننبه القارىء الى أن يأخذ بالحسبان ارتباط الوضع الحضاري : الاجتماعي / الاقتصادي / الفكري / الفني /

---

(٤) كان ذاك النظام ان كل مدينة مهما كانت صغيرة تتمتع بالاستقلال ولها « ملك »، أو بالاحرى زعيم ، يدير شؤونها الزمنية ويشرف على ادارة شؤونها الروحية ومعابدها المختلفة . ولذلك حين يقال ـ في التوراة خصوصا ـ « ملك الكنعانيين » و « ملك الاراميين » ... فالمصطلح يعني ببساطة زعيم احدى المدن الكنعانية أو الارامية ... لا أكثر !

السلوكي ... لاي شعب قديم باللاهوت الطقسي الذي يعتنقه ويجد فيه تعبير انسجام حياته الداخلية مع بيئته وظروفه . ودائما نجد في الشرق القديم مؤسسات كهنوتية تشرف على فعالية اللاهوت في الحياة العامة ، وهذا ماكان يمنحها امتيازات استثنائية تحرف دورها الروحي الاصلي الى دور نفعي شخصي ذي قشرة دينية طقوسية .

ان هذا يعني باختصار ان شعبا ما ، او مجموعة بشرية ما ، حين تتخلى عن لاهوتها وتأخذ بلاهوت شعب آخر فهي قد اخضعت له او اندمجت فيه . وذلك التخلي يضر بمصالح الكهنوت أولا بأول ، وسيكون كفاحهم ضده في حجم تضررهم منه .

والتبيان خطورة هذه الملاحظة على بحثنا نستبق النتائج ونقول : ان تاريخ « الظاهرة اليهودية » هو فعلا تاريخ صراع المؤسسة الكهنوتية من اجل مصالحها ؛ وتاريخ تطلعاتها المحبطة الى النعم الدنيوية التي « سلبت » منها !!

وختاما لهذه الفقرة نذكر ان « اخلاط العشائر » الغازية استطاعت الاستقرار ، بالحرب تارة وبالتسلل السلمي تارة اخرى ؛ في المرتفعات الوسطى والسهول الشمالية من فلسطين . وتم لهم ذلك في الفترة التي تلت انسحاب رعمسيس الثالث من سورية عام ١١٨٨ ق.م كي يواجه الاوضاع الداخلية المستجدة في مصر .. وربما استغرقت العملية قرابة قرن على الاقل حيث اسفر المخاض السياسي في سورية وبلاد الرافدين اخيرا عن هيمنة الامبراطورية الآشورية لخمسة قرون متواصلة ، تقريبا .

٢ ـ اطول واغرب صراع في التاريخ :

باستثناء التوراة وبعض الاشارات العارضة في الوثائق الآشورية والكادانية الى ملوك اليهود ؛ يعجز اي باحث عن ايجاد مرجع حول ماآلت اليه حال الحلف الغازي بعد استقراره ، سواء كان ذلك المرجع موثقا أم غير موثق .

ولما كانت اسفار التوراة قد ثبتت ــ حسب تقديرات اكثر الباحثين تعاطفا مع اليهود ــ في القرن الثاني قبل الميلاد اي بعد الف عام من ابتداء الغزو واربعمائة من السبي الى بابل ، ثم استمر تنقيحها وتصحيحها وتعديلها (!!!) حتى نهاية الالف الاول الميلادي ، حسب تقديرات اخرى.. فانه من غير الصحيح او المعقول ان تقبل حكاياتها كمستندات موثقة في اي دراسة جادة .

غير ان تلك الاسفار تمنحنا بالمقابل دلالات بالغة القيمة على صحة الاستنتاجات التي يفرضها منطق الامور وحيثيات الشروط التاريخية العامة في المنطقة .

ان منطق الامور يفرض ان يعمل الاستقرار في الاراضي التي احتلها الغزاة او تسربوا اليها سلميا على انحلال الحلف ، وعلى ان تبدأ عملية الامتصاص الحضاري الكنعاني للعشائر الغازية . فتلك العشائر تركت خيامها وبدأت تشتغل بالزراعة وتبني بيوتا وتؤسس قرى .. بعدما استوطن كل « سبط » في جهة ، وغالبا في وسط شعب الارض السابق . ان الروح الهجومية التي حركت عملية الغزو تضعف وتتلاشى بهذا التوزع . والاستقرار يعمل على انشغال الافراد بممتلكاتهم الجديدة وأسرهم ومشاغلهم المعاشية اليومية ، وبذلك تتحول تلك الروح الى روح دفاعية عن الممتلكات والمكاسب المستجدة .

لقد امتص المجتمع الكنعاني « قوة الدفع » الصغيرة للحلف . وحين استنفدت كان على العشائر ان تذوب في محيطها !

ويبدو ان ذلك لم يستغرق وقتا طويلا ! فحسب سفر القضاة لم يمض الا جيل واحد حتى (فعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم .. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت . فحمي غضب الرب على اسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد اعدائهم ... وضاق الامر بهم جدا . واقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم .

ولقضاتهم ايضا لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة اخرى وسجدوا لها ـ قضاة ٢/١١ ـ ١٧) .

ان هذا النص لا يفصح فقط عن انهيار قوة الحلف بل يبين كذلك ان العشائر ذابت كليا في اوساطها التي اقامت فيها بدليل اعتناقها الديانة الكنعانية وتكييف حياتها الجديدة وفق طقوسها وقيمها .

وهذا النص ليس لقطة نادرة من احد الاسفار عن مرحلة في حياة العشائر ، بل ان مضمونههو المحور لكل حكايات التوراة واحداثهاووقائعها وصراخات انبيائها ومراثيهم ووعيدهم ، حتى فترة العودة من السبي .

والواقع ان اللاهوت الكنعاني العريق كان ينسجم تماما مع الحياة الزراعية في بيئة سورية الغربية فكان بذلكعامل جذب للمستوطنين الجدد في وقت لم يكن فيه يهوه يمثل شيئا بالنسبة لهم . فقد كان مجرد ضامن للحلف ، وها هو الحلف نفسه يتحلل بعد ان تم الاستيطان الى حد ان عشائره اخذت تدير فيما بينها معارك طاحنة . وكان المتضرر الوحيد من الاعراض عن يهوه سبط « لاوي » رجال الكهنوت ، فقد كانت طقوسه مصدر رزقهم جميعا ومعقد رجائهم بالثراء والسيادة . وقد وجدوا ان عليهم اما ان يتخلوا كليا عن دورهم ومصالحهم تلك ، واما ان يخوضوا حربا لا هوادة فيها من اجل تلك المصالح ، متدثرين بمسوح يهوه الذي بدؤوا « تفصيل » صورته على مقاييس رغباتهم واهوائهم .

ان مرحلة يشوع ، او فترة الغزو والتوضع في فلسطين ، كانت اشبه « بشهر عسل » ليهوه المتمثل بكهنته ، مع تلك العشائر الجائعة التي لم تكن في جوهر الامر تقيم اي وزن لمسائل العقيدة والروحانيات . لكنهـا لم تكن ترى امامها مفرا من التكاتف والتضامن ؛ وبالتالي الالتفـاف حـول يهوه والاخذ بطقوسه ؛ مادامت لم تحسم بعد قضيتها الحيوية : قضية الاستقرار في ارض تخصها !!

ولكن نذر الطلاق بدت واضحة ليشوع قبيل موته مابين يهوه واتباعه، حتى اضطر في أواخر ايامه ان يشدد عليهم قائلا : (انتم شهود علـى أنفسكم انكم قد اخترتم لانفسكم الرب لتعبدوه ــ يشوع ٢٤/٢٢) ثم اشهد عليهم حجرا أقامه « نصبا » تحت البلوطة (التي عند مقدس الرب)

وقد جاهد القضاة ما وسعهم على الا يقع ذاك « الطلاق » دونمـا فائدة ! ويبدو انهم كانوا جميعا من الكهنة او المتنفذين الارستقراطيين الذين ترتبط مصالحهم الشخصية والعائلية المباشرة بمصالح الكهنة .

وكان الموضوع الاساسي الذي يتوجب ان يصرفوا اهتمامهم اليه هو اعادة الالتفاف حول يهوه وتعميم طقوسه . وكان ذلك يقتضي فـرض الانغلاق التام على العشائر داخل تقاليد حياتها وقيمها الهمجية القديمة وابقاءها مثل جزر وحشية وسط « بحر » المجتمع الكنعاني/الارامي المتحضر .. واذكاء الروح العدوانية الاولى وتوتيرها باستمرار ما امكن . عن طريق اثارة الفتن والعداوات بين التوضعات العشيرية ومحيطهـا كلما كانت الفرصة مواتية لذلك . وهكذا بدأ الكهنة اطول واغـرب صراع في التاريخ : الصراع ضد التحضر ، او بالحقيقة الصراع ضـد منطق الحياة ، وضد فعالية قوانين حركة التاريخ ذاتها !

ومن هنا بدأ يتحدد قدر يهوه ومصيره كاله قبلي متحجر ، كما بدأ يتحدد قدر اتباعه بأن يتحولوا الى مجموعة ضئيلة منغلقة بدائية الطقوس قبلية الفكر والعقيدة والسلوك ، بربرية المفاهيم والنظرة الى البشـر ، محكومة بالخوف الابدي من الاخرين لانها لا تتصرف تجاههم الا بدافع حقدها المتعالي عليهم ! اما العشائر فقد حسمت توجهاتها العقيدية نهائيا، ولم تعد الى يهوه اطلاقا الا حين يفرض ذلك عليها بالقوة . وحين تزول تلك « القوة » تزول معها مكانة يهوه وطقوسه وكهنته ومتنبئيه ... ولا يتبقى امام « ابطال » ذاك الصراع العجيب غير عجيج الندب والوعيـد وضجة التفجع والعويل على ما آلت اليه حال « الرب » !!

وانه لامر بليغ الدلالة ... فوق ما يتمتع به من طرافة فكهة ـ ان يكون انبياء التوراة ، الذين ظلوا وحدهم امناء ليهوه ، قادرين على اجتراح كل ما يخطر في البال من معجزات باستثناء معجزة حقيقية واحدة : هي ان يقنعوا واحدا من « الشعب ! » بالعودة الى الايمان بيهوه او الالتزام بطقوسه وشرائعه !!

٣ ـ ملوك بلا حول لمجتمع بلا هوية :

توج الصراع الكهنوتي الارستقراطي ضد التحضر ، في النتيجة ، بانشطار مصالح الارستوقراطية ـ التي تبدت طبقة مكتملة مهيمنة في نهاية عصر القضاة ـ عن مصالح الكهنة الذين وقعوا الى غير رجعة في التحجر القاتل والتفسخ الاخلاقي المشين(٥) .

ففي نهاية عهد صموئيل كانت الارستقراطية القبلية القديمة قد تحولت نهائيا الى ارستوقراطية زراعية ، جديدة في تطلعاتها وجديدة في مصالحها . فبخلاف الكهنوت الذين رأوا مصالحهم في الانغلاق والحفاظ على القبلية الاولى ، صارت الارستوقراطية الزراعية ترغب اشد الرغبة بأن يكون مستقبلها متوافقا مع « الصورة المنظورة » لاحلامها : صورة الارستوقراطية الكنعانية التي كانت ترفل بالسيادة والنعمة والثراء الواسع !

وصارت ترى ان لمستقبلها طريقا واحدا هو : الاسراع بترتيب البنيان المجتمعي ترتيبا نهائيا وفق الصيغة الكنعانية مما يخلق « قاعدة ذاتية » للتحضر تهيء جمع فعاليات العشائر واستثمارها ، ومشاركة الكنعانيين

---

(٥) يستطيع القارىء ان يرى مدى التفسخ ذاك في صورة ابناء الكاهن (عالي) كما وردت في سفر صموئيل الاول / الاصحاح الثاني .

ـ ان أمكن ـ في سيطرتهم التجارية التي كانت آخذة بالتوسع السريع في حوض البحر المتوسط(٦) .

وهكذا اجبرت الارستوقراطية صموئيل علـى مسـح شاول ملكـا رغم معارضته الشديدة لهذه الخطوة(٧) . لكن صموئيل ومن ورائـه الكهنوت كله ، لم يجهل حقيقة الامر ، ولم يتبق امامه الا ان يوصل الى العرش شخصا يكون فعلا « رجل الكهنة » الذي ينفذ اهدافهم ، بعد ان اكتشف ان شاول ليس ذاك الرجل !

وبدا صموئيل بالتشويش على شاول مستثمرا تصارع العشائـر فيما بينها مهيئا داود ليكون الرجل المطلوب . وقد تم ذلك اخـيرا . ولكن داود كان من الدهاء والذكاء بحيث جمع في يديه السلطتين :الزمنية والروحية بممارسته ـ هو ذاته ـ الكهانة ليهوه ، وبتنصيب ابنائـه كهنـة ايضـا .

لا نريد الاستطراد في تفصيلات لا تغنينا هنا ، بل سنكتفي بذكر ان « المملكة » انشقت الى اثنتين بعد سليمان بن داود : يهوذا واسرائيل .. وخيب اغلب الملوك آمال الكهنة خيبة مريرة !!

ما هي حقيقة مملكة داود وسليمان ؟ ما هي حقيقة مملكتي يهوذا واسرائيل ؟ ما هو جوهر المجتمع والثقافة والعقيدة هناك ؟

---

(٦) حسب التوراة ظهر هذا الميل عمليا في فترة استقرار المملكة ايام سليمان ، التحالف مع حيرام ملك صور وحاول ان يقيم له مرفا للتجارة في عصيون جابر على خليج العقبة باشراف الصوريين لكن المشروع كان فاشلا سلفا لاسباب كثيرة لسنا بصددها اما بناء هيكل « الرب » كنعانية وفن كنعاني فيعكس عمق التاثير الكنعاني على الحياة عموما في المملكة كما يعكس رغبة الارستوقراطية في الذهاب ب « كنعنة » حياة المملكة الى اقصى مدى ممكن .

(٧) راجع ذلك في الاصحاح الثامن من سفر صموئيل الاول .

هذا ما سنحاول الاجابة عليه فيما يلي .

لا تسمح الرقعة التي استوطنت فيها عشائر الحلف قديما باقامة مملكة ذات اثر في الحياة السياسية للشرق القديم الذي كان « كل العالم المتحضر » آنذاك . والمبالغة التوراتية حول اتساع رقعة المملكة ايام داود وسليمان شمالا الى حماة وتدمر مردودة من التوراة نفسها . فداود امضى حياته محاربا للتخلص من بيت شاول ومن سيطرة الفلسطينيين الذين كانوا يستوطنون الساحل ، ويهيمنون على الداخل(٨) ولرد هجمات المؤابيين والعمونيين والاراميين من جيرانه ثم للتخلص من الفتن الداخلية التي كان ابرزها ثورة ابنه ابشالوم . أما سليمان فقد اضاع اقساما مما ورث عن أبيه ، اذ وهب حيرام الصوري (عشرين مدينة في ارض الجليل ـ سفر الملوك الاول ١١/٩) مقابل مساعدته له على بناء هيكل يهوه والمنشآت العمرانية الاخرى ، كما اعطى جزر الكنعاني للفرعون الذي زوجه ابنته(٩) .

واختصارا فان المملكة التي استقرت مؤقتا زمن سليمان لم تضم اكثر من ربع مساحة فلسطين الحالية وهي تشغل المنطقة الداخلية شمال البحر الميت حتى خط يمتد بين جبل الكرمل وبحيرة طبريا . وتظهر قيمة هذه المملكة على حقيقتها حين نعرف ان داود وسليمان لم يكونا قط موضوع وقائع تاريخية ـ كما يقول بيير روسي(١٠) ولنا ان نتخيل بعد هذا أية قيمة ستكون لدويلتي يهوذا واسرائيل اللتين عرفتا ـ اضافة لضآلتهما ـ في صراعات داخلية وصراعات متبادلة حتى النهاية . وندر ان

(٨) لجا داود الى الفلسطينيين في « جت » في فترة صراعه مع شاول كما تقول التوراة . والمرجح انهم هم الذين وضعوه على العرش بعد ان قتلوا شاول وهزموه . وشملت سيطرتهم كل فلسطين الى حوران في تلك الفترة ـ راجع صموئيل الاول ، الاصحاح التاسع والعشرين .

(٩) حتي ـ تاريخ سورية الجزء الاول ص ٢٠٧ .

(١٠) راجع الفصل الاول من « مدينة ايزيس » .

كانت اي منهما غير تابعة لمصر او آشور او للآراميين .. فقد كانت كلتاهما اضعف كثيرا من ان تحتفظ باستقلالها !!

ورغم هذا لم تكن الدولتان يهوديتين بالمعنى الحقيقي . بل أن دولة سليمان نفسها لم تكن كذلك ! فاذا تذكرنا دور العقيدة الدينية في تحديد الهوية المجتمعية ، وان سليمان الذي بنى « بيت الرب » وفخخه كواحد من معابد البعل الكنعاني كانت لديه مئات الزوجات والسراري الاجنبيات اللواتي يعبدن عشرات الآلهة الغريبة ، وانه سمح باقامة مذابح المرتفعات لكل تلك الآلهة وتعبد لها هو ايضا .. اذا اخذنا كل ذلك بالحسبان عرفنا صحة ما ذهبنا اليه حول هوية دولته . اما في يهوذا واورشليم فنادرا ما وجد ملك يقيم طقوس « الرب » ويسلك في طرقه ـــ حسب تعبير التـــوراة ـــ .

وأما الشعب فكان كنعانيا اللغة والعبادة والثقافة اطلاقا . اي انه باختصار كان قد صار شعبا كنعانيا ! فلم تكن ثمة لغة عبرية بل كانـــت اللغة (شفة كنعان) اي لسانهم . وبعد السبي والعودة منه صارت ارامية وقد تكلم بها السيد المسيح نفسه . وهناك من يقول انها كانت اراميـــة منذ البدء . ولم يتعبد الشعب يوما ليهوه بعد يشوع بل كان دائما « يزني وراء الالهة الغريبة ويسجد لها ويذبح في هياكلها وعلى مرتفعاتها المقدسة » وأما الفن والصناعة والسلوك اليومي في المأكل والمشرب والملبس فكلهـــا أمور نقلت عن كنعان ، ولم يعرف عن اليهود انهم انجزوا أي فن او مارسوا أي حرفة عدا الزراعة . فسليمان يستورد فنانين من صور لزخرفـــة منشآته . واليهود يذهبون الى مدن الشعب الفلسطيني لضرب سكك الحراثة وغيرها ...

ان فيليب حتي يقول بعد أن يؤكد كل ذلك : (اذا كانت مساهمـــة العبرانيين في التقدم العالمي لا تدخل في نواحي الفن والسياسية والاقتصاد ففي اية ناحية تقع هذه المساهمة اذن ؟ انها تقع في ناحية الديانة .

فالمساهمة الدينية هي التي جعلت العبرانيين معلمي البشرية من الناحية الاخلاقية »(١١) وسنترك للقارىء المطلع جيدا على التوراةوعلى بعضـ خفايا التلمود أن يبتسم ساخرا من هذه « المساهمة العجيبة !! » ريثما نعود الى معالجتها . وسنكتفي نحن الان بأن نستنتج من كل ما عرضناه ان عشائر الحلف وجدت أرض اللبن والعسل بغير هوية . وعجـزت عن ان تصوغها لنفسها بعد الاستيطان ! فلقد كانت فلسطين تربـة غريبة عنها ولا جذور لها فيها ، فامتصها الكنعانيون منتصرين بحضارتهـم . اما البقية الضئيلة من الكهنة وتابعيهم فقد اقتلعها الاشوريون ثم الكلدان في أحداث السبي الجامحة ! ولم تفلح كل مجهودات الكتبة وكل تزويرات الدارسين المعاصرين في صياغة تلك الهوية المفقودة بعد ذلك ابدا .

٤ ـ يهوه عاريا :

ان الاحاطة الكاملة « بالظاهرة اليهودية » تقتضي ـ في جملة ما تقتضي ـ معرفة من هو يهوه الذي يترجم اسمه في النسخ العربية للتوراة ، خطأ ، باسم « الرب » و « الله » ، فكأنما هو إله وحداني حقا !! غير اننا ـ من جهتنا ـ نعرف حق المعرفة ان يهوه كان إلها وحيدا عند كهنته ، لكنه لم يكن وحدانيا ـ اي عالميا وله نظام اخلاقي انساني مرتبط به ـ في أي يوم من الايام !

لقد رأيناه خلال التوراة كلهـا إلها مرفوضا لا يقف معه الا كهنته المتضررون من اختفاء طقوسه . وهو دائما يغضب ويثور ويفار ويلقي كلام التهديد والوعيد في « فم انبيائه » ويرسل « ملاكه » أو يظهر بنفسه ليضرب أو لينقذ .. ثم ، اخيرا ، دمر الشعب الذي « اختاره !! » لـه تدميرا !! ورغم كل ذلك لم يلق الا الاستهانة والاستهتار ، حتى هزمه البعل وآلهة عمون وموآب وسواها ، هزيمة ساحقة ماحقة !!

(١١) حتي ـ تاريخ سورية جـ ١ ـ ص ٢٢٨ .

فما هو السر الذي يكمن وراء كل ذلك الموقف منه يا ترى ؟!

هل نستطيع ان نكتفي بتفسير التوراة القائل : (ان الشعب صلّب رقبته) او كما نقول اليوم : ركب رأسه واصر على الضلال ؟ أم أن هناك في الواقع اسبابا اخرى ؟!

الاجابة على ذلك ينبغي أولا ان نعرف حقا من هو يهوه ؟!

أهو حقا إله البراكين المدياني ــ أو شيطان البراكين ــ كما رأى فرويد(١٢) ، جرى تطعيمه بصفات آتون التوحيدية ؟ أم أنه واحد من آلهة الشرق الصغيرة التي تعتنق القبائل الرحل عبادتها في البوادي العربية اختاره الحلف له كي يعينه على النجاح في عملية الغزو ... وانه لذلك كان إلها يرفض التجسيد .. الخ ؟ أم ماذا ؟!

سواء كان « يهوه » إله البراكين المدياني او إلها قبليا مجهولا ، فان المرحلة البدئية من رحلته الطويلة في التاريخ أوصلته الى ان يكون نسخة مزورة ومشوهة تشويها بالغا من « إيل » الكنعاني .

كان إيل الكنعاني فكرة متعالية مطلقة كونية(١٣) يعبر باسمه عن القوة الخفية التي انشأت النظام الكوني المحكم بما فيه الطبيعة والبشر . وهو محور لاهوت انساني النزعة يجمع الحياة البشرية والحياة في الطبيعة وقوة الحياة الكونية في وحدة واحدة تتمتع بانسجام معرفي وتناسق متكامل . وهذا اللاهوت هو نسخة معدلة عن اللاهوت الشرقي الوحيد الاصل ، ومتكيف في طقوسه مع بيئة سورية الغربية التي يعتمد سكانها في ضمان بقائهم واستمرار حياتهم على قوة الإخصاب المطرية قبل كل شيء .

---

(١٢) موسى والتوحيد ــ ترجمة جورج طرابيشي ــ دار الطليعة بيروت ١٩٧٣ .

(١٣) راجع الفصل الخامس الفقرة ٣ من كتاب البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الاسيوي القديم للدكتور يوسف الحوراني ــ دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٨

إن إيل هو مبدأ المبادىء وهو ــ كما في نصوص اوغاريت ــ خالق الخلائق اللطيف الرحمن الحكيم الازلي غير المتجسد . وهو قد خلق مبادىء الطبيعة ــ او انجبهــا حسب تعبير ذلك العصر ــ ثم تركهــا تعمل بحكمته ، ومبادىء الطبيعة قوى متفوقة ــ قياسا الى قوة الانسان ــ فهي بمعنى ما متعالية . ولكنها في تعاليها مجسدة ملموسة بظواهرها . ولم تكن آلهة ، أو لم تكن تدعى كذلك ، بل كانت تسمى اربابا ، جمع رب اي سيد . فاسم إيل ــ الذي تطور في العربية الى « إله » و « الله » ــ كان مخصصا للدلالة على الفكرة المطلقة المتعالية الكونية وحدها .

وعمل المبادىء الطبيعية يكتسب ــ من خلال ادراك الانسان للظواهر ــ صيغة الصراع بين الحياة وقواها والموت وقواه .

وعلى نتائج هذا الصراع يتوقف بقاء النوع الانساني . فاذا انتصرت قوى الموت التي هي عماء وفوضى دمّر الانسان ، واذا انتصرت قوى الحياة التي هي تنظيم وتجدد انتصر الانسان ! وهكذا فالموت شر وكل قواه شريرة ، والحياة خير وكل قواها خيرة ، وعلى الانسان القيام بدوره من اجل تحقيق انتصار الخير . وهذا الدور او هذه المشاركة في صراع الطبيعة وجدت صيغتها في الطقوس الدينية وكان توجهها الى ارباب الطبيعة ــ او مبادئها ــ حتميا بسبب جوهر الدور الانساني الذي هو سعي لتحقيق مثل اعلى : ضمان بقاء الفرد والمجتمع ورفاهيتهما !

اما « إيل » فبحكمته جعل الموت ضروريا لتجدد الحياة . وهو يرى صراعهما من عليائه ، عارفا نتائجه ، ضاحكا من تبرم الانسان ونرفزة « الارباب الصغار / مبادىء الطبيعة » .. فهذا هو نسق الكون الذي بناه ! ولذلك لا عجب ان نقرا ان الكنعاني يلقب الموت بـ « حبيب إيل » ويسند « مبدأ الحياة » اليه بالبنوة في الوقت ذاته !!

علاقة الانسان الحيوية هي ، اذن ، بمبادىء الطبيعة التي خلقها إيل (ب ن ي . ب ن و ت : اي خالق الخلائق) . انه شريك في صراعهاوله

أن يختار الاسلوب الذي يحقق نجاحه في مسعاه الى مثله الاعلى ! فهذه الارباب مخلوقة مثله وليتصرف معها كما يريد : فوراء كل ذلك حكمة إيل اللطيف المتعالي !

ولما كان البقاء الانساني لا يمكن ضمانه الا بتحقيق الوفرة ، والوفرة لا تتحقق الا بفعل مبدأ الاخصاب المطري للارض ، وفقا لمعطيات بيئة سورية الغربية ، فقد سمى الانسان ذاك المبدأ : « البعل » ، اي «السيد» على اطلاق !! ولتفسير ظواهر الطبيعة ، وكيما يتمكن البشر من اداء دورهم في عملها ؛ صنفها الكنعاني بوظائفها وصور علاقاتها كعلاقات طوائف الناس في مجتمعهم وحياتهم اليومية .

اما « إيل » فلم يشر اليه الا بكلمة واحدة اذ كان يدعوه : يا « هنو » إجلالا وتقديسا(١٤) !

من هذا الدعاء المفعم بروحانية عميقة خيرة اقتبس كهنة اليهود لإلههم القبلي ، ضامن الحلف ، اسمه(١٥) لكنهم عجزوا عن ان يجعلوه يتحلى بوحدانيته وشموليته وعالميته الخيرة .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا لم يدن الكهنة « إيل » بل توجهوا بكل ضراوة الى اسقاط « البعل » وادانته .. واختلقوا ، لتبرير ذلك الموقف من إيل ، قصة ارتباطهم بابراهيم ، كما نبصر خلف ذلك كله نوعا

---

(١٤) بعد الاف السنين من التزوير والفهم المسطح الابتذالي الذي فتت صورة اللاهوت الكنعاني التوحيدي التناسق يصل الينا ذلك اللاهوت في شكل وثنية منحطة بفضل « جهود » باحثي الغرب الذين يجردون كل تعبير ديني من روحانيته الخاصة ويفسرونه تفسيرا لفظيا بحتا بعقلانية باردة عاجزة اصلا عن الدخول الى تلك الروحانية .

(١٥) حين يسال موسى يهوه في التوراة من انت ؟ يجيبه : آهية اشر آهية . وهي تترجم للعربية بنصها « اهيه الذي أهيه » بدل « هو الذي هو » ـ راجع سفر الخروج ١٤/٣ .

من المؤامرة الحاقدة على الثقافة الكنعانية / الآرامية ــ أم الثقافة العربية ــ برمتها !

إن لاهوت إيل اذن هو تعبير ثقافة شمولية عن ذاتها . والبعل جزء من هذه الثقافة يشكل هدم دوره تمزيقا لها . بل ان ايل لا يمكن ادراك حكمته الا من خلال تجليها في البعل وصراعاته . كما ان دور الانسان يصبح بلا معنى وحياته تصبح بلا هدف من غير وجود البعل في نسق تلك الثقافة .

ولكننا لا نستغرب موقف الكهنة هذا . فيهوه، في صورته التي سنبادر الى تحديد ملامحها ، هو نتاج موقف مصلحي نفعي ضيق ، أما إيل والبعل ... فمحور ثقافة ! والثقافة نتاج مجتمعي بالحاصل الاخير ، ومن سوء حظ يهوه انه لم يحظ بمجتمع ينتج له ثقافته ، بل كان نصيبه فئة من الكهنة هدفها الاعلى أن تضارب به من أجل الحصول على الثروة ! من هنا تبدأ ملامح يهوه بالارتسام تفصيليا .

انه وحيد لانه بهذه « الوحدية » فقط يحقق مصلحة الكهنة . فهؤلاء الغرباء لم يفهموا مغزى وجود الارباب الكنعانيين الى جانب الإله الوحداني وتحت سلطته كي يقيموا ليهوه وجودا مشابها ، ولو قبلوا بوجود آلهة اخرى تنافسه لما كان صراعهم المصلحي يعني شيئا ولما كان له مبرر .

ويهوه يدعي لنفسه صفات البعل وصفات إيل في خلط متنافر متناقض . وهذا دليل اكيد على ان كهنته لم يفهموا شيئا من اللاهوت الكنعاني ، وانما احبوا اغراء الشعب بهذا « الرب » المركبة صورته حسب الرغبة كي يستميلوهم الى طقوسه ، لا اكثر . انهم مثلا يسمونه « راكب السحب » وهذه احدى صفات البعل ، ويدعون انه « قاتل الافعى الهاربة لوياثان ذات الرؤوس السبعة » وهذا ايضا واحد من الاعمال الطقسية للبعل فماذا يعني ذلك في كل من اللاهوت الكنعاني ولاهوت يهوه ؟

في الاول ترتبط عبارة « راكب السحب » بوظيفة الانزال المطري من أجل اخصاب الطبيعة ، فهي اذن تعبير اساسي عن حقيقة حيوية ينفذها البعل كمبدأ .. اما حين يوصف بها يهوه فهي عبارة فخفخة ، تستهدف ظهار القوة !

فكرة قتل لوياثان في طقوس البعل تعبير عن الحقيقة الجوهرية للصراع الابدي بين مبادىء الفوضى الشريرة ومبادىء التنظيم الخيرة وهي تستند على ذكرى راسخة لاحدى الحقائق العلمية : بداية الاعتدال المناخي في نهاية العصر الجليدي الاخير قبل حوالي اثني عشر الف عام حيث ابيدت بقايا الثدييات الضخمة المخيفة بظواهر عمل الطبيعة التي فسرت على انها « معركة » كما عكستها في أكمل صورة لها « ملحمة الخلق البابلية » .. أما إلصاق هذا العمل بيهوه فليس له اي وظيفة ترتبط بحياة الانسان ، بل هو للفخفخة واظهار القوة ايضا .

ويهوه قدوس كإيل ، لكن قدسية إيل تنبع من ادراك مشبع بالروحانية لقوة الخفاء الكوني التي ترتبط حياة الانسان في كل مكان بحكمتها اللانهائية . أما يهوه فقدوس اسرائيل وحدها ، ومن غير بُعد حيوي لهذه القدسية .

ويهوه قوي لكن قوته أستعراضية وذات هدف أناني ، فهو يتاجر بها إذ يعقد صفقة مع « الشعب ! » : هو يضع قوته في خدمتهم وحدهم وهم مقابل ذلك يقيمون طقوسه !

ويهوه قابل للتجسيد والرؤية المباشرة وهو في مظاهر تجسده يشبه محاربا همجيا لا عمل له الا التدمير ، ولا يرتبط بـه نظام اخلاقي عام لتوجيه سلوك البشر ، الا اذا اعتبرنا اقامة الطقوس من قبـل اليهود وحدهم هي كل الاخلاق !

ويهوه معزول لانه قبلي متخصص . وهو بسبب تخصصه الذي جرده من عالميته غاضب دائما ، لان من تخصص بهم يخونونه باستمرار ! ولقد أعطاه ذلك التخصص طابعا عرقيا حاقدا ، ونزوعا انغلاقيا أسود !!

ويهوه فوق كل ذلك دموي جدا . وهو ظالم لانه (يفتقد ذنوب الآباء في الابناء) ... الخ .. الخ .

هذه بعض السمات التفصيلية لصورة يهوه في تعاليه الناقص، الاقرب الى العجرفة الشوفينية ، وفي اهتماماته اللاانسانية ، وفي عجزه عن ان يكون سيدا حقيقيا مطلقا لكون حي منسجم . فاين هي المساهمة الدينية الاخلاقية للعبرانيين ـ والتي تحدث عنها الدكتور حتي وجعل منها باحثو الغرب المتعصبون « معجزة عبرانية » ـ الا اذا كان تشويه اللاهوت الكنعاني ذي الروحانية العميقة للانسانية هو تلك المساهمة ؟!

اننا في الحقيقة لا نستغرب انصراف عشائر الحلف عن مثل هذا الإله وسعيها وراء الدين الكنعاني ورموزه ، حتى لا يتبقى له الا الكهنة الذين يعيدون صياغته باستمرار على ضوء مصالحهم كما أسلفنا . فقد كانت الصيغة « الجوهرية الحقيقية » امام بصر العشائر ومن المضحك ان يطالبوا بالانصراف عنها الى « نسخة » مغشوشة !!

٥ ـ اليهودي الذئب / اليهودي الضحية :

انتهت اليهودية اذن الى نحلة مغلقة مرفوضة ومقتصرة على جماعة كهنوتية تحقد حقدا اعمى على غيرها من بني البشر ، وذلك منذ نهاية أيام داود في اقل تقدير . وقد عبرت تلك الجماعة عن حقدها حين اعتبرت كل الشعوب دنسة رجسة ، ونسبت الى ربها شرعة تقضي بتحريم كل من يظفر بهم اليهود من بقية الامم ، اي بالقضاء على كل ذي روح مما له علاقة بهم ، وأن عدم تنفيذ « التحريم » هو جريمة بحق « الرب » ! فالجماعة واتباعها هم المكرسون الوحيدون لوراثة الارض ! والفوييم ـ اي الامم

من غير اليهود ـ هم ، حسب ما انتهى اليه علماء التلمود (كالبقر والكلاب والحمير ايضا) والرب (قـد اباح لليهـود دماءهم وأموالهم) كحق شرعي لهم !!

والواقع ان هذه المفاهيم العجيبة هي جزء من الخطة التدميرية التي بدات صياغتها كهنوتيا بصورة تلقائية منذ ايام القضاة .

كان الكهنة يعملون على ربط كل ما يحدث لليهودي ، في ادق تفاصيل حياته اليومية ، بغضب يهوه او برضاه عنه . هذا عدا عن ربطهم مجمل وقائع الحياة العامة لـ « الشعب » بموقف الرب ذاته .

ولما كانت القوة الحربية والعددية للعشائر لا تتيح لها الا انتصارات محدودة وهزائم مريرة كثيرة في الصدامات مع الشعوب المجاورة ، فقد أخذ التشهير بالشعب والتنديد به ـ لتبرير موقف الرب !! ـ عن حق أو عن باطل ، يصبح السمة الغالبة على دعاوة الكهنة .

وفي الوقت الذي كان الشعب يرى فيه أن يهوه عاجز عن مساعدته على الانتصار ، وينصرف عنه الى لاهوت أكثر رفقا بالانسان ،كان الكهنة ، بتشديدهم على خرافة « غيرة » الرب وانتقامه ، يكرسون في شخصية اليهودي عقدة ذنب غامضة مزمنة تدمر الجانب الانساني في « الشخصية » بما تثيره من رعب : سواء كان ذلك الرعب من « الرب » ذي الطباع المتقلبة ومن كهنته الساديين ، أو من الخصوم الذين كان عليهم أن يروا في اليهود ـ وفقا لتعاليم الكهنة وللسلوك عند المقدرة ـ مجموعة من الذئاب التي لا يؤمن جانبها ، ولا ترتدع الا بتلقينها الدروس القاسية !

وحين انفض « الشعب » كليا عن الكهنة و « ربهم » الغريب الفظيع ، وساءت احوال هؤلاء الى حد الزراية ، عمدوا الى المبالغة والتهويل من اجل اظهار الشماتة « بالشعب » وشتمه علانية ، والباس ذلك كله لبوسا « دينيا » طريفا .

وقد عمد عزرا الكاهن « كاتب الشريعة » العائد من السبي أيام كورش(١٦) ، الى تعميق أسلوب الترويع في قلوب الجفنة الضئيلة العائدة الى اورشليم تحت إمرة زربابل ، والى ترسيخ « عقدة الذنب » وتفجير معطياتها على اوسع نطاق . وكانت قسوة الظروف التي عاناها المسبيون والحرمان الذي عاشوه وسط بحر الترف البابلي قد هيأتهم نفسيا لمزيد من الانفلاق والخوف والحقد والجشع .

وكي لا يخسر الكهنة آخر مصدر رزق لهم : « حفنتهم الضئيلة العائدة من السبي » عمد عزرا الى اجراء عملي يكرس الانغلاق النهائي والتحجر والعصبية المتعالية .. ذلك الاجراء هو تحقيق « النقاء العرقي !!! » للطائفة المسكينة . فقد اخرج من الطائفة كل الزوجات الاجنبيات وابناءهن والازواج الذين لم يوافقوا على ذلك ! وحين جاء نحميا واليا على اورشليم من قبل الملك ارتحشتا الفارسي رتب مسألة امتيازات الكهنة والرؤساء بشكل يضمن لهم الاستنزاف المنظم للبقية الفقيرة في الطائفة .

اذن ، هيأ عزرا شروط التحجر النهائي للطائفة . واستكمل الاجراءات العملية لضمان استمرار التحجر . ثم جاء انتصار حركة المكابيين(١٧) في القرن الثاني قبل الميلاد ليقر ذلك التحجر اقرارا لا فكاك

---

(١٦) اعاد كورش اولئك المسبيين وامثالهم الى بلدانهم ليكسب ولاءهم ، فيكونوا له جواسيس وعيونا على تحركات الشعوب الغريبة الخاضعة له ومحاولات انتفاضاتها ، او عيونا على تحركات المصريين خصوصا على حدود سورية . وهكذا فالاعادة من السبي لم تكن بجهود « يهوه » ، بل بفضل المصلحة السياسية للفرس ، وما فرضه عليهم كونهم غرباء !!

(١٧) قام المكابيون بحركتهم ابتداء من عام ١٦٨ ق.م . وكان يقودهم يهوداالكاهن ماتتياس ، وتوجهت الحركة ضد الفئة الارستقراطية اليهودية وضد اصحاب النزعة الهيللنية الذين كانوا يرغبون بالاندماج في محيطهم وبالخروج من التحجر . والحركة دينية

منه ! وبعد ثورة كانت نتيجتها ادخال منطقة الجليل الضعيفة تحت سيطرة اورشليم ، كان اليهود على موعد مع الاختفاء التام من الشرق في القرن الاول الميلادي . اذ دمر الرومان مدينتهم وشردوهم فلم يبق منهم الا مجموعات ضئيلة جدا لجأ اغلبها الى الجزيرة العربية ، متاجرين بكل شيء كي يعيشوا !!

ان ملامح الشخصية اليهودية تنبثق كليا عن « عقدة الذنب » التي كرسها عزرا بأسلوبه الترويعي ، وعن التحجر الشوفيني الحاقد الذي ثبت اسسه باجراءات « النقاء العرقي » . وقد اضافت فكرة اختيار الرب لشعبه كي يسيطر على العالم مصدرا آخر لتلك الملامح في ظل التشرد النهائي والبعثرة الشاملة . فمنذ ادرك الكهنة دور النقد والتجارة في اكتساب القوة صار اليهود اسوأ التجار والمرابين في العالم .

واختصارا يمكن تشبيه الشخصية اليهودية بشخصية الذئب المتوحد النهم ، القادر على التحول الى ثعلب حين يكون لابد له من ذلك ! وبين هذين الحدين فان الحقد والرعب والمكر والانغلاق المتعالي والنزعة الدموية والمضاربة بكل شيء من اجل الوصول الى الغرض ... كل هذه الصفات تلعب لعبتها بشكل متكامل ، ومتناغم مع الظروف ، في التوجهات التكتيكية والكلية لتلك الشخصية .

متشددة فقد لقب ثاني الحكام المكابيين نفسه ب (يوحنا الكاهن الاعظم) ، وازداد ضيق الافق الطائفي ضراوة لدى يهود تلك الفترة .

والمرجح ان يكون التنديد باستثمار الاغنياء « للشعب » والوارد على لسان عدد من انبياء التوراة هو من وضع المكابيين الذين عدلوا كثيرا في الاسفار ونقحوها . كما ان بعض المطالب الاخلاقية المنسوبة الى يهوه وضعت في تلك الفترة على لسان الانبياء بعد ان فرضها التطور الهائل الذي شهده « المحيط » والذي توج بظهور دين المحبة والرحمة على يد السيد المسيح .

وفي كل ذلك يبدو لنا اليهودي ضحية مجانية لسلوك كهنة اخذوا على عاتقهم مهمة تدمير العالم كي يحققوا سيطرتهم ومصالحهم باسم اغرب « رب » في التاريخ !

٦ ــ تطور ختامي للظاهرة اليهودية :

اثبتنا حتى الآن أن الظاهرة اليهودية كانت خلاصة لارتطام خليط من قطاع الطرق التجارية وبقايا الغزاة والبرابرة المرفوضين ، بوسط متحضر ــ أو بالاحرى ، بوسط كان في مرحلته والحدة من قمم التطور الانساني ــ وذي وضع خاص : استراتيجي عسكري عالمي ، وبيئي مناخي اقتصادي . . وأن عماد تلك الظاهرة كان : سيكولوجية « قاطع الطريق » وهي تتطور الى صيغتها العليا عبر بضعة عشر قرنا من صراع المصالح الضيقة التافهة .

ولعله كان ثمة احتمال ، يصل الى ما يقارب الحتمية ، باختفاء تلك الظاهرة من التاريخ لولا وجود شعب قبلي من قطاع الطرق التجارية في عقدة اخرى من عقد الطرق التجارية العالمية التي لا تقل اهمية عن سيناء وجنوبي فلسطين ذلك الشعب القبلي هو شعب الخزر الذي كان يشغل في القرن السابع الميلادي (موقعا رئيسيا استراتيجيا على المعبر الحيوي الواقع بين البحر الاسود وبحر قزوين)(١٨) على طريق التجارة الرئيسي بين آسيا وأوربا الشرقية .

لقد اعتنق ملك ذلك الشعب (وبلاطه والطبقة العسكرية الحاكمة) الدين اليهودي حوالي منتصف القرن الثامن بصورة مفاجئة . وهذا القرار المفاجيء ــ كما يقول آرثر كوستلر ــ ادهش الدارسين المحدثين وقد تم اتخاذه (دونما اعتبار للدعوة المسيحية البيزنطية وللنفوذ الاسلامي في الشرق ، ورغم الضغط السياسي لهاتين القوتين) كما ينقل كوستلر عن المؤرخ المجري أنتال بارتا .

---

(١٨) آرثر كوستلر ــ امبراطورية الخزر ــ منشورات لجنة الدراسات الفلسطينية ص ١٨

لن نعالج أسباب اندهاش الغربيين الذين عودونا على انهم يرون « الاعجاز العبقري » في كل شيء يهودي ! ولكننا نرى أن اتخاذ هذا القرار — بصرف النظر عن تفصيلات مجرياته — يعود الى سببين رئيسيين ، ليس اي منهما سر مستعص على متعلم :

الاول : يتلخص في ان الوثنية لم تعد مقبولة ، خصوصا من شعب يقع بين امبراطوريتين تدين كل منهما بدين سماوي كشعب الخزر وذلك يفرض عليه ان يختار احد ثلاثة اديان : الاسلام ، المسيحية ، واليهودية/ التي مايزال الجميع يعتبرونها دينا سماويا !!/ولكن اختيار الاسلام يفرض تبعية ، ولوروحية ، لبغداد . واختيار المسيحية يفرض مثل ذلك للقسطنطينية .. وكلتا الحالين تحرم الخزر من حرية الحركة ، مما رجح كفة اليهودية .

الثاني : هو ان المسيحية والاسلام نقيضان روحيان لسيكولوجية « قاطع الطريق » . فلا اله المحبة والسلام ولا الله الرحمن الرحيم العادل الذي يعاقب بالنار على الاذى .. يستجيبان لتلك السيكولوجية . اما اليهودية فمفصلة على قياسها تماما !

على أية حال كان اختيار الطبقة المهيمنة على الخزر انقاذا « للظاهرة اليهودية » من الاختفاء التام ، فهم الذين امدوا العالم المعاصر بيهوده ، حين أقدموا على تلك الخطوة الفريدة .

واذا كانوا ، خلال حقبة ما ، على مذهب القرائين الذين يرفضون التلمود ولا يعترفون بغير التوراة ، فانهم بعد نزوحهم الى أوربا وردود الفعل التي كان من الطبيعي أن يتلقوها مقابل « ذئبيتهم الثعلبية » — كحمامات الدم وعمليات الابادة الجزئية(١٩) — صاروا تلموديين متشددين.

ومن جهتنا لا نجد فرقا كبيرا . وكل ما في الامر ان الاغبياء يفهمون مرامي التلمود لانه صريح ، بينما يحسنون الظن بما في التوراة من تمويه — براق احيانا — لاسس التعاليم التلمودية !!

والواقع ان أوروبا ، بمالها من مزايا فريدة ، ماكانت الا لتجعل اليهود يبتكرون التلمود لو انه لم يكن موجودا !

ومنذ بداية « عصر النهضة » ونمو دور المال في حياة اوربا بدات «أرض الميعاد» و «ميراث اسرائيل» و «يهوه» و «طقوسه». تتكوم جميعافي خزائن البيوت ثم في خزائن المصارف على شكل سندات وعقود وذهب.. ومالا بعد من شهادات الملكية ووثائق الاستثمارات الاحتكارية الكبيرة ! وكلما ازدادت احاسيس القوة عند اليهود بفضل « وسائلها الجديدة » برز « الذئب » المتوحد خارجا من جلد « الثعلب » ... فتضطر اوربا الى الضرب بليبرالية حمراء طازجة حتى اصيبت في هذا القرن بأزمة ضمير حادة لا تطاق ...

والبقية معروفة جيدا لنا ــ نحن العرب ــ !!

ــ ٣ ــ

بقي علينا في نهاية هـذا العرض المقتضب لتاريخ نشوء الظاهرة اليهودية وتطورها أن نعيد التوكيد على طابع « فقدان الشخصية » فيها، سياسيا واجتماعيا ، قوميا وانسانيا ، فكريا وعقائديا .. وان نقرر بالنتيجة ان اليهودي لا يستطيع ان يكون انسانا « انسانيا » ويهوديا في الوقت ذاته !

لقد كرست الظاهرة اليهودية خيارها الحيوي الوحيد عبر ثلاثة آلاف عام : دمارها أو دمار العالم ! وبدون أحد هذين الحدين لن ينتهي فقدان الشخصية فيها !!

ان وجود اسرائيل ــ وهي تجسيد « الظاهـرة » في قمة تطورها التاريخي ــ لن يلغي ذلك الفقدان بحكم الهوية التلمودية المحضة لذلك الوجود . فهل يمكن لاي سياسي اسرائيلي ــ أيا كان القناع الذي يرتديه ــ ان يقيم سلاما مع « الغوييم » العرب ؟!

على العرب أن يجيبوا اجابة حاسمة قبل ان يصيروا « غوييم » بالفعل !!

---

(١٩) من مساخر القرب الطريفة انه اسير الاعجاب بما يسميه باحثوه «المعجزة العبرانية» لكن ذلك في نظره شيء وذبح « حصيلة » هذه المعجزة ، من اليهود ، شيء آخر . ولله في خلقه شؤون !!

الفلسفة المفقودة

صالح العياري

• نشوء التفكير الفلسفي ما قبل الفلسفة :

تقول بعض الدراسات العلمية التاريخية ، ان نشوء البحث في التفكير الفلسفي بدأ تقريبا مع انقسام المجتمع الى طبقات ، ثم ايضا عندما انفصل العمل الذهني عن العمل اليدوي الذي تم في نفس المرحلة التاريخية المذكورة . لكن مهما كانت صحة هذه الدراسات وعمق تحاليلها فهذا في نظري لا يمنع من الاعتقاد في وجود بعض المظاهر الفكرية البدائية قبل هذا التقسيم بعدة آلاف من السنين ، وهذا يعني انه كان للانسان الاول اسلوب للعيش ، واسلوب آخر للتفكير كان يساعده حتما على التكيف بالمحيط والبيئة اللتين عاش فيهما . ومن المؤكد ان

اسلوب التفكير الذي كان يمتلكه الانسان البدائي ، قد تجسد بفعل ادوات التطور كعامل اللغة الذي قربه الى تطوير عمليات التفكير ، والذي سمح له ايضاً بأن يعبر عن ماضيه البعيد منه والمستقبلي . لذلك لو لم يكن للانسان اسلوب للتفكير ، واسلوب للتأمل لما استطاع ان يقطع هذه المراحل العظيمة ، ويحقق انتصاراته المذهلة في كافة مجالات المعرفة الطبيعية والانسانية . ان الرسوم البدائية المنقوشة على صخور الكهوف والطقوس السحرية التي كان يمارسها تمثل احدى العلامات المضيئة لنمط هذا التفكير عند الانسان البدائي .

● علاقة الفكر باللغة :

كنت اتمنى لو كانت مقدرتي كافية في بحث علاقة الفكر باللغة ، وذلك لأبين بعض المسائل المتعلقة بالتوافق والاختلاف بينهما . لكن ضخامة هذا الموضوع وعدم درايتي بخصائصه الدقيقة جعلني اكتفي بهذا العرض الموجز لتاريخ اللغة وعلاقتها بالفكر .

تحدثت في مقالة سابقة نشرتها المعرفة السورية عن تطور اللغة في المكان والزمان ، ثم كيف ان الايقاع كان احد اركان هذا التطور ، وبعد ذلك تناولت ادوات الخلق والعمل كوسائل خارجية ساهمت الى حد كبير في تطوير المعنى المجسد في المفردة اللغوية .

وضمن سلسلة من التطورات الذهنية واليدوية ، استطاع الفرد ان يحقق اعظم المكتشفات على الاطلاق المتمثلة في اللغة وعبقريتها التعبيرية .

ومع نشوء اللغة بدأت قصة الفكر رحلتها الطويلة، واختلف الدارسون حول فكرة اسبقية الواحد منهما على الاخر ، ولايزال هذا الصراع مدار بحث وجدال الى يومنا الحاضر .

١ ـ اسبقية اللغة على الفكر :

ان اصحاب هذا التيار معظمهم من الايمانيين الذين كانوا يرون ان الفكر من صنع قوة كلية فاعلة جسدته في صيغة كلام منزل بلغت الرسل معانيه الى البشر ، وبذلك فانهم لم يأخذوا بتسلسل التطور التاريخي الذي حدد هوية اللغة والفكر معا . ولهذا فان القوة الفاعلة هي خالقة التاريخ والفكر ، والانسان وكل الوجود المتناهي . ان لغة الله مثلا هي اللغة التي استوعبت فكر الله وبعثته الى الوجود . وهنا يسجل الفكر الايماني الديني اسبقية اللغة على الفكر .

٢ ـ ديالكتيك العلاقة بين الفكر واللغة .

ان النظرية العلمية في المعرفة استطاعت في الحقيقة الوصول الى كشف الحقائق الموضوعية وطبيعة التطور البشري ، وبذلك ربطت الفكر بالعمل ، والعمل بالفكر ورات في وجود هذه العلاقة ديالكتيكا عضويا ، وحد بين الادوات واساليبها من جهة ، ثم بين انعكاس هذه الادوات والاساليب نفسها في ذهن الفرد من جهة ثانية . فحددت الفكر مثلا ببنية الخصائص العليا للمادة ومن ضمنها المادة اللغوية وبالتالي فالتلازم الذي طرحته النظرية المادية في المعرفة بين الفكر واللغة ، يمثل الى حد الان ادق وجهات النظر التي تناولت هذا الموضوع الخطير . الا ان هذه العملية الصارمة وحتميتها الموضوعية يجب ان لا تمنع اية محاولة اخرى لتقصي اشكاليات المعرفة بجميع فروعها ، لكن بشروط تضمن لها علميتها ودقة تحليلها للظاهرة المطلوبة .

ومع تقديري البالغ للجهود التي بذلها العلم والمعرفة العلمية من اجل تحليل ودراسة خصائص الظواهر المادية والانسانية ، فاني ارى ورغم كل الجهود ان هنالك هامشا عقليا بدائيا موغلا في الذهن يفلت باستمرار من قبضة التقنيين الذي يفعله العقل ويجنح دوما صوب الاعالي البعيدة ويتنكر للعملية العلمية بلا هوادة . وبمعنى آخر فان هذا الهامش ، يعد

في نظري المحرض الاول الذي يحاول افساد مواضيع اليقين والثبات في العقل . واتساقا مع هذه الفكرة ، فاني ازعم ان الفكر مثلا ليس خاصية عليا للمادة مستقرة بمفردها في الذهن ، وانما هي هذا الشيء العلمي زائد المحرض الاول المذكور آنفا الذي يفسد الثبات وهذه العلمية ذاتها . وعلى هذا المنوال تصبح العلاقة بين اللغة والفكر علاقة تحددها قوانين المادة العليا المتطورة ثم ننسب اليها علاقة الشيء بالشيء البدائية وهي عبارة عن جملة من الصور والمعاني الاولية تتضارب مع بعضها في كل لحظة يتحقق فيها وجودها العقلي واللاعقلي .

● اسبقية المادة الفكرية على اللغة .

لقد ذهب اصحاب هذه النظرية الى القول بان المادة الفكرية لها السبق على اللغة ، ومثال على ذلك ان فكرة الفرد عن وجود الشجرة كانت سابقة على معنى وجودها الذي تحقق لاحقا ادراكيا ولغويا ولذلك لم تكن الشجرة تحمل صفة اسمية او جنسية بقدر ما كانت تحمل وجودها المباشر .

ان الانسان البدائي هو النموذج البشري الافضل الذي فهم الوجود وحققه بموجوداته التي يشير اليها (بالانت) اي انه كان يدرك هذا الوجود في ذاته منفصلا عن الوجود لذاته (الانسان بما هو انسان) . وان هذه الشجرة نفسها خارجة عن قانون (الهو) العلمي ، فكانت صورتها في ذهن الرجل البدائي تتراوح بين الادراك الفعال وبين تسلم الانطباع المنفعل ، بين الذهني وبين العاطفي ، بين المعبر عن نفسه ، وبين غير المعبر عن نفسه ، وبذلك تتجلى فكرة وجود الشيء المعنوي قبل وجوده اللغوي والدلالي المنطقي واخيرا تتحدد ضرورته قبل مفهومه .

ان الفكر الكانطي النقدي اللاحق يؤكد على هذه الناحية منطلقا من موضوع (البعد) (والقبل) وبلغة كانط نقول ان وجود الشيء في عقل

الفرد ينشطر الى شطرين ، اولا وجود هذا الشيء بتمامه كما هو عليه في الواقع (اعني وجوده الاولي في العقل) ثانيا وجود نفس هذا الشيء في العقل بصورة سابقة عن الوجود الاول وهذا يعني أن هذا الوجود الثاني هو الذي يحكم صيرورة الوجود الاول .

أن فكرتي عن الطاولة ومادتها الخشبية مثلا لها صورة قبلية في ذهني ولكن وظيفتها ودلالتها الاسمية وغايتها الاستعمالية تمت بعديا بواسطة الحركة والايقاع اللذين حددا لي ماهيتها ومفهومها . وهذه المحاولة النظرية ستحاول أن تبين تسلسل الايقاع الصوتي والحركي اللذين شكلا ماهية وتعيين مفهوم الطاولة في الذهن :

١) طَاوِلَة ← طَا . . . = ان الايقاع الصوتي لحرف (طَـا) يعين حركة صاعدة باستمرار .

٢) و . . . . اما حرف الواو المكسور ، فان ايقاعه الصوتي المكسور على حركة الانكسار او الانحناء (وهنا يجب على الامر ان يتحدد بصورة الشيء مرافقا لحركته الاجمالية في الوجود) وفي النهاية يبدو انكسار هذا الحرف كاستعداد تمهيدي لعملية الاستواء والاستقرار Stabilite

٣) لـ . . . . = ان الايقاع الصوتي للفتحة على حرف اللام يبـدو انه قد حدد حركة الاستواء والاستقرار النهائية . ←

٤) ةَ . . . . اما تسكين حرف (ة) فهو ضرورة ايقاعية لتتبـع نمو الايقاع الصوتي للاشياء وحركتها الكلية ان هذا التسكين حدد هنـا حركة الثبات والسكون للشيء (الطاولة وقد ثبت وجودها على الارض) وخلاصة هذا الراي تقول : ان ماهيات الموجودات ومعانيها قد نشأت من خلال التسلسل الكلي للايقاع الصوتي والحركة الخاصة بكل موجود قبل نشوء اللغة وهياكلها الحسية والمعنوية .

وبهذا السلم الايقاعي والحركي تم صنع الطاولة اولا ثم تحددت هويتها الوجودية الذهنية لاحقا .

طـا ... و ... = المرحلة الاولى تمثل الصعود والانحدار ، وهذا هو الاستعداد الاولي لخلق صورة الطاولة ذهنيا وماديا .



لـ ... ه ... = المرحلة الثانية تمثل الاستقرار والثبات النهائي لصورة الطاولة الكلية .



اذن ها نحن نلاحظ في هذا الاطار الوجود المتقدم لصورة الطاولة على معناها اللغوي ؛ وهنا يمكن ان نقول ، أن نشوء اللغة كان تقريبا متزامنا مع نشوء المعاني المجسدة . ومن هذا المنطلق الاخير تغدو اللغة الوعاء المتاخر الحدوث الذي صب فيه كل المعنى المجسد والفكر .

● الزماكنية الحديثة وسقوط بعد الازلية .

في كتابه القيم (الزمن والادب) يقول الاستاذ هانز ميرهوف بما فحواه أن الزمن الحديث بات في الفكر ، كما هو في الادب يحمل خصائص محددة بفعل التجزئة Division الذي اصبح سمة من السمات البارزة في مجرى تيار الوعي الانساني الحديث ، ثم انعكاس هذا التيار في مجرى الوجود الكبير ، ولقد لخص الكاتب تأثير الزمن في الفكر الحديث كالتالي:

(ان ما ندعوه بالعالم الحديث في تاريخ الكون(*) الارضي (الغرب حصرا) قد بدا بسلسلة من التغيرات الاجتماعية الجذرية والثورية التي

* هانز ميرهوف ص ٩٩ راجع ص ٥ الفن في الادب و ص ٩٩ — ١٠٠ .

ما لبثت أن امتـدت تدريجيـا الى المدى الكلي للافعـال والمؤسسات والمعتقدات البشرية . ! ثم ايضا كانت التأثيرات الرئيسية متشابكة مع جملة من الاسباب الموضوعية المباشرة وغيرها التي ساهمت في حدوث هذا الانقلاب الذهني . لقد تبدلت مواضع الظواهر الكليـة من حيز الشمول الى دائرة التخصص .

فالتفاحة مثلا لم يعد العقل الحديث يفهمها من حيث كونها مقياسا لذاتها ومتحققة في ذاتها الكلية بل انه صار يفهمها كظاهرة جزئية منفصلة بذاتها الكلية وهذا عكس ما كان يفهمه الانسـان البدائي في زمانه الماضي. ان التفاحة في نظر البدائي متحققة بذاتها ومنفصلة عن جملة التفاح ، وبهذا المعنى فهي تمثل ذاتية كلية تعادل نفس كلية الذوات (الموجودات) وفي هذا المجال يصبح الكلي هو نفس الجزئي والجزئي هو عين الكلي .

اما في العصر الحديث ، فقد انقلبت الاية المعرفية وتوصل الفرد الى تجاوز (الانت البدائي) ثم الى ابداله بالقوانين العلمية المحدثة (الهو) وهذا يعني ان العقل لم يعد يكتفي بتفسير الشيء بالشيء بل انه حقيقة قد داس على نمط التحليل البدائي ، واصبح يفهم الاشياء بطرائق بات يجردها يوما بعد يوم وبعبارة اكثر دقة يقول الاستاذان هـ .. وهـ فرانفكورت في كتاب ما قبل الفلسفة ، ان النتيجة التي كانت تترتب عن الشيء في ذهن الرجل البدائي ، لاتعمل في العقل وفقا لقوانين محددة علميا او مكانيكيا ولذلك فان العلاقة السببية لم تكن تفلت من حضور المجابهة المستمرة (مجابهة الشيء بالشيء نفسه) ونتيجة لهذا الرأي فان هذا الانسان كان يرى بوثوق مبالغ التلازم العضوي بين السبب والمسبب في حالة اتصال لامتناهية ، وبايجاز هذا هو عين المضمون الكلي الـذي كان يتضمن الموجود في الوجود .

ان انفلات (الانت) من زمام العقل والرسوخ الموضوعي للعلاقـة الجديدة المحدثة بين الذات والموضوع (الهو) في ذات العقل هو الذي ساهم الى حدود بعيدة في اسقاط بعد الابدية ومن جملة هـذه الاسباب

التي ادت الى سقوطها نهائيا وكما ذكرها هانز ميرهوف في نفس الكتاب المذكور .

١ ـ حدث سقوط قاطع او انهيار حقيقي لبعد الابدية ، الـذي كان يشكل جزءا هاما وصحيحا في الصورة القديمة للعالم والانسان من ضمن التطورات الدينية والفلسفية والعقائدية .

٢ ـ جـاء تبنـي فكـرة المترية او القياسية الكميـة للزمـن الحديث ملازما لانهيار الابدية ، وبذلك تفكك الزمان والخبرة الـى كائنات بسيطـة منفصلـة .

٣ ـ مع زوال الاعتقاد بالنظام الابدي صارت خبرة الوعي والزمن تحصلان أكثر فأكثر ضمن اطار التاريخ الانساني واتجاهاته .

وبسقوط الابدية سقطت معظم القيم العليا المطلقة وبدأت مرحلة تاريخية انسانية جديدة ، هي مرحلة ابدية الانسان .

من احد الموضوعات التي درستها النظرية المادية في المعرفة في سياق التطور التاريخي للفكر والفلسفة ، هو موضوع الدين واثره العميق في المجتمعات الانسانية ، وبالتالي تطرقت هذه النظرية الى كيفية تطـور الاديان الارضية والسماوية ثم مدى علاقاتها بالفعاليات الاجتماعية ، وان الانتقال الذي تم من العالم المحسوس الى العالم اللامحسوس قد حددته عدة اسباب فكرية واجتماعية واقتصادية . الا انها (اي هذه النظرية) رأت في موضوعة الصراع الطبقي والاجتماعي احد الاسباب الاساسية في دفع الاعتقاد الايماني المشخص وتحوله الى فكرة الايمان المطلقة (الله) وبذلك رأت مثلا ، ان انحدار الديموقراطيات في اثينا ابان القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم ابادة العبيد بالجملة من طرف السـلطات الثيقراطيـة ، قد قاد المجتمع الاثيني الى هاوية التخلف السحيقة . فنتج عن ذلك شعور قاس بالخطيئة مشوب بالشرور ومن اجل كل ذلك برز الفكـر الديني اللاهوتي كمخرج لتلك الازمة الاجتماعية الشاملة .

ان المتتبع لهذا الفكر الديني سوف يجد له اثارا في الحقل الفلسفي العام ، فمثالية افلاطون على سبيل المثال كانت دعامة واضحة للتأكيد على بذور الفكر الديني في النفس الفردية وبمعزل عن فعاليات الانتاج . كما انه ورغم ماديته العقلانية (المحرك الذي لا يتحرك) فاننا نجد في فكر ارسطو الفلسفي اهمية بارزة لقضايا الروح والنفس ثم تخليصهما دوما من كل ما هو آلي وعارض . ومن هذا المنطلق فان النظرية المادية في المعرفة وكل النظريات الاخرى التي نهجت سبيلها اخطأت بحدود نسبية في تقييم الدور المثالي الذي لعبته الاديان في تاريخ المجتمع البشري، ولذلك فان السحق الذي قامت به العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفات الاختبارية ، يبقي في حدوده العلمية الصرفة المتعلقة بتطور صيرورة المادة في المكان والزمان .

* الوضعية المنطقية والفلسفات الاختبارية

ان الاهمية المعرفية التي قدمتها الوضعية المنطقية والفلسفات الاختبارية في حقل الاضافة العلمية لها شأن كبير ، ولكن لها اخطاءجسيمة اقترفتها في حق الفلسفة ومجالها الخاص اذ اعتمدت في منهجيتها وتحليلها على الاسلوب المنطقي والعلمي ، مهملة الموضوعات الفلسفية الكبرى ومعتبرة اياها مواضيع يمكن للعلم ان يبت في امرها ويحل اسرارها . وبهذه الصورة ينسى الفلاسفة الوضعيون والتجريبيون محدودية العلوم التجريبية ويسحبونها بشكل مقحم على بعض الظواهر الوجودية والانسانية المتمتعة ببعد الابدية المطلقة ، وهكذا مثلا يعجز القانون العلمي امام امثلة صارخة كمعنى كيف احب ، وما هو واجبي تجاه الوجود والاشياء ، وما معنى ان اموت ايضا هكذا وفي هذه اللحظة بالذات الخ ...

ان مثل هذه المشاعر والتساؤلات تدفع العقل الى دائرة الهزيمة المؤقتة وتحيله دون شعور منه الى دائرة التأمل والبحث عن قوة أو ظل وحيد يحميه من قصوره كلما دخت الحاجةالى فعلذلك . ونتيجة لكلآراء المنطقيين الوضعيين والفلاسفة الاختباريين وقعت الفسلفة في اخطبوط

التجربة العلمية واسلست لها . وهذا الاستاذ المنطقي كرناب يقول منطلقا من واقعة التجربة العلمية : ان المفاهيم المثالية والميتافيزيقية هي مفاهيم فارغة لا تحمل معنى في ذاتها ، وحتى اذا كانت تدعي وجود معان خاصة بها ، فان هذه المعاني تكون كامنة في لا معنى مفرداتها وخاوية على الاطلاق .

وفي رأيه ان الفيلسوف الميتافزيقي والشاعر ، شخصان لا يختلفان في شيء من حيث الجوهر لكن مع فارق واضح وهو ان الشاعر يفصح عن انفعالاته بتجل وصدق وهذا مالا يفعله الفيلسوف الميتافزيقي ولا يعترف به اذ يجحد انفعالاته ولا يبين امرها .

وكما نرى فان الاستاذ كرناب يخلط بين الشعر والفلسفة الميتافزيقية ويقلل من امرهما وهنا لا نستطيع ان نناقش هذا الفيلسوف وذلك لضيق المجال الخاص والمتعلق بالاهمية الفلسفية والشعرية العميقة التي تجاوزها فيلسوفنا المنطقي .

وفي اعتقادي هذا هو الخطر الاول الذي ارتكبه الوضعيون المنطقيون والفلاسفة الاختباريون الذين فهموا الشيء في حدود امكانات التجربة اما ما كان خارج حدود هذا الامكان فقد وصفوه بالخواء واللامعنى .

ان الفلاسفة التجريبيين باختلاف مدارسهم استطاعوا في الحقيقة أن يثبتوا صدق بعض آرائهم الفلسفية ويثيروها بكواشف العلم لكنهم لم يقدروا على فهم الحقيقة الفلسفية ويكتشفوا مابعد الظواهر والاشياء من خارج روح التجربة الواقعية والمادية .

فمثلا لم يروا في الوجود وجودا يفوق الوجود ذاته . ان مثل هذا الكلام يصفونه باللاجدوى والتأمل الفارغ . وهذا ايضا هو نفس الطريق الذي سلكته الفلسفة الجدلية العلمية حول المفاهيم والمقولات الميتافزيقية العظمى . وبذلك اهملوا جزءا هاما وخاصا بالتفكير الفلسفي .

❋ الاله الجديد

ليس هناك شيء في الوجود استطاع ان يحتل مرتبة تفوق مرتبة العقل وجدارته العظيمة التي حقق فعلها عبر العصور . ان العقل حقق الكثير من الانتصارات والمآثر التي رفعت من سوية الانسان وجعلته من الانواع المفارقة للجنس الذي ينتمي اليه . لكن عظمة هذه المآثر لا تمنع من محاسبة العقل الحديث محاسبة صادقة . ان الخطوات المتسارعة التي قام بها العقل في كافة الحقول المعرفية لم يماثلها تطور الروح الخالق، وبلغة بودلير الشعرية تقول : ان القفزات النوعية التي حققها الفرد في واقعه الوجودي الماش كانت دون مستوى عمق الروح وعبقريته الحدسية .

لقد خدع الفرد نفسه معتمداً على الفاعلية العقلية التي كشف بها بعض الخوارق المادية وتوهم في النهاية بانه هو ذاته (المحرك الذي لا يتحرك) الجديد وهكذا في صباح فجر من الايام صرخ الانسان مجنونا بعقله الخالق : مات الله وسقط الابد فأ هلا بك يا انا ايتها القوة الجديدة التي لا تفوقها اية قوة اخرى .

ان السبرمانية المطلقة واكتشاف الله الجديد وجدهما الانسان في ذاته بواسطة العقل مستبعداً بذلك امكانيات الروح وجوهره الدينامي . وهذا هو الذي عمق مأساة الانسان الحديث .

ومن هنا ترتبت على العقل جملة من الاخطاء الخطيرة :

١) غرور العقل بخوارقه المعرفية الصادقة اختباريا .

٢) تبعية العقل المطلقة للقوانين العلمية والمنطقية .

٣) اباد العقل للميتافزيقا كعلم شامل للروح .

* غرور العقل واستخفافه باهمية الروح امام خوارقه المعرفية الصادقة اختاريا .

ذكرنا قبل قليل الخطأ الاساسي الذي ارتكبه العقل في حق الروح ، والذي تمثل في استبعادها باسم المعرفة العلمية .

ويبدو هذا الخطأ واضحا عندما نستند الى الاكتشافات الباهرة التي حققها العقل في مجال المعرفة العلمية والمعرفة الفيزيائية والرياضية وقد افضت اليه بنتائج مذهلة جعلته يركب مطية الغرور ويتخلى نهائيا عن المدركات الحسية والغريزية والروحية .

ربما كانت للروح معرفة شاملة وقادرة على اعطاء بعض الحلول المتعلقة بظواهر الحس والمعرفة الذهنية في شتى ابعادها الانسانية . لكن الاستبعاد الذي تم في حقها من طرف العقل طوى معه امكانيات هذا الروح المبدع .

* تبعية العقل المطلقة للقوانين العلمية والمنطقية

ان تطور العلوم والمعارف العلمية اللاحقةاثقل كاهل العقل ،وجنح به صوب متاهات وتناقضات لا حصر لها. وامام هذا الثقل المعرفي اسلم للذهن امره للتجربة والاختبار العلميين واصبح اداة من ادواتها تملي عليه ارادتها بقوة مخيفة ولا امر له سوى شكه الخاص وارادته المتناقضة . وهكذا اصبح العقل اسيرا لصنمياته التي ابتدعها بفعل وجوده كقانون الحتمية وصراع الاضداد حيث بتنا نحلل بهما كل ظواهر الوجود منها الروحية والمادية والحسية .وهنا لم أقصد بلاجدوى صنميات هذا العقل والتقليل من اهمية مضامينها ، وانما اردت ان ابين بعض الجمود الذي حدد حيوية الروح ومداركها تحت راية قوانين الذهن .

❊ ابعاد العقل للميتافزيقا كعلم شامل للروح

من الغريب ان نتصور ان الاستبعاد الذي تم في حق الميتافيزيقا قد تم بواسطة العقل ذاته الذي انشأ مقولتها . ولقصة هذا الاستبعاد دروس طويلة في الموروث الفلسفي الانساني التي تبدأ بنمط التفكير المجرد وتنتهي اخيرا الى حقول العلم والمعرفة العلمية . الا ان تشعب دروب هذه القصة لا يمنع المرء من التعرض الى مسألة هذا الاستبعاد .

لقد قلنا سابقا ان الكشوف السريعة للعديد من الظواهر الطبيعية والانسانية التي كان يكتنفها الغموض وبعدما ان خلع العقل عنها ستارها السميك تسنى له ان يهمل جانبا كل ماينتمي الى مدركات الحس . وعلى هذا الاساس استبعدت الميتافيزيقا باسم العلم نتيجة للاسباب التالية :

١ ـ القصور المنهجي للميتافزيقا في كشف ظواهر الوجود باشكالها الجدلية .

٢ ـ كون الميتافزيقا خالية من المعاني المجسدة منطقيا .

٣ ـ كون الميتافيزيقا علم الماورائيات غير قادر على تمثل معطيات الواقع المادية .

ويتمثل خصوم الميتافزيقا في اتجاهين فكريين رئيسيين :

أ ـ الوضعية المنطقية والفلسفية الاختبارية .

ب ـ الفلسفة العلمية الجدلية .

ان هذين التيارين هما اللذان قاما باستبعاد علم الروح من دائرة المعرفة الانسانية الشاملة ورغم الفارق بين الفلسفة الجدلية وبين الوضعية المنطقية والفلسفة الاختبارية حول دور علم الروح واسباب وجوده ، الا انهما يلتقيان اخيرا في استبعاده .

ومن هذا المنطلق يجب محاسبة العقل محاسبة جديدة ، ثم دعوته الى البحث مجدداً في أمور عدة منها علم هذا الروح .

ان للميتافزيقا كعلم شامل للروح درجة قصوى لا يمكن تحديدها واهمالها وبمعنى آخر يمكن ان نقول انها العلم الذي يدرك ما في حيازة العقل من قضايا متضاربة ومعان جامدة ، انها الكل في عليائه الذي لم يكتشف بعد ، وهنا اقول بمعنى ثان انها ايضا (السر الاكبر) الـذي انتجه هذا الوجود العملاق .

*** الفنون والشعر من احد المعينات الاساسية لبلورة رؤية فلسفية وعقلية جديدة :**

ان أول فيلسوف غربي معاصر استطاع ان يجس احد الشرايين التي تمزقت في النفس الغربية ، هو الفيلسوف شبنغلر ، في كتابه القيم (سقوط الغرب) حيث يقول : ان بعض الاسباب التي ادت الى انهيـار الحضارة الغربية هو ولاشك اهمالها للفن الموسيقي . وحول هذه النقطة اختلفت الآراء اذ راى بعض النقاد ان هذه الفكرة ليست مـن صلب المسائل الخطيرة التي بدات تلوح بانهيار المجتمع الغربي فهؤلاء راوا في الصراع الاجتماعي والاقتصادي والحضاري العلة الأولى الكامنة في بعد هذا السقوط . من البديهي ان للصراع الاجتماعي واشكاله المختلفة اهمية بالغة في الحضارة والانتاج الا ان هذا المعنى الفكري لا يقلل من اهمية الصيحة التي اطلقها شبنغلر ناعيا بها بداية سقوط الغرب ، وفي الواقع تخلى الغرب عن كثير من الفنون كالموسيقى الادبية وبعض الفنون الشعبية التي كانت قد لعبت دورا جماليا وروحيا لتربية النفس وتهذيبها فنجد ان الموسيقى الادبية استطاعت ان تبحث في المعاني الجملية وتحملها الينا بلغتها الخاصة ، وبلغة شبنغلر الفنية يمكن القول ايضا ان الموسيقى الرائعة عبرت ادق تعبير عن كثير من المعاني والاحاسيس التي لم تستطع اللغة التعبير عنها بوسائطها الاشارية والدلالية والرمزية . وهذه المعاني الدقيقة

نفسها تمثل من جانب آخر ارقى المضامين الجوانية السابحة في اقاصي الخيال ،وبذلك فان الموسيقى الادبية التي تحدث عنها شبنغلر كانت من اعظم الوسائل الحسية التي ارتقت بمشاعر الانسان الى ملكوت الصفاء وسعادة العقل الابدية . انسياقا مع هذه الرؤية ، فان المعنى العميق الذي طرحه شبنغلر حول اهمال المجتمع الغربي للجوهر الموسيقي الخالص يتعدى كثيرا من الردود التي جاءت قاصرة ومحددة بقوالب نظرية وايديولوجية جامدة . فمن خلال التعرض الذي قام به الفيلسوف لمثل هذه المشكلة يكون بتصوري قد جس نبض العصر بشكل دقيق لانالفنون لا يمكن ان تكون سوى الفانوس الاكثر ضياء وبهجة . وبطبيعة الحال فهذا الراي لا يمكن من ناحية اخرى ان يقلل شان القضايا الكبرى في العصر الحديث فادق مشاكل العلم والفيزياء والصناعات الدقيقة لها مجالها العميق ولكي اخلص الى نتيجة هذه الفكرة ، فاني اقتفي اثر المفكر شبنغلر واصيح من على تلة او برج صناعي عال : ايها المجتمع العالمي — اوقف هذه العربة السائرة الى المجهول .

انها اسباب ولاشك في ذلك متعلقة بانتاجية هذا العصر واشكالياته المتناقضة التي نجم عنها الاختصاص والتخصص الدقيقان في كافةمجالات المعرفة لم تقدم في الحقيقة رؤية موضوعية وشاملة عن حاضر وصيرورة هذا الوجود . فعلم الجمال المستقل وعلم الكيمياء الخاص بذاته لا يمكن ان يحقق بعد الشمولية المعرفية .

* الشعر والفلسفة والبحث عن جوهر الحقيقة المشترك

لا يستطيع احد في هذا اليوم ان يشك في المرتبة المعرفية العليا التي تمتعت بها الفلسفة والشعر ، فمنذ اقدم العصور وحتى هذا الزمان الحديث كان الاحتفاء الاكبر والامثل من نصيب هذين الضربين من المعرفة المتعاليــة .

ان ماتبحثه الفلسفة بصفة دائمة هو البحث عن الحقيقة في جوهرها المطلق من حيث كونها قضية القضايا الكبرى لا يتسع لها هذا الوجود وليست له من اجابات وافية حول لانهائيتها وهذا هو عين الغرض الذي يبحث فيه الشعر ولكن بوسائل تختلف عن طريقة البحث الفلسفي الا انه يلتقي معها في بلوغ نفس الهدف المعنوي المنشود .

ان الصناعة الحديثة والتطور التقني الخالق الذي حققه البشر لاحقا، حجم دور الفلسفة كما حجم ايضا ادوار المعارف الانسانية الاخرى في اطر ضيقة ، واعطى للمعرفة العلمية دور الرائد الكلي في توجيه دفة التقدم البشري .

ان حنين زهرة الى اللمس او رعشة صاحية في جوهر التامل لا يمكن البتة معرفتها بواسطة القانون العلمي وبالتالي فان العقل الحديث اخطا عندما دمج بين الحس واللاحس ؛ بين العيني واللاعيني ، ثم طبق عليها قانون الاختيار والتجربة . وامام هذا الخطأ العقلي الذي شاع طويلا وحدد الى بعد كبير بنية العقل ، فانه يتوجب على الفيلسوف والمفكر والعالم ان يحاسبوا هذا العقل مرة اخرى . اننا لو نرجع قليلا متاملين كثيرا من القصائد ، وقصص الخيال والملاحم المهملة والراقية منها ، سوف نعثر حتما على بعض التصورات الحية والمعاني العظيمة التي عبر عنها الاحساس بشكل دقيق ومثال على ذلك نجد قصائد لاليوت ورامبو وادونيس وغيرهم من الشعراءالمحدثين قد عبروا باشكالهم الخاصة عن بعض المضامين الانسانية الكبرى التي لم يستطع ان يفهمها العلم ويبحث في جدواها . ومرة اخرى اسمحوا لي ان اقول : لا الاديولوجيا المعاصرة منعزلة عن صراع الوجود الكلي ، ولا سطوة العلم وحدها على قضايا المعرفة يمكن أن تقنع الروح بانحراف العقل وانحيازه تجاه الحتمية الآلية .

ان بؤس الفلسفة الذي صوره ماركس في ادق ابعاده الانسانية والاجتماعية منطلقا من فكرة القوانين الجدلية والعلمية، لا يرجعبتصوري

الى تسلط الفكر الاجتماعي القديم والحديث على روح الفـرد وعلاقتـه بالاقتصاد والسياسة والثقافة ، وانما ثمة شيء آخر كان يفلت باستمرار من علاقات الجوهر الكلي للوجود يمكن ان نسميه جدلا الاسرار الكبرى التي لم يعقلها العقل الحديث وبالتالي فان هذا البؤس الماركسي في اعماقه هو بؤس مطلق اكتنف حياة الكائن البشري وذلك يرجع لعدد من الاسباب الكبرى منها اولا محدودية هذا العقل ونهائيته من ناحية وثانيا لا نهائية هذا الوجود من جهة اخرى .

ان الفلسفة اخطأت طريقها عندما لم تعد تفسر الشيء بالشيء والوجود بالوجود وهذا كان يقوم به الانسان البدائي متجاوزا كثيرا من الاحابيل والوسائط التي اتبعها عقلنا في الازمـان الحديثة . من يدري ان المعرفة البدائية ربما كانت هي الاقوى والامثل التي استطاعت ان تضمن استقرارا قويا ساعد الانسان على بلوغ قمم لم نبلغها نحن بعد رغم ضخامة حضارتنا الاليـة .

ان الفلسفة اذا ارادت أن تحترم نفسها وتتقدم الى الامام فما عليهـا الا ان ترجع الى ينابيعها الاولى ، فتتناول السؤال تطرحه ، وتبحث فيه ولكنها لاتقدم له جوابا بل تفرضه على العقل في صيغ الاحراج والتساؤل، وهذا الكلام لايعني ان تتجرد الفلسفة نهائيا من الحياة وانما الامر متعلق بابتعادها عن الحلول التي يطرحها المنطق والعلم .

ولهـذا السبب يجب على الفلسفة ان تستفيد مجـددا من الشعر العظيم وبقية الفنون الانسانية الاخرى التي لاتضع قوانينا تحلل بهـا كل الموجودات ، وانما تعطي صورا واحاسيس ومضامينا عميقة ترتقـي بالوجود الى عالم مفارق ينصع بالمتعة والدهشة والمعرفة . وبهذا المعنى ارجو أن لا يفهم من هذه الدعوة ، انها دعوة فنية باسم الفلسفة ولكنهـا في الواقع تطمح ان تكون دعوة عقلية باسم العقل .

* مصير العقل ـ مصير الفلسفة :

ان الاشكالات التي طرحها العقل على مستوى التفكير العلمي والفلسفي لم تترك مجالا رحبا لاستقلالية شؤون الفلسفة كعلم كلي يشمل مختلف العلوم ، ويسهر على توجيهها . ولهذا السبب او ذاك فان العقل مطالب في هذا العصر ان يفكر بجدية في مسائل المعرفة الانسانية بوجه عام ، ثم في قضايا التفكير بشكل خاص ، ومن جملة هذه القضايا يجب مراجعة الموضوعات المعرفية التالية بواسطة العقل نفسه :

١ ـ استبعاد العلم والمنطق لصالح عودة الروح والميتافزيقا من اجل المشاركة الفعالة في بحث مشاكل الوجود .

٢ ـ على الفلسفة ان ترجع الى جوهرها الاسمى والابهى المتعلق بترويض النفس والذهن وتخليصهما من مفعولي التكريسية والحتمية .

٣ ـ على الفلسفة ان تبحث في المتعالي المفقود ثم تحيل ظواهر الوجود المادية الى المنطق والعلم .

٤ ـ على الفلسفة ان تغير المفاهيم المحدثة في مجال الاختصاص والتخصص المعرفي ، ثم تبحث في وجود علم يوحد بين كافة ظواهر المعرفة الانسانية ودون ذلك فان الفلسفة ستبقى في حدود ساكنة يحكمها العلم بسكونيته او ربما يصيبها جمود قاتل يؤدي الى تمزقها امام بروز ظواهر فلسفات اجتماعية وايديولوجية برزت اقطابها مع ظهور بعض التيارات الفلسفية المعاصرة . وحتى لا احصر الفلسفة في ازمة خاصة ، اقول ان الوجود برمته بدأ يقع في دائرة الازمات المتعددة .

تخطىء الماركسية وتخطىء اية نظرية محدثة اخرى في جعل الفلسفة شرطا من الشروط الاجتماعية الخاصة بتطور المجتمع ماديا واقتصاديا وتجد له حلوله الخاصة . وهذه هي الهفوة الفظيعة التي ارتكبها الفكر والتفكير العلمي ضد ضرورة الفلسفة ووظيفتها الانسانية .

للفلسفة جوهر واحد ، ووظيفة واحدة متعالية بين ظلال المعرفة العلوية ، اذ لا علم يستطيع الارتقاء اليها والصعود الى مداركها ، باستثناء علم الروح الطافح دوما بالحركة المضطرمة نورا واخلاصا وصدقا وعبقرية .

ويخطىء العقل مرة اخرى اذا ما اعطى نصف ثقته للمنطق والعلم لحل اعظم المسائل تعقيدا وصعوبة . ان مصير الفلسفة بين يدي الفلسفة وحدها ، وعلى العقل ان يدرك هذا الامر بجدية صارمة ، والا فان هذا الوجود سوف يقع على راسه ويقع به في باطن الركود الى فترات زمنية طويلة ، فلا علم حينذاك ولا قوانين تجريبية ومنطقية منفصلة بذاتها يمكن ان تقدم له المعونة والهداية الناضجة ثم على العقل ايضا ان يعيد اصل التوازن القديم الى ذات الانسان المعاصر المفككة فيبعث فيها نشيجها وعمقها البدائي ، ثم يعطي ما للطبيعة والمادة ما هو صالح لامنها وحمايتها من الاندثار ، انه المخرج المعقول الذي يمكن ان يفضي بالعقل الى طرق الرحمة والسعادة والا فان النتائج التي ستترتب على هذا التطور الآلي الهائل لا ندري مدى المآل الذي ستؤدي اليه .

وحده العقل الذي يدرك خطورة هذه اللعبة ، والروح وحده الذي يملك المفاتيح الضرورية لهداية العقل .

* مصير العقل :

١ ــ مستوى العقل البسيط : ان طبيعة العقل الكلي عند الانسان البدائي كانت محددة كما قلنا سابقا بنمط من التفكير البسيط مرتبط بظواهر الوجود ارتباطا مباشرا ، وهذا يعني ان العقل البشري كما اسلفنا كان له اسلوب واحد للعيش تحكمه الغريزة الفطرية في حضورها الزماني المتدفق بالموجودات . ولقد بينا في الفقرات الاولى من هذه الدراسة ، ان علاقة الكرسي بالطاولة كانت تفسر في ذهن الانسان البدائي في حدود وجودها المتعين فطريا ، وخلاصة ذلك ان الموجودات في ذهن هذا الانسان هي الموجودات عينها في الواقع .

٢ ــ مستوى العقل المركب : وهو العقل النظري العلمي الحديث الذي نشأ مع ظهور الحياة وتطور بتطورها ، وهو ايضا نفس العقل الذي استطاع ان يتجاوز حدود الغريزة ويستبعد الروح من دائرة السهر على مشاريعه العلمية المحضة ثم يؤسس اسلوبا جديدا للتفكير والنظر ، انه اسلوب يعتمد التركيب والتنسيق وهو ايضا ما سمي بالاسلوب العلمي.

٣ ــ مستوى العقل التأليفي : وهو مستوى العقل المزدوج بالاحساس والحدس ، كان له حضور مستمر الى جانب مستوى العقل البسيط ومستوى العقل المركب .

ان مستوى هذا العقل التأليفي كان مرتبطا بوثوق الى مستوى العقل البسيط يعمل معه في وفاق وانسجام ولكن عندما انتقل العقل من البسيط الى المركب استبعد مستوى العقل التأليفي اذ اصبحت له وظيفة محدودة خاصة بالمشاعر والاحاسيس . وبالنهاية اصبحت مواضيعه محصورة في التأمل وضاعت منه دهشته الى الابد .

* وظيفة العقل المستقبلية وعلاقته بالفكر والوجود .

لقد قسمت قبل قليل العقل الى ثلاث مستويات ، وقلت انها نشأت وتطورت بتطور الحياة ذاتها ، ثم رأينا كذلك كيف ان هذا العقل المركب الحديث استبعد مستوى العقلين البدائي والتأليفي من حقل المشاركة العلمية ، ورأينا كذلك المستوى الخطير الذي حققه العقل العلمي عندما قلب مفاهيم الوجود رأسا على عقب ، فأسقط بعد الابدية ، وقسم الحركة الى جزيئات ، واثبت فاعلية عقل آلي وغزى القمر بالعربات الصناعية المتطورة الخ ... انه تطور محمود نعترف به للعقل العلمي ، ولكن ليس هذا الحمد كل ذلك .

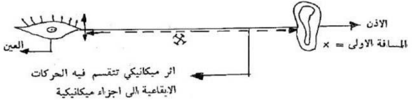
من البديهي انني اعي خطورة هذا البحث الذي تناول بعض الاراء الفكرية وواعيا في نفس الوقت بقصوري أمام ضخامة الفكر البشري . لكن هذا الاعتراف لم يمنع احساسي من التجرد ، او الانفلات من حضور التجربة الانسانية التي يشهدها عصري في افقه العظيم .

وهنا اسمحوا لي مرة أخرى ان اطرح وجهة نظر لا استطيع ضمان دقتها وصدقها الا انها قابلة للطعن او القبول ومتعلقة في مداها الاقصى بامكانية حدوث بنيــة جديدة للعقل الانساني في عصرنا هــذا . خلال السـنوات الماضية قرأت كتيبا صغيرا الفه الدكتور العالم مارشال مكلوهان حول قضايا السينما وبعض المشاكل الاخرى منهـا تأثـير الصناعـة الالكترونية الحديثة ، ومدى تأثيرها على بعض الاعضاء الفزيولوجية كالبصر والسمع . وفي هذه الدراسة قسم مكلوهان العصر الحديث الى مرحلتين:

المرحلة الاولى وهي مرحلة سادت فيها الميكانيكا كاسلوب للانتاج والحضارة .

المرحلة الثانية وهي مرحلة ســاد فيهــا الالكترون كنمط انتاجي وحضاري .

١ ــ مرحلة الميكانيكا : يقول الاستاذ مكلوهان في دراسته لقد كان الاثر الواقع من جراء هذا الاسلوب على جهاز العين والاذن قد تحــدد بمسافة ايقاعية حسية بين العضوين الحسيين (عين ــ اذن) سماه بالاثر الحسي الميكانيكي .



اننا اذا اخذنا بهذا التفسير العلمي لمكلوهان ، فاننا نفهم بذلك طبيعة البنية التركيبية التي آل اليها العقل الحديث فحضارة الالة كاسلوب انتاجي طبعت هذا العصر ماديا وروحيا اذ ان الوسائل التكنولوجيـة اصبحت تكون عالم الاشياء الحديث ، ومن هنا يأتي الاعتبار الهام لتحليل العالم مكلوهان للاثر الذي خلفه هذا الاسلوب واثر به على اعضاء الفرد الفزيولوجية الحساسة .

وفي نظري فان هذا الرأي يبين في النهاية التماثل الطبيعي بين بنية العقل التركيبية وبين هذا الاسلوب الانتاجي الميكانيكي الذي مايزال يحكم الظواهر الحسية والمادية حتى هذا الوقت .

٢ ـ مرحلة الالكترون : في بداية هذه المرحلة يحلل العالم مكلوهان الاثر الذي تركته الالة الالكترونية على نفس الجهازين الفزيولوجيين ، ويبين ذلك كالاتي :

اولا : التغت المسافة التي احدثتها الميكانيكا بين جهاز العين وجهاز الاذن ، ثم حصل تطابق بينهما اي ان الاثر الحسي للاذن انتقل الى مستوى الاثر الحسي للعين .

ثانيا : اصبح اثر الالة الالكترونية على هذين الجهازين شبيها بتيار روحي حسي متحرك .

وهذه الصورة تبين ذلك :

الاذن



العين

المسافة الثانية = صفر

اننا لو نتأمل الابعاد العميقة للاثر الالكتروني ثم نحلل فكرة (التيار الروحي) سنلاحظ تربا ضعيفا لمستوى العقل التاليفي داخل عمق العقل التركيبي ، وذلك لان الحركة الحسية الميكانيكية قد تغير دورها ، فحذفت المسافة التي احدثتها الميكانيكا بين جهاز السمع والبصر المذكورين .

ان ضغطنا على زر آلةالتسجيل الحديثةاو جهاز التلفزيونوالتلسكوب والكومبيوتر هي بعض من هذه الادوات التي اصبح تاثيرها الحسي مرتبطا بالاثير وهذا مايدلل على وجود مشاركة فعالة لروح العقل التاليفي الى

جانب العقل العلمي المركب الذي احدث هذا التغيير الحسي العميق ،وهنا يبدو انه لا مناص من فسح الطريق امام مستوى العقل التاليفي لكي يقوم بمهمته المرتجاة منذ عصور سحيقة في القدم ، ولقد آن ايضا لمستوى العقل المركب ان يتكىء على نظيره البسيط والتاليفي ويخطو معهما خطوة جديدة باتجاه انتشال الذات البشرية من الانحراف الذي قام به العقل في كليته الذهنية .

❋ العقل الجديد المفترض

قديما : العقل الكلي = مستوى العقل البسيط مزدوجا بمستوى العقل التاليفي (الفكرة مرتبطة ارتباطا مباشرا بالحدث والغريزة الفطرية)

حديثا : العقل الكلي = مستوى العقل المركب منفصلا عن العقل التاليفي (حتمية قانون الظاهرة) . ومن هذا المنطلق النهائي يصبح العقل المتصور المفترض :

العقل الكلي الجديد = «مستوى العقل التاليفي + مستوى العقل البسيط» + مستوى العقل المركب .

← + (مستوى العقل المركب في حالة حضور الظواهر الطبيعية والمادية المحضة) .

← – (مستوى العقل المركب في حالة حضور الظواهر الميتافزيقية والحسية والروحية) .

واخيرا اقول امام تواضع هذا الافق : معذرة وارجو ان لا اكون قد ذهبت بعيدا عن ينابيع اصول المعرفة الخالصة .

انها صورة مفترضة لمستوى عقل مستقبلي يصلح من شؤون عربة التطور الانساني في هذا الزمن العظيم .

مراجع البحث بالعربية

١ ـ الفيزياء في الطبيعة المعاصرة
تأليف : فرنز هايزنبرغ
ترجمة : قسطنطين قدسي
مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي
٢ ـ من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية
تأليف : الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا
منشورات عويدات لبنان
٣ ـ النظرية المادية في المعرفة
تأليف : روجيه غارودي
ترجمة : ابراهيم قريط
٤ ـ ماقبل الفلسفة
تأليف : جماعة من الاساتذة ـ هـ ـ وهـ ـ فرانكفورت
ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا
٥ ـ الشعر والفلسفة
تأليف : مارتن هيدغر
ترجمة : عثمان امين
٦ ـ ماركسية ام وجودية
تأليف : جورج لوكاتش

المراجع بالفرنسية

1 — Revue Thomiste .
Octobre - Décembre 1980
2 — La connaissance de soi .
Luis Lavelle .
3 — L'extantialisme est un humanisme .
Jean Paul Sartre .

أزمة الحضارة :
انحطاط الثقافة الصناعية

جوزيف ا. كاميلري
ترجمة : فؤاد خوري

لقد رسمنا بمختصر عام اكثر اختلالات التوازن الخطرة التي تشكل اساس النظام المعاصر للمجتمع الانساني وسوف نستعرض تجلياتها في المضمار السياسي الذي نعني به الحرية حيث يسمو الانسان بنفسه على عالم الضرورة المحضية . وسيتركز تحليلنا على نماء الحضارة التقني وعلى سيادة العقلانية البيروقراطية على الثقافة السياسية في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

ليس هناك ، دون شك ، ثقافة سياسية موحدة بشكل واضح تشمل كل المجتمعات البشرية مثل الاختلافات المتعددة بين السياسة والانظمة الايديولوجية الملمح اليها سابقا . ومع ذلك فان المرء يستطيع تمييز اتجاه عالمي واضح نحو تمركز السلطة والتخصص التقني . ومما له دلالته ، ان الانسياق وراء التحديث ، حتى في العالم الثالث قد عزز شأن البيروقراطية في المؤسسات المركزية الحكومية ورافق ذلك اعتقاد بأنها قوة تقدمية تفوق قيمتها الالتزامات والولاءات التقليدية ، وبسبب ذلك يمكن لنا أن نبرر قولنا ان اللاتوازن - النفسي - الاجتماعي ظاهرة سياسية عالمية .

وسوف نرى أن عزل خبرة الفرد عن الحقيقة الاجتماعية وكذلك الفجوة بين الفعالية الذاتية التلقائية وبين احتكار السلطة المنظمة يفضيان الى دعم النظام القائم والى اسلوب حياة مخلخل على نحو فريد وعاجز عن التكيف لمواجهة تحديات العصر الحاضر هذا وسنحاول وصف خصائص انحطاط الثقافة الصناعية في اتجاهات أربعة يمكن تمييزها بوضوح هي : التوافقية ، الخصوصية ، القمع النفسي ، والانحطاط الاخلاقي .

التوافقيــة :

لقد اتضح تماما ان المجتمع التكنولوجي البيروقراطي المعقد يعتمد في تنظيمه الفعال على نظام في التحكم ليس له طابع شخصي والالية التى يمارس من خلالها مثل هذا التحكم هي مبدأ التوافقية حيث يكون التكيف مع القواعد السائدة له الاولية علي اي سؤال فيما اذا كانت هذه القواعد صحيحة ام خاطئة وتصبح الكائنات البشرية وحدات مدارة بما فيه الكفاية الى الحد الذي نجد فيه أن هويتها هي في المجتمع المشترك وليس في شخصيتها الفردية ،وكما لاحظ رولان لاينغ ، لدى حثه مجموعة من الناس على ممارسة نفس الرغبات والعواطف واضمار نفس التوقعات

والامال ، وادراك نفس التهديدات ان سلوكهم الاجتماعي ليس قابلا للتنبؤ به وحسب يمكن تحديده مسبقا ، والنتيجة النهائية لهذه السيرورة ان الفرد العام قادر بصعوبة على الاختيار والقيام بفعل ذاتي وتلقائي ، انه مخلوق مشروط بفن التلاعب التجاري والعقائدي ليعمل وفق اغراض الاعمال الحديثة او وفق اغراض سياسة الحكومة الاستبدادية ويجب الا يخفى انه في مجتمع الفرد العام او مجتمع العموم فان البحث السياسي والراي العام يتشكلان وفق حركة اتصال عامودية وحيدة الاتجاه تنبثق من السلطات المتحكمة وتنتشر نازلة بين حشد من الافراد غير متمايزين .

وعلى الرغم من ان مسايرة متطلبات السلوك الجماهيري قد تأكدت الى حد ما من خلال الاعمال الطبيعية للطموح والانتقاء النخبوي فان بنى البيروقراطية يمكن ان تتغير من مجتمع الى آخر لان التقدم خاضع بصورة ثابتة الى القبول بالقواعد الموجودة والضوابط والممارسة المنظمة . بالنسبة لكارل مانهايم فان الضامن التوافقية للعملية البيروقراطية واضحة تتجلى في انتقائها العمال النظاميين القابلين التجاوب مع اي وضع بحجة وجود القواعد والضوابط ، ورفضها الافراد الذين لهم اهتمامات فردية بعيدة المدى ونزوعا طبيعيا للارتجال . ان الشركة الحديثة اذ تؤكد على الابداع التكنولوجي والاداري يبدو وكأنها تستحسن روح المبادرة في ادنى مستوياتها لدى الجهاز الاداري لكن مثل هذه المبادرة تبقى قائمة داخل مجموعة المقاييس الصارمة بفضل القواعد الراسخة ومركزية صنع القرار .

ان النزوع نحو التوافقية لا ينشأ من المطمح البيروقراطي فحسب ، الذي هو في اي حال نتاج التنافس الاقتصادي والسياسي ، والخاصية التنافسية للمجتمع التكنوقراطي تعم كل مظاهر العلاقات البشرية بما في ذلك اكثر العلاقات الجنسية الحميمة وبذلك تخلق المناخ الواسع الانتشار من القلق والعصاب وفي هذه الظروف قد ينظر الى التوافقية على انها آلية دفاع ضد الشعور العام بفقدان الامن الناجم من القوى التقنية اللاشخصية والتغير الاجتماعي والتكنولوجي المتسارع ، فالفرد مواجه باطراد بتوقع انسحاق نفسي وعدم طمأنينة مادية ايضا ، او اختيار

الاذعان لما تمليه الالة الاجتماعية . وقليلا ما يدعو الامر الى الاستغراب ان الاكثرية في اي مجتمع تختار بصورة غير واعية احيانا الخيار الثاني ومع ذلك عندما يقوم الفرد بهذا الاختيار يتسنى لمجتمع الاتحاد ان يزيد من غزوه لحياة الفرد على نطاق واسع وان يحقق حالة من الهيمنة يتعذر النيل منها ، وكما لاحظ ادورنو بحق فان عملية الاخضاع لنظام واحد لا تواجه العقل من الخارج بل تتغلغل الى داخل قوامه الاساسي ، وبمعنى ما ليس الانسان العام الا نتاج المؤسسة العامة سواء اكانت هذه المؤسسة هي الدولة ، الشركة ، الحزب ، الرابطة الطوعية وفي كل حالة البنيـة البيروقراطية بحكم حجمها وتعقيدها ولا شخصيتها تدمج وتنظم حيـاة الفرد ولكنها تخفق في اشباع حاجته الى المعرفة والصداقة والطمأنينة والعضوية حتى ان المفهوم الرومانسي للزواج قد اضحى ذا صفة مكتبية كما بين وايت من جانب الشركة التي تعتبر امرأة العامل جزءا مـن مصادر قوته وتبعياته ، كما بين ث . وايت ميلزان الرابطـة الطوعية يفترض انها موضوعة بغرض تعزيز الاهتمامات النوعية للاعضـاء ولكن ما من مرة يوضع الجمهور فيها بالحسـاب حتى يصبح ذا حصانة بالنسبة لتأثير الفرد . وقبل ذلك بنصف قرن تقريبا كان روبرت مايكل قد برهن على الاتجاه البيروقراطي في تنظيم الاحزاب الجماهيرية وعلـى انهيـار الديمقراطية اللاحق وفقدان الحماسة والعفوية ، بالنسبة لماركوز فان النتيجة النفسية لهذه السيرورة المجتمعية التي تقتضيها فعالية النظـام بالذات هي غياب البعد الداخلي للفكـر وفقدان قوة العقـل النافـذة والخضوع لوقائع الحياة . وهكذا يتحول الانسان المنظـم الى مخلوق منفعل وقاصر فعليا يستجيب الى ضغوط المجتمع فقط وكانه منعكس شرطي ، فافعاله وقراراته تتساوق مع الخط الاقل مقاومة فهي محمولة على البحث عن النفع المباشر وعلى ارجاء غير المحدود للخيارات المؤلمة وهذا البناء النموذجي هو دون شك اكثر قليلا من كاريكاتور للانسان المعاصر الذي يبقى شخصية اكثر تعقيدا واختلافا ومع ذلك فان هـذا التبسيط المفرط لملامح الانسان المعاصريكشف بعض الخصائص الاجتماعية ذات المغزى الذي استطاع نورستاين فبلن تمييزها بدقة نافذة فسبق

بذلك معظم معاصريه ، ومهما كابر الانسان المتعي فانه يتلقى من القوى الاجتماعية ما يدفعه الى السير في اتجاه او آخر ، ويكون سعيدا دائما بالعودة الى حالة التوازن والى نفس حالة الاكتفاء الذاتي في حلقة رغباته كما كانت قبلا .

ويجب الا يدهشنا حينئذ ان تقدم المجتمع المتعي تحت شعار دولة الرفاه يجب ان يوضع في معادلة مع نهاية الامال الالفية والتفكير الطوباوي والايديولوجية* .

ان ازدياد الوفرة في معظم اقتصاديات العالم الراسمالي المتقدمة وفي العالم الاشتراكي حديثا قد زود القائمين على المجتمع بوسيلة جاهزة لتحويل الراي العام عن القضية المركزية لبنية السلطة وتركيز الانتباه على المتع الاستهلاكية الحياتية . ان اعادة تحديد مبدأ اللذة بلغة الطلب لاجل الاستهلاك تقود بصورة مطلقة الى التعصب ضد كل تجربة غير سارة والى قصور في الشعور والى عطالة سياسية وثقافية وبصرف النظر عن المكافآت المادية لمجتمع ما بعد الندرة هنالك عامل آخر هام اسهم في التوافقية الثقافية هو الاعلام الجماهيري الذي لم يقتصر على تقديم المعلومات عن العالم بل أقام المقاييس والقواعد التي تفسر بها تلك المعلومات وتقيم واصبح وسيطا فعالا بين خبرة الفرد اليومية وبين الواقع الاجتماعي الواسع وتضاءل الفرد فاصبح متلقيا منفعلا بالزاد الاعلامي. ان ازدياد تمركز الاعلام في ايدي الحكومة او في ايدي مصالح خاصة قد سارع على نحو ملحوظ في رقابة شبه استبدادية على الجهاز الاداري للمستهلك . وعند الحد الذي يبقى فيه مقدار ضئيل من التنوع او المزاحمة سواء في حالة الرضا او في حالة تحليل المعلومات المقدمة يتجه لان يُعنى في المقام الاول بالحوادث التافهة او الهامشية، والنتيجة النهائية لوسائل اتصال الاعلام الجماهيري هي نتيجة هائلة من التحريف وتتفيه الامور .

---

* العقيدة الالفية : القول بالعصر الالفي الذي سيملك فيه المسيح على الارض «المترجم»

ان اغلبية مؤسسات التأهيل الاجتماعي قادرة اذن على فرض محتكراتها العامة بقدر اقل عن طريق القوة منه عن طريق تشذيب وصقل الخيال الاجتماعي وان أشكال الاتصال المتعددة والتتابع غير المتناهي من المهام التي تمطر الفرد بوابل من القنابل باستمرار تحاول أن تتحكم بكل مظهر وبكل لحظة من وجوده فلا تغفل حاجة حقيقية كانت ام خيالية ويفقد الناس بصورة لا مفر منها الاحساس بجدارتهم وكفاءتهم في اتخاذ قراراتهم ، وبالنسبة لـ ابليك ان اضفاء الصبغة المؤسساتية الصناعية على القيم واحلال مجموعة المعايير محل الاستجابة الشخصية قد خلق مصدرا جديدا من الندرة والامتياز والاعتماد حتى ان التعليم قد تحول الى سلعة والتربية التي تعتبر عرفا وسيلة لنمو الوعي الهام بالذات والوسط المحيط هي الآن وسيلة في المقام الاول لتأكيد تكاثر حاجيات الاستهلاك وتكيف الفرد مع الادوات الصنعية ذات التعقيد الواسع ودون شك يحتفظ المستهلك بحد من الاختيار بين موديلات السيارات المتنافسة واصناف السجائر وحتى بين طبيب وآخر وبين المدارس ولكن هذا القدار الضئيل من الاستقلال الذاتي لا يقلل من اعتماد الفرد على الخدمة المهنية او من الاذعان العام لنماذج الاستهلاك الوطيدة ، ومن الواضح ان نفس تقنية الاعلان الناجمة في تسويق البضائع والخدمات هي المستعملة لترويج التصورات السياسية والسياسات الاجتماعية والاقتصادية . كذلك الاختيار بين الاحزاب السياسية المتنافسة والشخصيات يكتسب نفس الصفات التجميلية كما هو الحال بين انواع مساحيق الاصبغة المتنافسة او معاجين الاسنان والى هذا الحد الذي ما يزال الاختيار السياسي موجودا فانه يكون قائما بين الجماعات المكتبية المتزاحمة اكثر منه بين الايديولوجيات المتصارعة . وفي البلدان التي تتبارى فيها الاحزاب لكسب التصويت فان الشعب يمكن ان يحدث تغييرا في الحكومات ولكن نادرا ما يحدث تغيير في السياسة . وفي اكثر الانظمة السياسية الرسمية يمكن الا يكون خيار في تغيير ملاك الموظفين .

ان الاثار الضارة الواسعة الانتشار لمثل هذه التوافقية السياسية المفروضة لا تشين فقط الجمهور وتفسده . الذي استبدل بالاستقلال الاخلاقي النفع العاجل ولكنها تشين النخبة وتفسدها لان من متطلبات حكمها الاساسي خلق ثقافة تابعة واقل شأنا . وقد وصف مايكل هارنغتون بحق النتيجة الجدلية بأنها انحطاط المجتمع باكمله .

الخصوصية :

ان عدم تلاؤم استجابة الفرد مع المجتمع التكنوقراطي ليست دلالة محضة على قصوره بالنسبة للمؤسسة بل انها تنجم الى حد كبير من القضايا والحوادث الكبيرة جدا التي تجابهه فكيف يتسنى للمواطن العادي ان يستجيب على نحو فعال الى المسائل التقنية المعقدة المطروحة جراء استراتيجية الردع النووي او الازمات المالية العالمية ، او تلوث الجو ومياه الانهار او استعمال وسائط النقل فوق الصوتية او مضامين متطلبات الطاقة المستقبلية او النتائج المتعددة الجوانب للثورة الخضراء . كل هذه القضايا هي قضايا كبيرة وبعيدة عن خبرة الفرد اليومية بحيث تعوزه المقاييس المعرفية والمعيارية التي بها يكون احكامه او يتوصل بهـا الى استنتاجات ما ، وهكذا يتراجع الفرد في حالة الدفاع عن النفس الى عالمه الخاص حيث يأمل العثور على معنى او جزاء هذا الانسحاب الى عالم ذي صبغة خاصة مجرد من الاستبدادية الاجتماعية الواسعة يعكس الاحساس العميق بالاغتراب المتميز لمجتمع الانتاج بالجملة والانحطاط التدريجي للمبادهة الفردية والمسؤولية حتى انه في الحواضر الواسعة بانماط حياتها المتعددة الاساليب ونماذجها الثقافية فان حياة اكثر الافراد تنبسط ضمن حدود البيئة الروتينية الضيقة ، انهم لا يدركون العالم من خلال الحوافز المتعددة لوجهات النظر العالمية المتعارضة بل من خلال نفس الافكار المسبقة المشتركة والمقولبة لوسطهم الاجتماعي. ان ارفع مستويات التربية عاجزة عن تقويض هذا الضيق في افق التفكير اكثر من انهـا في الغالب تنجح فقط في انتاج الاخصائي الامي ذلك الانسان الذي اكتسب تعليما بغية انجاز بعض الاجزاء الدقيقة في الآلة

المنتجة وبهذه الطريقة يستحق تذوق ثمار الاستهلاك . ويكاد يكون من المؤكد ان مثل هذه التربية لا تخلق وعيا عميقا بالذات او بالمجتمع وقد غالى كثيرا دافيد دايزمان في كتابه الحشد الوحيد بالتأثير التحرري للفراغ والثقافة الشعبية فالانسان الذي يفي بمتطلبات المجتمع على الصعيد الانتاجي سيكون بوسعه ان يفعل ما يسره على صعيد المباهج والمتعة ولكن هل يكون بوسعه وضع حد لهذا الفراغ الاساسي والوحدة الموحشة التي تنتاب حياة المستهلك الجشع وان يقوده بالاكراه المستأثر ان يترع بكل لحظة متاحة من وقته الحر ؟

يمكننا ان نغنم من الصيغة المسرحية لدى ت . س . اليوت (على لسان بطلته سيليا شيئا ما عن العزلة الداخلية التي تكدر الانسان المعاصر وان نجد مثل هذه التعابير النفاذة على لسان بطلته سيليا)

ودون شك ليس الامر وهما ولكنه تبصر عميق في الوضع الاجتماعي المعاصر لاختلال الامن الوجودي الذي لم يعد المرء فيه قادرا بعد الان ان يفهم حقيقة وحيوية واستقلال وهوية نفسه او الآخرين على انها امور مسلم بها ، ثمة ملاحظة اكثر تجريبية لوجه آخر من هذه الظاهرة نجدها في الدراسة التحليلية لدى جيفري هادن عن الجيل الخاص ظاهرة يصفها بدقة فائقة ولكنه يرتبك في تفسيرها ، فالمؤلف بعد ان اجرى مسحاطلابيا واسعا يقرر ان الجيل الحاضر يرفض المعنى او السلطة خارجا عن الذات حتى انه يجادل بأن الاسلوب الجديد للخصوصية يطمح الى الافلات من رقابة المؤسسات القائمة حتى انه يرفض شرعيتها . ان ايديولوجية الخصوصية هذه تبدو وكأنها ذات صفة غيرية في المدى البعيد طالما انها تستحسن اتساع امتيازات الوجود الخاص لكل الناس ، حينئذ كيف يتسنى لهذه الغيرية ان توفق بين ممارسة الخصوصية بتأكيدها على الانغماس الذاتي وعدم التزامها وبين قبولها الوضع الراهن ؟ وكما اشار هادن على نحو صائب ان الرفض الطلابي للمؤسسات القائمة هو فعلا اقل عنفا بكثير مما انستنا للاعتقاد به . حقا ، انهم يرون العديد من هذه المؤسسات وبخاصة الحكومة والاعمال امورا جوهرية لتقدمهم المقبل الا

انهم علاوة على ذلك لديهم مفهوم غامض جـدا وغير واقعي عن متطلبات العمل الاجتماعي والسياسي ، فقد يسلمون انفسهم لاهتمامات مثاليةظانا ان هذه الاهتمامات لا تتعارض مع مطالب الخصوصية وعلى الرغم من ان هذا التقييم قد يكون سليما الا انه يغفل الحقيقة المركزية وهي ان المثالية المتعـددة الجوانب والاستسلام للخصوصية ليسا بالضـرورة حقيقتين متضادتين ولكنهما وجهان لعملة واحدة كلتاهما تعبر عن الانسحاب ذاته من العالم الواقعي وعن الشعور ذاته بالعجز عن التأثير في مجرى الحوادث أو تغيير في بنية المجتمع القائم . حقا ، تكشف كلتا الحقيقتين ذات النظرة النتفية والمقولبة عن الواقع الاجتماعي ، ومـا ينطبق على جيل الطلاب الاصغر سنا لا بد ان ينطبق ايضا وبشكل الزامي اكثر على العوالم الخاصة الاخرى للمجتمع العام حيث يكاد الولاء الكلامي للمثالية يكون مفقودا .

وما فات هادن بالنسبة لطبيعة الخصوصية ودلالتها قد فهمه بوضوح جوزجن هابرماس ان النظام الصناعي لايبرر وجوده بالاحالة الى بعض الميادين السياسية المطلقة بل من حيث الوعي التكنوقراطي وتخصيص الاموال واوقات الفراغ ، وبمعنى آخر ان شرعية النظام تتوطد بالوعد الفعلي بمكافآت لتلبية الاحتياجات الخاصة سواء أكانت بمعنى السلطة ، النجاح ، المنزلة الاجتماعية او الثروة ، وحينئذ تؤدي الى ظهور الفردية التملكية التي تقيس الانجازات بمعنى الاكتساب الخاص للسلع والخدمات والى دعم الاذعان المنفعل بما تمليه العقلانية المكتبية .

ونتيجـة الحط من قيمـة التفاعل المتبادل بين الناس وبين الناس والطبيعة ، فان التوجيه الهادف للثقافة الصناعية يبرر النظام القائـم وينزع عنه اي صفة سياسية ، وقد فهم ماركس بكل وضوح الفصل الناجم عن الدولة بأنه يقود بصورة حتمية الى تصدع جوهري داخـل الفرد باعتباره مواطنا في دولة يجب عليه ان يتخلى عن عضويته في المجتمع المدني اذ ان مواطنته لاتضيف شيئا الى فرديته العارية المجردة في حين ان وجوده في مجتمع مدني يكون تاما بدون الدولة وبهذا المعنى فان نمـو الخصوصية وانحطاط البحث السياسي الهادف يمكن أن ينظر اليهمـا

بوصفهما تعبيرا ونتيجة لاختلالي التوازن الاجتماعي ــ النفسي والبنيوي اللذين يسودان المجتمع التكنوقراطي وهما يعكسان كلا الامرين ، ضياع الانسان الداخلي والصدع الذي لا يمكن رابه الذي يفصل الانسان حاليا عن الجهاز التقني للدولة .

التكييف النفسي :

وما يتصل عن كثب بآلية التوافقية والخصوصية ويشكل اساس عملية التنظيم البيروقراطي باكملها هو ذلك الشكل البارع جدا من التلاعب الذي يؤثر في داخل اعماق العقل البشري ثم يقوض تدريجيا قدرته على معارضة النظام القائم وكل فرد يدرك اشكال الدعاوة السياسية الفجة وهي في اية حال مقتصرة على الانظمة الاستبدادية التي تنشد قولبة الراي بالتأكيدات المكرورة والشعارات الخادعة وترابط الافكار اللامعقول وقد لخص الول بشيء من التفصيل الاثار القصوى للتلاعب الدعاوى من حيث احداث تنويم في العمليات العقلية وخنق الملكة النقدية عن طريق خلق العواطف الجماعية وتشكيل وجدان اجتماعي مقبول وبخلق منطقة من المحرمات وتزييف الواقع .

ولكن المخزون الكبير والجاهز من فنون الدعاوة يتسع باستمرار بواسطة تطوير مناهج اخرى غريبة جدا من تغير الشخصية والسلوك ومما يدل على حقيقة هذا الميل ممارسة هرمان كاهن في مجال علم المستقبل الذي يتصور مزيدا من الاشراف التقني الشامل على الافراد والمنظمات ومزيدا من تحفيز الدماغ ومقاييس جديدة مضادة للتمرد ومخدرات جديدة للسيطرة على التعب والمزاج والادراك والخيال ومختلف اشكال السيطرة التناسلية وبصيغة الطف تعبيرا الى حد ما قد حدد الفن توفلر هذا النمط من الهندسة البشرية بمصطلح « الارضاء النفسي » فقد تنبأ بوحدات نفسية ستحجب بخبرات منظمة جدا ، اللون او المظهر والانسجام والتطابق للناس الذين تنقصهم هذه الصفات وعلى الرغم من ان هذه التكهنات قد لا تتحقق في المستقبل

المنظور فان الحقيقة الماثلة هي ان التقنيات النفسية التلاعبية المتعددة في حالة عمل جاهزة . ويستخدم علم النفس الصناعي والمعالجة بالتحليل النفسي بكثرة حتى في هذا الوقت بغية تكييف الافراد مع مطالب مجتمع جائر ومعالجة المريض تعني اقناعه ان يقبل وضعا قمعيا كأنه الحالة السوية في شؤون الحياة .

ولعل ذلك الشكل من التلاعب المستمد من صميم عملية التأهيل الاجتماعي هو اقل مباشرة ولكنه اكثر براعة واكثر فعالية على المدى الطويل اذ به تكون حقيقة الاكراه قد اعدت لتترافق مع وهم بالحرية ، وفي هذا الصدد فان تحليل هنري لوفيفر للمجتمع المفرط في القمع ، شديد الايضاح لانه يسلط الانوار على جهود هذا المجتمع ليبعد عن نظر الناس عامة اي ايماءة او موقف قد يعطي مظهرا من مظاهر الصراع، وفي اي مجتمع تكون فيه عملية القمع النفسي جزءا متمما للحياة اليومية المنظمة فان فرص وجود الانسان الداخلي تكون نادرة فالطفل منذ سنواته الاولى يعلَّم ان يقاوم حوافزه ومشاعره العفوية التي وصفت وصورت على انها حتما اثم وغير اخلاقية وغير مهذبة .

ان رولاند لاينغ Ronald luiny الذي طور بشيء من التفصيل نظرية فرويد عن الكبت في عهد الطفولة قد اكد تأكيدا خاصا على دور الاسرة القمعي ونزوعها القوي لتعزيز شأن الاحترام والتوافق والطاعة وهكذا يتحول العالم الداخلي للشخصية الانسانية الى روح شريرة يشعر الفرد انه ملزم على كبتها بكل آلية سيكلوجية تحت تصرفه سواء أكانت بواسطة رد الفعل او التسويغ او الانفصام او الاسقاط او تشريب فكرة ما، فتكون النتيجة النهائية لمختلف اشكال الفعل التدميري هو الوهن والتمزق في الشخصية الانسانية التي تبعد جذريا عن بنية الوجود وعن السيرورات الانسانية التي تحدث عن حالة الاغتراب ذاتها وانها لنظرة خاطئة مع ذلك تلك التي تنظر الى الاسرة على انها العامل الوحيد في عملية التأهيل الاجتماعي القمعي ، وقد يكون ماركوز Marcuse مبالغا في درجة

التقليل من اهمية نموذج التحليل النفسي الكلاسيكي من جراء تدني دور شخصية الاب وروابط الاسرة الاخرى وتقاليدها ولكنه دون شك كان علىٰ حق في التاكيد على الوظيفة التي تمارسها المدرسة والوسط الاجتماعي ومؤسسات الاستجمام ، ولايستطيع احد ان ينكر ان مقدار الانتاج والاستهلاك المتصاعد باستمرار وازدياد تمركز السلطة في يد ادارة تكنوقراطية شاملة قد قللت بشكل ملحوظ المجال الداخلي المتاح لتطور العمليات الفكرية ، وفي وقت الندرة تخلق الاوضاع الاقتصادية في داخل الفرد الزاما داخليا ليركز طاقاته النفسية لتحقيق السيطرة على الطبيعة فاخلاق العمل البرتستانتية كانت عنصرا لاغنى عنه في عملية تراكم راس المال وكانت قادرة على خلق تلك الاشكال من الفعالية الالزامية الاكثر تلاؤما مع اقتصاد السوق التزاحمية وطالما كان لها آنذاك تلك النتيجة الناجحة في المرحلة الاولى من التصنيع ومن احلال الوفرة بدلا من الندرة، لماذا لم تضع حدا لنظام السيطرة الاقتصادية الاجتماعية والقمع السيكولوجي ؟ ان السؤال بعيد المدى جدا ومعقد فلا يعالج بما يناسبه في هذا المقام انما يكفي القول ان التصنيع قد ادى تاريخيا الى ظهور مبدا الانجاز الصناعي القائم على الابتكار التقني واضفاء الصفة العقلانية على الشؤون المكتبية ، وقد اشار ماركوز الى هذه التحكمات الاضافية الناجمة من هذه الظاهرة الاجتماعية على انها نوع من القمع الزائد المميز للمرحلة المعاصرة وقد فرق بين القمع الزائد وبين القمع الاساسي الذي يفهم منه تكيف الغرائز الضروري لبقاء الحضارة الانسانية وهنا يختلف فرويد وماركوز اختلافا جوهرياً بالنسبة لفرويد فان المبدا بجعل السيطرة مظهرا للحضارة لايمكن تفاديه في حين ان ماكوز يحاول ان يبرهن بان القمع الزائد ليس ضرورة اجتماعية او بيولوجية بل هو مجرد نتاج الصفة القمعية للوعي التكنوقراطي الذي يعتمد الكبح لاستمرار وجوده ، وقد لايرغب المرء في قبول الفرضية الماركوزية في مجملها مع ذلك فهي واضحة حيث ان التلاعب الاداري للمجتمع هو تعبير مباشر عن الصيغة الغالبة للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي وبالتالي عن الايدلوجية السائدة وفي حالة التكنوقراطية المعاصرة فان التنظيم التقني للمجتمع وايديولوجية اضفاء

الصفة العقلانية على الشؤون المكتبية هما الامران اللذان ادبا الى ظهور التكنولوجيا المتمركزة على الالة والى العملية التي تشكل اساس التلاعب النفسي وقد جاءت الآلة لتسود البيئة البشرية بنفاذها الى اعمق اعماق الشخصية الانسانية وتكييف جوهرها ذاته . ولا يوجد ايضاح اكثر اثارة على هذه الحقيقة من اعتماد الانسان التكنولوجي التام تقريبا على الضابط الزمني الذي يحول خبرته عاجلا او اجلا الى تجريد صارم والي .

وفي هذا الصدد يكون القول بأن طغيان التقنية مرتبط اطلاقا بأسلوب الانتاج الراسمالي لاقيمة له ، وكما برهنت الثورة الروسية ان الاقلية البولشفية التي قبضت على زمام السلطة في ١٧ اكتوبر قد اخفقت على نحو فريد في تعزيز التحويل الشيوعي للمجتمع ولم يعز ذلك الاخفاق الى الجهاز البيروقراطي الذي ورث سالما لم يمس عن الدولة القيصرية فحسب بل عزي بصورة جوهرية الى الاسلوب الاستبدادي في عملية التأهيل الاجتماعي الذي لم تكن الجماهير ولاالقيادة الجديدة قادرتين على التحرر منه وفعلا فان الحركة الثورية بصرف النظر عن تحريرها نفس الفرد قد بادرت الى برنامج أجباري واسع النطاق من التصنيع يغرس في النفس خوفا مريعا من المبادهة والمسؤولية على مستويات الادارة كافة ويخضع كل الانشطة الفكرية والثقافية الى رقابة مكتبية وسياسية .

ان نشاط التطهير الستاليني المفرط في الثلاثينات كان المظهر الاكثر معاينة وتطرفا للقوة العشرية التي كانت تشكل اساس التكنوقراطية السوفيتية ومع الوقت اصبحت الممارسة الشرسة والوحشية للرعب اقل جلاء ، لكنها اكثر اغواء سيما وان اضفاء الصفة الاستبدادية الاكثر نضجا والاكثر تعقيدا والتي ظهرت على نحو تدريجي في الانظمة الشيوعية وعلى نحو خاص وجلي وباكثر اساليبها صقلا في المجتمعات الراسمالية المتقدمة قد طورت درجة عالية من القوة الماصة او بمعنى آخر قدرة على تعميم الاشباع المادي من جهة وتلطيف المعارضة من جهة ثانية ، وفي الحقيقة وكما برهن روزاك على نحو مقنع فان المجتمع المتساهل جنسيا يؤدي

الى تعزيز الوضع الراهن للتكنوقراطية لان طبيعة التساهل المرضية والمرحة واللاشرعية ولان عدم التشجيع على الولاءات الملتزمة والارتباطات الشخصية يعزز الالتفات صوب التقدم في العمل والمركز الاجتماعي والى النظام بشكل عام ـ هذا الاسلوب من التسامح القمعي او صمام الامان ليس مع ذلك في متناول اي فرد وليس فعالا بمعنى الكلمة كما هو الحال في البرهان المتزايد للاجهاد النفسي الذي يظهر بوضوح .

وقد قدر في بريطانيا ان الولد العادي تكون فرصة قبوله في مشفى عقلي اكبر بعشر مرات من قبوله في جامعة ، وفي الولايات المتحدة يصرف سنويا مايعادل ٤٥٠٠,٠٠٠ مليون دولار على المشروبات الروحية والتبغ في حين ان واحدة من اصل اربع من الاناث في سن مابين ٣٠ ـ ٦٠ تستعمل بانتظام حبوبا منشطة نفسيا بموجب وصفة طبية واضافة الى ذلك اذا اخذ المرءبالحسبان التعويل الواسع والمتنامي على الحبوب المنوعةوبخاصة بين الجيل الناشيء يتكون لديه انطباع عن الحالة المرضية الحاضرة للمجتمع . ان التوتر العصبي الناجم والضغط النفسي الذي يهدد بشل الآلة الاجتماعية قد جعلا التكييف النفسي للاجهاد والتحديد معنى الاستواء امرا ضروريا ، وقد اصبحت الحبوب والمصحات العقلية زيت التشحيم اللازم والمصنع المطلوب لتقديم الخدمة من جديد للحيلولة دون الانحطام التام للالة البشرية وعلى الرغم من ان النتيجة النهائية غير محققة الوقوع فان الانسان قيد المعالجة قد اجهد الى ابعد مدى حتى اخر حددو تحمله فأصبح مثل سلك فولاذي قد ينقطع في اي لحظة .

الانحطاط الاخلاقي :

التوافقية ، الخصوصية ، التكييف النفسي (التلاعب النفسي) هي المعالم الثلاثة الرئيسية التي تسود ملامح الثقافةالحديثة والنتيجةالنهائية لهذه الظواهر هي ايصال الفرد الى حالة الانسان الاتوماتيكي الذي لارجاء له والذي وظيفته الوحيدة ان يخدم الشبكة المنظمة العملاقة التي تحيط به ، ان اسلوب خبرته اليومية الروتيني والمتآلف يعمل بقوة ضد تطور

الوعي المستقل او المنشق وبالتالي ضد تكوين الاهتمامات الاخلاقية ، ان الفرد الطيع والمماثل المعزول والمتلاعب به نفسيا هو فرد لا حول له على انشاء معايير وقواعد جماعية مقابل تلك التي فرضتها حكومة الفنيين الصناعية فلا يستطيع ان يتحدى الاخلاق البيروقراطية لان معارضة المبادىء المعيارية هو امر متناقض مع سلطة البيروقراطية التي عبر عن عقليتها ماركس ببلاغة بانها « صنمية السلطة » .

ان قانون التقنية محكوم بالحقيقة باخلاق مهمتها الواضحة استبعاد كافة الاخلاق الاخرى واعتراض سبيل كل الاعتبارات الخلقية التي يحتمل ان تتضارب معها او تهدد طريقة عملها المتواصلة .

وكما لاحظ هابر ماس فان اخماد او اخفات المجال المعياري لا يظهر كثيرا على الشخصية الموالية او المؤيدة مثلما يظهر في تهديم الانا العليا فالحرية الظاهرية التي يمارسها الناخب والمستهلك والرجل العاطل تحجب عن العيان مزيدا من التبعية الاساسية لايديولوجية تتجاهل الاختلاف بين العملي والتقني وتشوه سيرورة الاتصال الانساني وتنزع الصفة السياسية عن عامة المجتمع ، والانهيار التالي للنظام المعياري يظهر على نحو اكثر اثارة في التخلي المتعاظم عن الحافز الديني ازاء التسامي ، وان الواجب الاخلاقي الروحي الذي يدعو الى تجرد النفس والاعراض عن الغنى ورفاه الدنيا وتحمل اي تضحية لاجل حسن السيرة ينظر اليه الآن من قبل النظام الصناعي الرفيع الدنيوي على انه تأكيد للمثالية معوق وغير معقول وينطوي على مفارقة تاريخية وماتشاهده في اكثر المجتمعات الصناعية المتقدمة هو الافقار التدريجي ان لم يكن التجاهل التام لعنصر التسامي في الثقافة وقدرتها على تقديم منظور نقدي عن الواقع الاجتماعي وقد وصف ماركوز عملية تسطيح النضال بين الواقعي والممكن بانها تصفية الثقافة ذات البعدين وتوحيد القيم الثقافية في النظام ، ان الانتاج الضخم واستنفاد الثقافة في الفترة المعاصرة وما يدعى بديمقراطية الفن قد ادت كلها الى تغير في الكيف بالاضافة الى تغير في الكم سلب العمل والفن قوتهما على الرفض والانكار ووظيفتهما النقدية في المجتمع وفي ثقافة ذات بعدين

فان العمل العظيم للفن يشترك في اظهار عبء التعارض المتسامي اوالمروع لصغائر الحياة اليومية في حين ان الابداع الفني اليوم متحد مع المجتمع التقني ويؤدي المهمة نفسها كما لو انه اعلان يهدف الى البيع والرفاه والاثارة . وقد يكون ماركوز مبالغا في الدور المتغير للثقافة وبطبيعة حضارة اليوم ذات البعد الواحد ولكنه ادرك بدقة الاتجاه العام الذي يفرق اليوم عن البارحة. وماانحلال الزمن القصصي لدى جويس والاستغاثة البائسة للذاكرة لدى بروست واستعمال التنافرفي الاصوات وعدم التوافق في الالحان في موسيقى سترافينسكي وسكونبرغ والرسم الهندسي في الفن المجرد واستعمال التحريف والتشويه والاسلبة لرسم ماهو غريب وخيالي كما هو الحال لدى بيكاسو وماتيس وايبستين ، الا اعراضا لصرعة مرضية عصبية وانعكاسا للعنف وتصدعا في حضارة العصر .

ان التأثير الخانق للثقافة ذات البعد الواحد والمبادىء الاساسية الخانقة للاخلاق المكتبية والاندفاع الشديد المرهق للنفس للالة المتسارعة دوما قد اسهم دون شك في الخاصية الانفجارية المرضية للعصر الحاضر. ان اختفاء الناس وتصفيتهم في روسيا الستالينية والمانيا النازية والاستجابة للقتل الجماعي بصرعة مناسبة التي تم اطلاقها سواء في الحرب العالمية الثانية ام في الحروب التالية والتي تم اطلاقها بفضل التكنولوجيا يمكن ان تمثل احسن تمثيل انتفاضة الانسان الغريزية ضد الالة وقد اكتشف ستينر Steiner في هذه النزعة التدميرية اندفاعة نفس مصدومة ومحاولة للهروب من قيد غاشم لوضع لا يطاق من الازدحام ، ان تجربة القرن العشرين من التدمير بالجملة البشري منه والمادي ، ليس دليلا على عدم معقولية الالة الاجتماعية فحسب بل ايضا دليل على حاجة الانسان البائسة الى مدى حر لينجو من حكم التقنية المستبد ، ان عدوانيةالانسان التقني هي على الاقل في بعضها نوع من التحرر النفسي ورد فعل موجه الى مستوى من الاحباط متصاعد ولايطاق البتة .

وبهذا المعنى فان ايديولوجية الحرب الباردة التي طورتها القوتان العظيمتان يمكن النظر اليها على انها جهود ذات صفة مؤسساتية لدى

النخبة فيهما لتعبئة الطاقات العدوانية عند رعاياهما التي لايمكن ان تصب في اقنية حياة مجتمعاتها الوطنية ؛ ان بناء مركبين صناعيين عسكريين دائمين يحقق هذا القصد في حين انه يسلط الانوار على الطاقة الضائعة والهدامة التي ترافق نمو القوة التقنية بصورة محققة ـ ان هولهماومداهما البعيد ودوامهما قد قلل على نحو بالغ عتبة الفهم الانساني ؛ ان التأثير الشال للتكنولوجيا المدمرة قد جعل التقبل المتزايد لأكثر الاعمال الوحشية قساوة ولأكثر اعمال العنف غرابة والتسامح ازاءها امرا ممكنا وعلى الرغم من ان جميع الامريكيين تقريبا كانت اتحيت لهم وهم في غرف جلوسهم ذاتها المعلومات تفصيلا عن الفظائع الوحشية التي ارتكبها جندهم في الحرب الفيتنامية ، فان عددا صغيرا نسبيا فقط بدا قادرا على فهم وادراك فداحة الجرائم المرتكبة ، هذا ومن الناحيةالاخلاقيةوالسيكولوجية فقد تم تحييد القتل والتعذيب بواسطة ترتيب واقعي للحقائق وباضفاء الصفة العقلية بدقة على ذلك الشيء الذي قلما يبدو مقبولا في الواقع .

ان الاشارات اللطيفة العابرة الى العقلانية والواقعية تؤدي في الحقيقة الى اخفاء حالة من السخرية السياسية الاجمالية الى حدما فافشاء أسرار اوراق البنتاغون له معنى بالغ لا لانه يكشف الطبيعة الحقيقية للسياسة الامريكية التدخلية او يقلل من اهمية الحجة المنطقية المقدمة لتبرير عدم التمييز في الحرب وحسب بل لانه بصورة مبدئية يسلط الانوار على استخدام الكذبة الكلية الشاملة من قبل الدولة الديكتاتورية اذ انها توضح وظيفة تقنية الاعلان في التلاعب بالراي العام والعقيدة وبهذا المعنى فان الايديولوجيا تشير ببساطة الى انحطاط الاخلاقية العامة الى انحطاط يفسره البراغماتيون والواقعيون من الناحية الظاهرية بانه مؤشر ودليل على التقدم والرفاه المادي وفي الحقيقة اصبحت الايديولوجيا جزءا متمما من النظام الاجتماعي الذي تبرره وتظهره على انه افضل العوالم الممكنة وبهذا الاعتبار فان مانحتاج اليه فقط هو الاستشهاد بالسخافات العقلية التي تزود التفكير الستراتيجي بتوجيهة من الواقعية في التفكير والعلم الزائف والتحريف الناضج للوقائع التي تنشد الحكومات بواسطتها

اقامة التضاد بين دوافعها الخاصة الظاهرة الذيل وبين النوايا الشريرة لدى العدو ، وماتمانيه حينئذ ليس نهاية الايديولوجيا وانما اخماد او تتفيه تلك المعتقدات التي يمكن ان تعمل بمثابة روافع لتحول المجتمع . والنتيجة النهائية هي ايديولوجية اللاايديولوجيا الموضوعة لتبرير نظام من القمع بغية انتاج الدرجة المطلوبة من التطابق .

وتصور المجتمع مابعد الصناعي . التقني الصرف والعملي والمجرد من الايديولوجيا قد لاقى تشجيعا الى حد بعيد من قبل التقني في دولة الرفاه ومن قبل العالم الاجتماعي الذي لا يعنى بالبحث عن القيم وعن الامتياز المهدد بل يعنى بالتعديلات التقنية للنظام القائم التي تحسن فعاليته وتمشي على جوره وظلمه ـ ولايسع الفني او العالم الاجتماعي ان يذهب ابعد من الهندسة الاجتماعية الحدية ويشغل نفسه في بحث متطرف لانه يعرض بصورة محققة مركزه الطارف من حيث الاعتبار والطمأنينة والوفرة للخطر، ولاعجب ان الكثير مما اعتبر علما وبحثا موضوعيا ظهر فيما بعد انه علمية زائفة وفلسفة ريبيه ، وقد نشأت حديثا معارضة علنية لتفسير العلوم الاجتماعية بوصفها مجموعة من التقنيات البيروقراطية تؤدي ادعاءاتها المنهجية ومفاهيمها المبهمة الظلامية الى التعتيم او تتفيه اكثر القضايا توهجا في الطور الحاضر لثورة الانسان الثقافية والاخلاقية وان مايدعى بالموضوعي والقيمة الخالصة لا يدرك منه الملاحظ العلمي الا التوجيهة فقط وان هذا المراقب اذ يلاحظ ويدون حقا سلوك الناخب والقائد السياسي او الفصامي ليبرهن على النموذج العام الذي يعمل وفقا له هو نفسه فان ذلك يؤدي الى فرض قيود هائلة ضد التفرد والحقيقة والتماسك النفسي لما هو مدرك ، وان يرفض الدخول الى حياة الشخص الانساني وان يتعاطف ويتمثل بوصلته السيكولوجية والاخلاقية يعني احالته الى شيء بعيد مبهم لايسبر غوره ولامعنى له الا بما ينسب اليه من الملاحظ .

ان المفهوم التبسيطي الذرائعي وحتى الكمي للعلم الاجتماعي يؤثر في النهاية بالتقليل من اهمية الفعالية الواعية الهادفة والمبدعة وبتجريد

الانسان من بيئته الطبيعية والاجتماعية الحيوية وبتحديد دور منفعل له ضمن النظام الاجتماعي القائم الذي تحول الى مجموعة قوى لاشخصية متباينة ومعادية .

ان هذا الطراز الميكانيكي للمجتمع يبرر النظام العلمي والتقني ويضفي عليه الصفة العقلانية كما يعزز اندماج الفرد فيه فلا يمارس الا قليلا من التأثير او ان تأثيره يكون معدوما وحينئذ تصبح السياسة مجرد ضابط ميكانيكي لتوطيد هذا النظام « الطبيعي » بدلا من كونها وسيلة للتسامي والتحول . ان الذرائع العلمية والعقلية شأنها في ذلك شأن الاوضاع السياسية والثقافية التي ابدعها المجتمع التكنوقراطي تبدو هكذا باعثة على الحركة في نظام اجتماعي ذاتي الديمومة وعلى الرغم من ان استنتاجا كهذا قد يكون مبتسرا لاننا الى الان قد قيدنا انفسنا بتفحص النزعات السائدة الفاعلة ضمن الثقافة الصناعية ، وبما اننا لم نناقش الدفع القوي الذي يمكن لهذه النزعات ان تطلقه فانه من الواضح ان ذلك الامر يجب ان يؤخذ بالحسبان في نشوء تطورات ثقافية وسياسية تدل على اتجاهات مختلفة جدا ، ومع ذلك يجب قبل الكشف عن هذه المضامين الممكنة لاكثر هذه الاتجاهات الوضعية ان تستكمل بحثنا لمختلف اللاتوازنات في العلاقات الانسانية المعاصرة وتشعباتها الاقتصادية والبيئوية والعسكرية .

ملف خاص عن
غابرييل غارشيا ماركيز

اعداد : كمال فوزي الشرابي

لاشك في ان الروائي الكولومبي غبرييل غرثيا مركيز يعتبر اليوم من اشهر الكتاب في العالم . فالمقال الذي ينشره ، كل يوم احد ، في « إل اسبكتادور » ببوغوتا تتناقله اكثر من عشرين صحيفة في شتى انحاء المعمورة انه لكاتب تقدمي وانساني ، لعل اجمل ما لديه براعته في الكتابة والسرد . من اشهر اعماله : « مئة عام مـن العزلة » ـ وقد ترجمت الى العربية ـ ، « خريف البطريرك » ، « لا رسالة للكولونيل » ، « مأتم الجدة الكبيرة » ، « قصة غريق » ، « الحكاية الغريبة الحزينة لايرنديرا الطيبة وجدتها الشيطانة » ـ ترجمت مؤخرا الى العربية ـ ... وبعد ظهور روايته الاخيرة « وقائع موت معلـن » حادثا عظيمـا في الادب المعاصـر . وفي الصفحات التالية نقدم ملفا خاصا عـن هـذا المؤلف العبقري العالمي تحية وتقديرا لفنه والتزامه بهموم شعبه وشعوب العالم الثالث .

يحوي الملف المواد التالية :

١ ــ حديث هائل عن الموت (دراسة) .
٢ ــ المسيرة الطويلة نحو ماكوندو (دراسة) .
٣ ــ الشعر في متناول الجميع } مقالتان لغبرييل غرثيا مركيز
٤ ــ قصة الرواية
٥ ــ آخر مقابلة مع غرثيا مركيز (كانون الثاني ١٩٨٢) .

حديث هائل عن الموت

دراسة اولى لاعمال غبرييل غرثيا مركيز

بقلم : جاك جيلار

تتصف اعمال غبرييل غرثيا مركيز بأنها ذات وحدة فذة ، وذلك منذ حكاياته وقصصه الاولى ، ومقالاته في زاوية « الزرافة » ، حتى روايته الاخيرة « وقائع موت معلن » . ويدرك القارىء المتعمق في اعماله ان غرثيا مركيز مابرح ينتج ، منذ ايلول ١٩٤٧ ، حديثا هائلا عن الموت .

الحياة قصيرة
ومهما تكن الساعات طويلة طويلة
فان اعجوبة مظلمة تترصدنا
هي الموت ، هذا البحر الآخر ، هذا السهم الآخر
الذي يحررنا من الشمس ، والقمر ،
والحب .

الشاعر الارجنتيني الكبير
خورخيه لويس بورغيس

صدرت الرواية الاخيرة لغرثيا مركيز ، وهي بعنوان « وقائع موت معلن » ، في ٢٨ نيسان ١٩٨١ ، وذلك في كل من بوغوتا وبوينس آيرس وبرشلونة . طبع منها في كولومبيا مليون ومئة وخمسون الف نسخة ، وفي الارجنتين واسبانيا مليون . وبعد بضعة اسابيع اعيد طبعها في كولومبيا . وحتى نهاية عام ١٩٨١ ترجمت « وقائع موت معلن » الى اثنتين وثلاثين لغة . مثل هذا الرواج لا سابقة له في تاريخ الطباعة ، وهو فريد بخاصة في تاريخ آداب اللغة الاسبانية . ولقد شكل ظاهرة شعبية هائلة في كولومبيا ، مسقط راس المؤلف .

يقول غرثيا مركيز معلقا على ماسبق : « انا مسرور لاني اقدمت على طبع روايتي الاخيرة بهذا العدد الكبير من غير ان اضحي بشيء من قيمتها الادبية » .

ولتصريف هذا العدد الاسطوري في امريكا اللاتينية ، لجىء الى توزيع الرواية الجديدة على اوسع نطاق : ان تباع فقط في المكتبات ، وانما في اكشاك البيع والمتاجر الكبيرة ايضا .

ويتابع غرثيا مركيز : « لقد اصبح ذلك ممكنا بسبب المزايا الخاصة لهذه الرواية اذ انها تحوي كثيرا من المقومات التي تتيح لها ان تفوق بشعبيتها شعبية سابقاتها » .

وقد زاد البيع منها ، بطبعتها الاسبانية فقط ، على جميع مابيع من روايته الشهيرة « مئة عام من العزلة » .

ويعقب غرثيا مركيز : « استطاع النقد ان يكتشف ظاهرة جديدة وفريدة في اللغة الاسبانية هي ظاهرة الكتاب ذي البنية الادبية الذي يباع بشكل جيد ، ويصل الى ان يكون شعبيا . لا ادري لماذا كانت دائما لدى المثقفين نزعة تعتبر ان الكتاب الرائج ليست له قيمة ادبية ، والعكس بالعكس » .

وكان قد سبق للمؤلف ، امام النجاح الكبير الذي لاقته رواية « مئة عام من العزلة » ، ان دافع بحرارة عن روايته « خريف البطريرك » التي كلفته سبع سنوات من العمل الدؤوب . يقول : « اعتقد ان نجاح « مئة عام من العزلة » يعود الى ان قراءتها اسهل ، ولكن في « خريف البطريرك » ثمة عمل كثير للنقد ، بالاضافة الى عدد كبير من مفاتيح امريكا اللاتينية» .

عودة الى البداية

في عام ١٩٥٥ لم يطبع بوغوتا من رواية « الاوراق الذابلة » سوى الف نسخة ، وهي اول رواية لصحفي شاب اسمه غبرييل غرثيا مركيز ، اشتهر على الصعيد القومي بتحقيقاته الصحفية المتسمة بالجودة والجراة . كتب غرثيا مركيز مؤخرا في العمود المخصص له في « الى اسبكتادور » ببوغوتا : « قضيت خمس سنوات ابحث عمن ينشر روايتي الاولى ، واخيرا عثرت على ناشر هاو فقير لا يطلك شروى نقير ، وكان قد لاذ بالفرار هربا من دائنيه » . اما اليوم ، فلا يمكننا التحدث عن غرثيا مركيز وعن اعماله من دون ان نشير الى الطابع الخاص لهذا المجد الكبير الذي لم يؤخذ به غرثيا مركيز الكاتب ، والذي فضل غرثيا مركيز الانسان ان يضعه في خدمة اغراض غير شخصية الى حد كبير . كتب في الخامس من نيسان ١٩٨١ ، في فترة من الفترات السيئة : « لن اسمح لنفسي ابدا في الفترات الحسنة ولا في الفترات السيئة ان تنسى انني لست سوى احد الابناء الستة عشر لعامل البرق في قرية اراكاتاكا . من هذا الوفاء الى اصولي يتفرع كل مابقي : طريقة وجودي ، قدري الادبي ، نزاهتي السياسية » .

لا ؟ ما اعيه هو ان ماحدث جعلني ادرك
بانني كنت دائما وحيدا ، وان المرء دائما وحيد
فليس الامر ببساطة هو انهاء علاقة ما
ولا حتى اكتشاف انها لم توجد ابدا
بل هو انقشاع حقيقة علاقتي بكل الناس

لا ليس ذلك ما ابغيه ان اكون وحيدا
انما هو توحد كل انسان ــ او هكذا يخيل لي
انهم يضحجون ويحسبون انهم يتحادثون
يتقابلون ويحسبون انهم يتفاهمون
وانا على يقين ان الامر غير ذلك .
فهل ذلك وهم ؟

الصحافي والوجه السياسي

كانت الصحافة مهنة غرثيا مركيز على الدوام ، لاينساها حتى في الاوقات التي يستأثر به الادب فيها ، اضف الى ذلك انها كانت تؤمن له وسيلة عيش ترد عنه غائلة العوز .

بدأ غرثيا مركيز بالكتابة في ايار ١٩٤٨ في صحيفة يومية تصدر في قرطاجينا باسم « إل اونيفرسال » ، وكان على وجه التقريب محررها المجهول خلال ثمانية عشر شهرا . في نهاية عام ١٩٤٩ استقر في بارانكيليا هناك اخذ يحرر في « ال هيرالدو » زاوية هزلية للوقائع اسماها «الزرافة» وكان يوقع مقالاته باسم «سبتيموس» .

صدرت اول مقالة في زاوية « الزرافة » في ٥ كانون الثاني ١٩٥٠ . واستمرت المقالات في الصدور بشكل يومي تقريبا حتى شباط ١٩٥١ . ثم رجع غرثيا مركيز الى قرطاجينا ، ولم يعد اسهامه منتظما . توقفت « الزرافة » في الثاني من تموز ١٩٥١ لتعود الى الظهور في الثامن من شباط ١٩٥٢ حين رجع غرثيا مركيز مرة اخرى الى بارانكيليا . وبدءا من هذا التاريخ لم يعد يكتبها الا عرضا ليتوقف نهائيا في كانون الاول ١٩٥٢ . ومن غير ان نشيد بمحاسن « الزرافة » الضاحكة التي احتفظت بنضارتها بعد اكثر من ثلاثين عاما ، نحب ان نشير الى ان هذه الزاوية

تحوي عددا من النصوص الصغيرة الاساسية لفهم ما ستكون عليه الاعمال الادبية لغرثيا مركيز .

في عام ١٩٥٣ عمل غرثيا مركيز لفترة من الزمن وكيلا تجاريا متنقلا، ثم اصبح ، في شهر تشرين الاول ، رئيسا لتحرير صحيفة يومية تصدر في بارانكيليا هي « إل ناسيونال » وكانت تنشر اخبارا مثيرة ، فكان الباعة ينادون في شوارع المدينة مثلا : « إل ناسيونال مع صورة الميت ! » . لم تدم هذه التجربة الا اقل من ثلاثة اشهر لم يوقع غرثيا مركيز اي سطر كتبه فيها .

في عــام ١٩٥٤ عمل محررا في احدى الصحيفتين الكبيرتين اللتين تصدران بكولومبيا وهي « إل اسبكتادور » ببوغوتا . في البدء قام بمهمات مغفلة ، ولكن طريقته في الكتابة كانت تنم عليه في عدد كبير من مقالات زاويته الهزلية الضاحكة « يوما بعد يوم » . ثم اخذ يكتب نقدا سينمائيا اسبوعيا هو الاول من نوعه في كولومبيا ، ويوقعه بالاحرف الاولى مــن اسمه فقط . وفي تموز ١٩٥٤ قام بأول تحقيق صحفي له وكان ضربة معلم . منذ ذلك التاريخ اصبح احد اهم المحققين الصحفيين في كولومبيا، وذلك من غير ان يتخلى عن مقالاته المغفلة من التوقيع ولا عن نقده السينمائي .

في تموز ١٩٥٥ ارسلته « إل اسبكتادور » الى اوروبا . ولم تلبث السلطات العسكرية في بوغوتا ان اغلقت الصحيفة فوجد غرثيا مركيز نفسه في ارض باريس (نيسان ١٩٥٦) . وبدءا من ايلول ١٩٥٦ أتاحت له بضع مقالات ارسلها الى مجلة اسبوعية بفنزويلا ان لا يقضي جوعا .

بعد رحلة الى البلدان الاشتراكية (صيف ١٩٥٧) واقامة قصيرة بلندن ، عاد غرثيا مركيز الى امريكا الجنوبية في شهر كانون الاول ١٩٥٧ حيث عمل في كاراكاس محققا صحفيا لمجلة « مومنتو » الاسبوعية ، ثم منسقا لمختلف انواع المنشورات في « سلسلة كابريل » .

بناء اليسار الامريكي اللاتيني

في عام ١٩٥٩ عاد الى بوغوتا حيث اسهم في تأسيس قناة « برنسا لاتينا » وهي الاذاعة التي انشأتها الثورة الكوبية . ولقد اظهرت مغامرة « برنسا لاتينا » نوعا آخر من نشاطاته ، وهو ان يمارس عملا صحفيا مختلفا يتسم بالمعارضة . وكان وقته يسمح له بأن يسهم في ادارة مجلة فصلية ممتازة هي الـ « أكسيون ليبيرال » ، وهي محاولة لتقوية الالتحام في صفوف اليسار الكولومبي ، ولكنها لم تدم الا قليلا .

بعد رحلة الى هافانا ثم الى نيويورك ، ترك غرثيا مركيز « برنسا لاتينا » في حزيران ١٩٦١ ، واستقر في مكسيكو حيث عمل في الصحافة وواصل بالسينما . وتعتبر السينما نشاطا رئيسا لديه ، بالاضافة الى الادب والصحافة والسياسة .

نعود قليلا الى الوراء لنشير الى جانب هام من جوانب شخصية غرثيا مركيز ، وهو اهتمامه على الدوام بكل عمل لا علاقة له بالالتزام الديني . فمنذ ان كان طالبا ثانويا لدى يسوعيي سان خوسيه بباراتكيليا قرر ان يكتب ، ثم قرر ان يصدر مجلته الخاصة حين انتقل الى المعهد القومي بزيباكويرا . وحوالى العام ١٩٤٧ تعهد الملحق الجامعي لصحيفة تصدر ببوغوتا من غير ان يكتب فيه شيئا . في عام ١٩٥٠ انشأ مع اصدقائه بباراتكيليا صحيفة اسبوعية صغيرة تحمل اسم « كرونيكا » ، وظل رئيس تحريرها خلال ثمانية اشهر تقريبا . في ايلول ١٩٥١ اصدر « كومبريميدو » وهي « اصغر صحيفة في العالم » ، ولم يتمكن الا من اصدار عددين منها فقط . وكانت ، كما وصفها ، « اكثر الصحف تجريدا » .

بعد ان وافته بالشهرة ورغد العيش روايتاه « مئة عام من العزلة » و « خريف البطريرك » ، تأكدت لديه شخصية الرجل السياسي المطبوع، اذ كانت موهبته الطبيعية قوية آسرة ، وكان يحسن الاختيار ، ويعالج

الامور بفلسفته الذرائعية وقوة اقناعه . وهكذا نرى المخبر الصحفي القديم ، الذي كان يسهم في العمل بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٥ على ارفع مستوى مع الحزب الشيوعي الكولومبي السرّي ، وقد اصبح سفيرا خفيا للقضايا الانسانية والتقدمية في امريكا اللاتينية والعالم الثالث ، كل ذلك وهو يجهد في جمع قوى اليسار ببلاده وبنائها . في تلك الفترة ظهرت المجلة الاسبوعية « التيرناتيفا » (١٩٧٤ — ١٩٧٩) فقدم اليها دعمه المادي والادبي ، وعاد الى نشاطه في التحقيقات الصحفية والمقابلات (التي نشرتها التيرناتيفا ، والتي كانت تنقلها عنها كبريات المجلات والصحف في العالم) حيث التقى بكاسترو وتوريخوس ونيتو وميتيران وارتبط بصداقة مع كـل منهم . وفي تلك الفترة اتم تمويل وانشاء مؤسسة « هابياس » ، واجرى مساعي مع البابا وملك اسبانيا . وفي تلك الفترة ايضا كان يحتج باستمرار على « نظام الامن » الذي صدر في كولومبيا في السادس من ايلول ١٩٧٨ ، بعد ثلاثين عاما من تطبيق الاحكام العرفية بشكل متواصل في بـلاد تدنى فيها المستوى الاخلاقي واختل توازنهـا الاقتصادي بنتيجة الغزو المتمادي لمهربي المخدرات .

هذا النشـاط ، الذي قام به بعد حرب فييتنام وبعد قضية ووترغيت وفي اثناء رئاسة كارتر ، كان يجب ان يوجهه وجهة جديدة منذ انتخاب ريغن ، وهكذا اصبحت اوروبا ، لفترة من الزمن ، الميدان الاساسي لهذا النشاط ، علما بان غرثيا مركيز كان دائما اكثر من متشكك في قيم اوروبا وامكاناتها .

ومنذ اذار ١٩٨١ ، وبعد ان شعر بان عسكريي بلاده يهددونه ، اعتبر نفسه ممنوعا من الاقامة في كولومبيا ، وكان رحيله الى المنفى حادثا قوميا هاما . ومع انه منفي فلقد ظل حاضرا اكثر من اي وقت مضى ، لا لان روايته الاخيرة « وقائع موت معلن » سجلت نجاحا شعبيا حاسما ، بـل لانه اصبح كاتب الافتتاحيات في « ال اسبكتادور » . فمنذ اب ١٩٨٠ ،

وفي الصفحة الثانية ، هناك عمود « غابو » الذي يتحدث ، كل يوم احد ، عن كل شاردة وواردة ، عن السياسة والادب ، عن البشر والاشياء ، ويروي قصصا وحكايات حقيقية او مغلوطة ، تتصف بقسوة الشوك ووخزه او تقطر بماء الحنان والحنين الى الوطن .

انها عودة الى زمن « الزرافة » ، ولكنها عودة اغتنت بثلاثين عاما من الكتابة والتجارب . يستطيع المرء ان يفضل صحافة الامس ، ولكن تبقى قراءة عمود « غابو » سحرا اسبوعيا لاغنى عنه . وهكذا اصبح غرثيا مركيز من جديد كاتب المقالات الذي يقرؤه اكبر عدد من الناس في بلاده وفي عالم اللغة الاسبانية اذ تتداول مقالاته كبريات الصحف في اسبانيا وامريكا اللاتينية .

المواطنية العالمية لجزر البحر الكاريبي

تنشر اعمال غرثيا مركيز في العالم القيم الانسانية لمنطقته الاصلية الممتدة على شاطىء المحيط الاطلسي من كولومبيا ، كما تنشر بشكل اوسع قيم الثقافة الافرو ــ اسبانية والمواطنية العالمية لجزر البحر الكاريبي . هذه الاقليمية ، ذات الصوت الكوني والتي ظهرت منذ نهاية الاربعينات ، تتغلغل في وعي العالم الثالث والحركات الناهضة للاستعمار التي برزت بعد الحرب العالمية الثانية .

هذه من جهة ، ومن جهة ثانية فان غرثيا مركيز ساحلي ، والساحل متأخر له مطالب كثيرة عادلة ، لذلك اعلن بلسان هذا الساحل طريقته الخاصة في الحصول على حقوقه تجاه كولومبيا الاندينية ، وتجاه بوغوتا العاصمة « اثينا امريكا الجنوبية » ، وتجاه حالات الحرمان الثقافي والسياسي التي وردت من الخارج .

الالتزام وعزل بعض الاعمال

يتمنى غرثيا مركيز ان يضع بين قوسين الكتابات التي تتجاوب مع الفترة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩ . ومع ان روايته « الساعة الرديئة » قد نشرت فيما بعد فانها ترتبط بهـذه الفترة . ونعني بهـذه الكتابات « لا رسالة للكولونيل » وبعض الحكايات التي وردت في مؤلفة « ماتم الجدة الكبيرة » . انه يأخذ على هذه الاعمال بنيتها العقلانية وتصميمها الادبي المتعمد . ويؤكد « ان الكاتب الذي يكون لديه شيء يقوله لايلتزم فقط تجاه الواقع الاجتماعي والسياسي في وطنه ، بل تجاه الواقع في العالم بأسره من غير ان يزدري اي مظهر من مظاهره » .

قد تكون في هذا التمني لهفة كاتب عجول وحكم غير منصف بحق « لا رسالة للكولونيل » . ولعله معيار غير مؤكد مادام غرثيا مركيز قـد اعتبر ، لفترة طويلة ، ان احسن حكاياته هي « قيلولة الثلاثاء » التي هي ايضا انقى مثال لطريقته في تلك الفترة . وفي الواقع فان هذه الكتابات تتميز ، بالنسبة الى جميع اعماله ، بالتزامها وذلك بالمعنى الذي كان يعنيه الالتزام منذ ثلاثين عاما . وهي لاتشكل كتلة واحدة منفصلة عن بقيـة الاعمال . اما الجمالية التي يمكن للكاتب وللاخرين ان يقيموها فهي مسألة اخرى ، ذلك ان الاجوبة قد تتنوع : ففي نظر البعض تأتي « لا رسالة للكولونيل » مثلا في مرتبة من الجودة لاتقل عـن مرتبـة « مئة عام مـن العزلة » .

واذ يقيم غرثيا مركيز هذا العزل او هذا التمييز فانه يعتقد بأنه يمحو عناصر غير قابلة للنقاش في تطوره ، ويروج لبعض التيارات العميقة التي تعبر اعماله . انه لمظهر في الواقع اكثر سطحية ، ويرتبط بنوع من الالتزام يؤمن له مبررا لاستبعاد بعض كتاباته .

منذ حكاياته واقاصيصه الاولى التي تتسم بحضور طاغ للموت والتي تتميز بنبرة هائلة (اتته في الواقع من قراءة كافكا ، وخصوصا روايته

« المسخ ») ، نلاحظ الموضوع الذي سيتفتح في « مئة عام من العزلة » : الاسرة اللعينة التي تعجز عن مسايرة الزمن فلا يلبث هذا الزمن ان يهدمها في النهاية . واكثر حكاياته تمييزا هي الحكاية الثانية التي ظهرت في تشرين الاول ١٩٤٧ بعنوان « ايفا في داخل قطتها » : صبية ارستقراطية جميلة معتلة ، تتحول الى « روح صافية » في ليلة ارق تقضيها وحيدة في الدار الكبيرة للاسرة . وحين تريد ان تتقمص ثانية في قطها لتكمل وجودها على هذه الارض ، يستحيل ذلك عليها لان ثلاثة الاف سنة قد انقضت في هنيهة واحدة منذ لحظة تحولها ، ولان دارها لم تعد سوى ركام من التراب والزرنيخ . هذا الترسيم للعجز التاريخي الذي يصيب سلالة ما موجود ايضا في حكايات اخرى ظهرت في المرحلة الاولى كحكايتي « توبال ـ قايين يصطنع نجمة » (كانون الثاني ١٩٤٨) و « الجانب الاخر للموت » (تموز ١٩٤٨) .

سلبية التاريخ

الى جانب التعليقات الهزلية الضاحكة على مختلف الوقائع اليومية كان الصحفي المبتدىء يوقع بضعة نصوص تتصف بالطابع الادبي الصافي ، والاسلوب المشوق ، وتؤلف اضافة الى حكايات تلك الحقبة ، كما انها تزيدنا علما بالطرائق التي كان غرثيا مركيز يكتشفها . ان الحكايات التي ظهرت في « ال اونيفرسال » قرطاجينا تشير ، ببعض التأكيد ، الى قضية الاسرة في مجابهة الزمن العابر (انظر « الليل الحيواني او الزوولوجي ») ، ولكننا نعثر في « الزرافة » بـ « ال هيرالدو » بارانكيليا على موضوع اكثر وضوحا يتعلق بالاسرة والبيت اللذين يدمرهما مر السنين . والواقع ان غرثيا مركيز كان يحاول في تلك الحقبة ان يكتب رواية بعنوان « البيت » ، وهي خطوط اولى وفشل مبدئي لما سيكون فيما بعد « مئة عام من العزلة » والحكايتان اللتان كتبهما في تلك الفترة ، في بارانكيليا ، تدوران ايضا حول الاسرة والبيت المحكوم عليهما بالخراب ، وعنوانهما « احدهم يزعج هذه الورود » (كانون الاول ١٩٥٠) و « نابو الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر » (اذار ١٩٥١) .

عنصر آخر ظهر ايضا في نصوص « الزرافة » وهو القرية التي ستأخذ تدريجا سمات قرية ماكوندو في روايتي « الاوراق الذابلة » و « مئة عام من العزلة » . في هذه النصوص الاولى تظهر القرية غير قادرة ايضا على تحمل جريان الزمن . انها تتجمد بعد ان حكم عليها ركودها بالبلى والخراب ونلاحظ ان غرثيا مركيز حاول ان يجعلها في بعض الظروف تتطور ، ولكنها لم تنج مع ذلك من الهلاك . وهكذا ينتهي المرور من القرية الى المدينة برؤيا قيامية سابقة لما كوندو ، او تتدخل الامبريالية بحضورها لتظهر ان هذا التطور معيب منذ البداية .

اما فيما يتعلق بموضوع البطريرك وشخصيته فانه موجود ايضا فيما يسمى بالحقبة الثانية للحكايات (بدءا من عام ١٩٥٠) ، وفي بعض النصوص القصصية المدرجة في « الزرافة » . لم نذكر حتى الان الا ماسبق « مئة عام من العزلة » من هذه الكتابات ، على ان البطريرك يرتسم في هذه الرواية ايضا ، ومن هنا نرى ان اروع روايتين كتبهما غرثيا مركيز مرتبطتان جدا بأصولهما . ونستطيع ان نجازف بالقول ان هذين الكتابين ونعني بهما « مئة عام من العزلة » و « خريف البطريرك » كان من الممكن او من الواجب ان لايكونا الا كتابا واحدا .

ان الزائر عامل كثير الحضور في النصوص التي ظهرت منذ عام ١٩٥٠ ويبدو ان غرثيا مركيز كان يبحث عن رفع الحصار عن جماعاته العائلية والقروية بادخال عنصر غريب . فمن حكاية « كيف يقوم ناتا نائيل بزيارة » (ايار ١٩٥٠) الى حكاية « رجل يصل تحت المطر » (ايار ١٩٥٤) ، مرورا بعدد من مقالات « الزرافة » ، نجد تطورا لموضوع الزائر الذي قد يكون مخلصا ايضا .

يأخذ الزائر احيانا السمات الطبيعية للجنرال اوريبه . اوريبه ، الزعيم المتحرر للحروب الكولومبية الاخيرة . ان يأس الاخرين هو الذي يضفي على هؤلاء الغرباء صفات المنقذين . ويبدو ان غرثيا مركيز كان

يعتقد في البدء بهذه الامكانية ، ولكن توالي النصوص يشير ان هذه الطريق هي على الدوام طريق الحرمان . فالزوار الذين اراد ان يتخيلهم (لربما بتأثير الزعامات السياسية في امريكا اللاتينية ؟) يظهرون له في النهاية انبياء مزيفين لاإراديين . انها الصور الاولى للشيخ المثير للشفقة في « خريف البطريرك » ،هذا الشيخ الذي حوله مواطنوه الى ديكتاتور على الرغم منه.

وهكذا يبلغ غرثيا مركيز فكرة استحالة التاريخ . في هذه الاعمال ، وحتى عام ١٩٥٥، نجد انسانية ضالة لاامل لها، ولاشيء ولا احد يستطيعان ان يقوداها الى ان تحيي زمن التاريخ ، وذلك لمجرد انها لاتؤمن بقيمها الخاصة . وهذا ماينعكس في « مئة عام من العزلة » وفي « خريف البطريرك » . ويعلن آخر سطر في « خريف البطريرك » نهاية زمن الابدية. ومن هنا يجب ان نستنتج انها ولادة الزمن التاريخي ايضا ، ولكن الرواية تتركنا عند عتبة هذا التاريخ الذي يصل بمفرده ، وذلك من دون شك لان الابدية ذاتها لها نهاية (ظهرت هذه الفكرة في الفقرة الاخيرة من حكاية « مأتم الجدة الكبيرة » التي كتبها غرثيا مركيز عام ١٩٥٩) .

قصيدة الاسرة ـ البيت ـ القرية /الزمن المدمر

على ان غرثيا مركيز كان قد بدأ ، قبل عام ١٩٥٥ ، بتصور امكانية التاريخ ويتصور انسانية قادرة على ان تريد وتكتشف خلاصها بنفسها . ظهر ذلك في اعماله بين عامي ١٩٥٦ ــ ٥٩ ، تلك التي ينكرها الى حدما ، معتبرا انه قد ضل فيها قبل ان يهتدي الى حقيقته الخاصة في « مئة عام من العزلة » وفي « خريف البطريرك » . ومايعتبره انحرافا انما ينبع مع ذلك من موضوعاته الخاصة . كان ينقص عالمه ارادة فاعلة فادخلها فيه ، بدءا من عام ١٩٥٦ ، بأعماله التي ترتبط بالقضية القومية الكبرى ونعني بها قضية « العنف الكولومبي » .

يضاف الى ذلك ان دراسة لمقالاته الصادرة في الاعوام ١٩٥٠ ــ ٥٥ تعلمنا ان اول رواية لـه في مرحلـة ١٩٥٦ ــ ٥٩ ، وهي « لارسالـة للكولونيل » ، تكشف عن وضوح يفوق ماكان غرثيا مركيز يريد ان يعترف به . ومنذ ١٩٥٢ تحمس للسينما الايطالية ذات الاتجاه الواقعي الجديد . وفي عام ١٩٥٢ اشار في مقال قصير الى انه قد فكر ، بكثير من الجدية ، في الطريقة التي يستطيع بها ان يدمج « العنف » بالروايات ذات الطابع الخيالي. وفي عام ١٩٥٤ عالج في تحقيق صحفي ممتاز، مصير الكولومبيين الذين اسهموا في حرب كوريا ، وطرح قضية حياة المحاربين القدماء في جميع الحروب . وعلى مدى هذا العام نشر كتابات نقدية حول بضعة افلام من الموجة الواقعية الجديدة ، وبين تحليله لفيلم امبرتود . ، في عام ١٩٥٥ ، انه لايستطيع من دون مالتباس ، ان يبدأ بكتابة « لارسالة للكولونيل » . والواقع انه كان يتجه في طرق عديدة نحو هذا الانتاج الادبي ، وقد ظهر له خطأ هذه الطرق فيما بعد .

تكشف الحكايات والمقالات الصحفية عن هذا التساؤل حول الزمن والطريقة التي يمكن ان يعاش بها . لم يكن غرثيا مركيز يعتقد ، في ذلك العهد ، بوجود التاريخ او بامكانيته . الزمن يمر ببساطة ، وبعد عصر ذهبي اولي يبلي الاشياء والكائنات لضي يخرب ويدمر ويقتل في النهاية .

هذا التساؤل حول الزمن وجد صدى ، باجابته السلبية آنذاك ، حتى في مشاغل غرثيا مركيز الصحفية . واشار مغزى مقاله الاول الى حالة الحصار والتدمير في « العنف الكولومبي » ، كما اشار ايضا الى الحروب الاهلية في القرن الاخير . ويشعر المرء بان غرثيا مركيز على اقتناع بان السنوات لم تغير شيئا في مشكلات الماضي ، وان كل شيء يمر كما لو ان التاريخ لا وجود له مادامت البلاد على مدى نصف قرن لم تتجدد . ان هذا التحليل المتحرر من الوهم والخطأ لفترة من التاريخ الكولومبي انمـا يشكل اعلانا من اعلانات العجلة التي تدور حول ذاتها حتى انهيار محورها، تلك هي الصورة المركزية لـ « مئة عام من العزلة » .

في عام ١٩٥٠ ، اي في المرحلة التي ظهر فيها بشكل خصب موضوع « الاسرة ــ البيت ــ القرية / الزمن المدمر » في كتابات غرثيا مركيز ، كان اديبنا غارقا في تأليف روايته الاولى . هذه الرواية ، وعنوانها « الاوراق الذابلة » كانت عند ذاك هي السبيل الوحيد الباقي لاستمراره في الكتابة بسبب استحالة بلوغه النهاية في مشروع رواية « البيت » . ان البيت والاسرة والقرية حاضرة كلها في « الاوراق الذابلة » ، حتى الريح الكبرى حاضرة ، تلك التي ستقضي ذات يوم على ماكوندو ، غير ان المسيرة نحو الخراب لايشار اليها الا بطريقة عابرة . وتقص علينا هذه الرواية ازمة اكثر محدودية بمراحلها وتفاصيلها في صميم التحرك المشؤوم للمجتمع الذي تصفه .

وفيما وراء التجربة التي استوحاها غرثيا مركيز من ويليم فولكنر في « بينما انازع » ، وهي تجربة فريدة لما اتسمت به من جرأة في تصوير الواقع الاسباني الامريكي ، هناك عنصر آخر جدير بالذكر في « الاوراق الذابلة » ونعني به بنية الكتاب وتشابك ثلاثة حوارات داخلية حول المنتحر الذي ينبغي دفنه ضد ارادة سكان ماكوندو . وكان غرثيا مركيز قد نشر حكاية، هي السادسة من حكاياته، بعنوان «مرارة من اجل ثلاثة مسرنمين» (بكسر النون ــ والمسرنمون من في نومهم يسيرون ويتكلمون) (تشرين الثاني ١٩٤٩) لها بنية قريبة جدا مع العدد ذاته من الاشخاص الذين يتحدثون والذين تذوب اصواتهم في صوت جماعي ، ويجب ان نرى هنا تجسيدا مسبقا بعيدا ، ولكنه واضح ، لرواية « خريف البطريرك » ،وهي نقطة تجب العودة اليها .

كان كاتبنا يذهب ببساطة الى نهاية سؤاله ــ الزمن وكيف يعاش ــ وهو يواجه افتراض وعي تاريخي لدى اشخاصه . والجواب الذي يحمله الينا في « لارسالة للكولونيل » ، وفي بعض حكايات « مأتم الجدة الكبيرة »، وكذلك في « الساعة الرديئة » انما هو جواب متفائل .

حضور الجثة

ان القطيعة ليست اذا كبيرة (هناك حتى عقلانية حيث يدعي غرثيا مركيز بانه قد ازدراها لصالح « الواقع الاجتماعي والسياسي ») مادام الكاتب لم يتوقف عن طرح السؤال الكبير المتعلق بالزمن ، ومادام الجواب وحده قد تغير موقتا . وفيما وراء هذا السؤال الكبير وتعاقب « البلى ـ التاريخ » ، يجب ان نعترف بوجود موضوع اعمق واكثر ثباتا يتجاوز جدلية الاستسلام والارادة . في « لارسالة للكولونيل » يقول جابي البريد « ان الشيء الوحيد الذي يصل بلا خطأ هو الموت » ، والمسالة الكبرى في جميع اعمال غرثيامركيز انما هي في الواقع مسالة اللعبة بين الحياة والموت ، مع هذه الطرافة المتجددة التي هي طرافة النماذج الاصيلة الرائعة .

يتكون عدد من اعمال غرثيا مركيز بشكل خاص من شهادات يدلي بها اشخاص رواة ، يقل عددهم او يزيد ، حول جثة حاضرة او غائبة (في الحالة الاولية حول فتاة صغيرة او امراة قررت ان تصبح جثة حية) . تلك هي الحال في الاعمال التالية : « مرارة من اجل ثلاثة مسرنمين » ، « الاوراق الذابلة » ، « ماتم الجدة الكبيرة » ، « خريف البطريرك » ، « وقائع موت معلن » . وتنسج الشهادات بطريقة جد متنوعة حول حكاية الميت ، ولا سير للحوادث الا منقولا بكلام الاشخاص . هذا الترسيم ذو استمرار فريد حقا ويحمل على التفكير في ان الجثة ، او الموت بصورة اعم ، هو محور روايات غرثيا مركيز .

تعتبر الكتابات التي لاتذهب في هذا الاتجاه قلة في مجموع اعماله ، وهي لاتتعدى الاحدى عشرة حكاية من احدى وثلاثين . حتى في عدد من النصوص المتفرقة التي تؤلف بمجموعها رواية نجد ان الميت هو الذي يمكن له ان يكون الراوي او الحاكي ، لو لم يكن الكاتب قد استعمل فيها صيغة الشخص الغائب ، وذلك كما في « الاستسلام الثالث » و« ايفا في داخل قطها » و« توبال قايين يصطنع نجمة » .

كما نجد ايضا بضعة نصوص يكون فيها الميت ، بشكله الحقيقي او المجازي ، هو مرسل الكلام كما في حكاية « احدهم يزعج هذه الوردة » ، او ناقل الكلام كالقارىء الابدي لمخطوطات ملكيادس في « مئة عام من العزلة » . هنا نجد نوعا خاصا من الاشخاص هو نوع الذين شهدوا الخراب العائلي ، وهو يتطابق احيانا مع نوع اخر اقل دلالة ولكنه اكثر عددا ، ونعني به نوع الميت الواعي (وقد يكون المقصود احيانا حالة تخشب تطول مدتها وتسبق الموت) . ونجد هذا النوع في الاعمال التالية : « الاستسلام الثالث » ، « ايفا في داخل قطها » ، « توبال ـ قايين يصطنع نجمة » ، « أحدهم يزعج هذه الورود » ، « نابو الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر ».

اما تبقى فهو مجموعة اعمال تركيبية تتسم بالمزيد مما اصطلح عليه ، حيث الكتابة بشخص الغائب تنقل وقائع الاشخاص كما تنقل كلماتهم وافكارهم . في المرحلة الاولى من التاليف تبقى هذه الطريقة في العمل قريبة جدا من الطرائق التي سبق للكاتب ان استعملها ، وذلك لان سير الحوادث عدم على وجه التقريب ، ولان نواة التاريخ ، وهي الميت ، انما تقع في فكر شخص او اقواله . هذا ما نجده في الاعمال التالية : « الجانب الاخر من الموت » ، « حوار المراة » ، « المرأة التي كانت تصل في الساعة السادسة « (هذه الحالة فريدة في نوعها اذ تدور حول بغي تقص علينا لماذا قتلت عميلها الاخير) . « رجل يصل تحت المطر » .

مفهومان للزمن

تقع الكتابات التي تعاود استعمال هذا النمط الروائي في الحقبة الممتدة من ١٩٥٦ الى ١٩٥٩ ، وهنا يظهر الفرق في ان سير الحوادث (اذ ثمة الآن تاريخ يتقدم) انما يتطور فيها هو ايضا بحسب تبعيته الميت ، وهذا واضح بشكل خاص في حكايتي : « قيلولة الثلاثاء » و « يوم كبقية الايام » ، وبدرجة اقل في حكاية « الارملة مونتيل » (انظر كتاب « ماتم الجدة الكبيرة ») ، كما يوجد التطور في سير الحوادث مرة ثانية في « لا رسالة للكولونيل » . ان التاريخ هنا تاريخ وعي سياسي لدى بطل

الرواية ، ولكن نقطة الانطلاق كانت مقتل ابنه من قبل الشرطة . في رواية « الساعة الرديئة » يستند التاريخ كله الى الجثث التي لا تحصى ، والتي سببها « العنف » ما دامت القرية تنتظر ساعة الثأر ، وما دامت الضغائن ستدوم كما قالت امراة للقاضي « حتى تعيدوا الينا الموتى الذين قتلتموهم » .

لا يقصد غرثيا مركيز من التشكيك في قسم من اعماله الا نوعا من التقنية الروائية . ولتبرير الفصل بين مؤلفاته توجد هنا قاعدة قطعية اكثر من المعايير التي يتذرع بها الكاتب عادة . ولكن ، فيما وراء هذه المسالة الهامشية ، نرى ، على اية حال ، ان الاعمال التي يبدو انها تتأرجح بين مفهومين للزمن ، انما تستند في الواقع الى محور اكثر ثباتا هو محور الجثة الدائمة . ومنذ ايلول ١٩٤٧ لم يتوقف غرثيا مركيز عمليا عن انتاج حديث هائل عن الموت .

تأتي روايته الاخيرة « وقائع موت معلن » وهي كتاب يزيد في عظمه مؤلفاته لاكتاب لايضيف اليها شيئا جديدا . ولنذكر على الاقل ماأكده غرثيا مركيز قبل نشره بفترة وجيزة اذ قال : « انه في رايه احسن رواياته » .

ولم ينقض الا اقل من ستة اشهر على صدوره حتى كان المؤلف يقترح طرحه ثانية للمناقشة . وفي السادس من ايلول ١٩٨١ نشر الملحق الادبي لـ « ال اسبكتادور » ببوغوتا الحكاية الاولى ، من سلسلة حكايات جديدة ، بعنوان « اثار دمك على الثلج » ، وهي مغامرة تتسم بالبساطة والعبث ، بالحب والموت ، عاشها اناس كولومبيون في اثناء مرورهم بفرنسا .

المسيرة الطويلة نحو ماكوندو

دراسة ثانية لاعمال غبرييل غرثيا مركيز

بقلم : جان ـ فرانسوا فوجيل

ماكوندو هي القرية الاسطورية التي اتجهت اليها جميع اعمال غرثيا مركيز حتى بلغتها في « مئة عام من العزلة » . وهي ذاتها قرية اراكاتاكا التي ولد فيها المؤلف .

قبل ان يربطه ذراريه ، بمدة من الزمن ، الى جذع شجرة كستناء في فناء بيته لانه خيل اليهم انه قد اصيب بالجنون ، رفض خوسيه أركاديو بويندايا ان يهجر ماكوندو . كانت قريته منقطعة عن العالم . وكانت الخريطة التي رسمها لها تأخذ شكل شبه جزيرة لعينة . في الشرق تمتد « سلسلة جبال لا يمكن عبورها » . في الجنوب « منطقة من المستنقعات المغطاة بطبقة من النباتات القاسية » . في الغرب « رقعة مياه بلا افق » . في الشمال ، على مسافة شهر من السير تقريبا ، « بحر مزبد قذر بلون الرماد » .

لم تكن ماكوندو « محاطة بالماء من جميع اطرافها » كما اعتقد خوسيه اركاديو بويندايا ، ولكن الطريق التي تعبر الخليج لم يكن يملكها آنذاك الا الغجر . اكتشفتها اورسولا وهي تتبع ابنها الذي احب غجرية نحيلة ورافقها فيها وهو مدجج بالسلاح . يومان من السير فقط كانا يفصلان ماكوندو عن بقية القرى . ولم يلبث الباعة المتجولون ، والباعة العاديون والصغيرة ريبيكا ، وهي تحمل عظام ابويها في حقيبة صغيرة ، ان قدموا فيما بعد من هذه الطريق .

كانت تلك اول هجرة نحو ماكوندو . وهي الهجرة التي حملت ايضا طاعون النوم والجنود ، والبيانو الآلي بيتروكريسبي . وبعد مرور جيلين ، حين اطلق اوريليانو الحزين صفارة القاطرة المرعبة لقطاره

الاصفر ، عرف سكان ماكوندو ان غزوا اشد هولا يمكن ان يقع . في هذه المرة كان الغزاة اجانب الموز . سبقوا هطول الامطار ، واحلوا نهائيـا على القرية هذه اللعنة المرة التي تستطيع الريح وحدها ، في عاصفـة « توراتية » ، ان تمحوها حتى من آخر بيت .

كانت القرية ، التي اسسها خوسيه اركاديو بويندبا وزوجه اورسولا، ستصبح « منفية من ذاكرة البشر » لو لم يفتح غرثيا مركيز الطريـق الثالث اليها . واذا كانت اورسولا قد صرفت خمسة اشهر لتستقر ، واذا كان اوريليانو الحزين قد نجح، باقل من سنتين، في تسيير قطاره على الرغم من ثقل القضبان ، فان الكاتب قد امضى عشرين عاما لكي يكتب قصتها . على ان طريق الكاتب القصصية الاسطورية قادت الملايين من قراء « مئة عام من العزلة » الى هذه القرية في رواية هي من التالـق والانسياب بحيث تبدو وكأنها كتبت بريشة انتزعت من احد جناحي ملاك الزمن .

الزمن لا يمر بل يدور في حلقة

وبما ان ملاك الزمن لا يوقف طيرانه ابدا ، فان اليأس سيدب في النفوس من عدم بلوغه ، مادامت اورسولا لم تكشف النقص في خيالها حول رحلة طيرانه . الم تقل ذات يوم : « ان الزمن لا يمر ، بل يدور في حلقة » . كان غرثيا مركيز يشك في ذلك . وكانت صحيفة يومية بوغوتا قد نشرت له حكايته الاولى في عام ١٩٤٧ ، فعاود مرارا كتابة العمـل ذاته ، وهو يقوده الى مكان يرسم فيه الزمن حلقات هي من الصغر بحيث ان الموتى كانوا يرجعون ليعبروا عن حنينهم العميق الى عالم الاحياء .

كان غرثيا مركيز آنذاك في ماكوندو . لا هو ولا قراؤه كانوا يجهلون هذا المكان الذي قادتهم اليه في الماضي عشرات الحكايات ورواياتان . حتى ظل اشجار اللوز كان يحمل انعكاس ما قرأوه . ولكن هذه القرية كانت قرية مختلفة ، تحبسها « حلقة الزمن » وتشد عليها لتخفي في الوقت

ذاته انشاءها ، وعصرها الذهبي ، واختفاءها كما اختفت حكاية آل بوينديا الاسطورية .

فسر بعض النقاد هـذا النجاح بايقاع خفـي مستلهم من الحسان الموسيقار المجري بيلا بارتوك ، ورأى بعضهم الآخر ان هناك دلالة **أوديبية** تضم طرفي القوس في دائرة الكتاب . لم يكذبهم غرثيا مركيز ، تماما كما امتنع عن اجابة الروائي الفواتيمالي الكبير ميفيل انخل استورياس ، حامل جائزة نوبل للآداب ، مؤكدا بأن الرواية مسروقة من رواية « البحث عن المطلق » لبلزاك التي يلاحق فيها الرجال الحجر الفلسفي في حين تتألم النساء من الاهمال ذاته .

يستطيع كل امرىء ان يجد كل شيء في رواية « مئة عام من العزلة مادام مؤلفها قد شيد « حاضرة المرايا أو السراب » . والوسيلة الوحيدة للاقتراب من سر ابداعها ستظل الى الابد في ان يعاود الانسان المسيرة الطويلة نحو ماكوندو التي نصب فيها غرثيا مركيز ، خلال عشرين عاما من العزلة ، شواخص لا تحصى ليتعرف الى شوارعها المغبرة ، وروائح جهنمياتها المعرشة ، وكولونيلاتها ، وعجائزها اللواتي يرفضن أن يعترفن بأنهن قد عجزن .

لم تكن ماكوندو ، لحقبة طويلة ، سوى العفريت الاكثر الفة للطريق . من هذه القرية اشعل الكولونيل اوريليانو بوينديا حربين اهليتين ؛ وعن هذه القرية كان غرثيا مركيز في الخمسينات يخط حكايات قصيرة من غير ان ياتي على ذكر اسمها الا كانه اسم منطقة قصية لا تصل اليهـا سوى الذاكرة التي تعتصم بالصبر . ولا تشير لافتة « فندق ماكوندو » في حكاية « يوم بعد السبت » الا الى اسم لا صلة له بالقرية ذاتها الا من بعيد . وعلى اية حال فما من شخص كان يريد ان يعرف من قبل قرية تهرب عصافيرها لتموت في البيوت .

في ظل الجدة الكبيرة فقط صار قراء الحكايات يزورون ، بشكل عابر ، ماكوندو التي كانت تحتفل بمأتم هذه الجدة العجوز الضخمة . كانت

هذه الجدة قد ادارت املاكها بشكل مستبد خلال اثنتين وتسعين سنة . ولقد استقبل اللامصدقون في شتى انحاء العالم نبأ موتها « الذي تتضوع منه رائحة القداسة » بدهشة تقل عن الدهشة التي تكونت لديهم بـان ماكوندو ليست سوى مملكة . كان هذا هو اغراء العظمة الوحيدة الذي استسلم له غرثيا مركيز . ولقد اكد سكان ماكوندو بأنه قاوم هـذا الاغراء فيما بعد لانه لا يمكن له ان يكون ، حتى في احد كتبه ، امبرياليا يلحق بلادا باكملها بقرية صغيرة .

والحقيقة ان ماكوندو كانت موجـودة ، بنيت حكاية ، وكان مـن اللاانسانية ازعاج كل هؤلاء الاناس الملتزمين في ادوارهم التي طلبت منهم الحياة ، بحسب راي الكاتب ، ان يؤدوها . كان العمدة فاسدا ، خان رفقاءه في الحزب والحرب ، وجمع ثروة طائلة . ومنذ ان كان ملازما قديما ، كان يشكو من ضرس ملتهب قلعه طبيب اسنان بقسوة وبلا مخدر فسبب له آلاما مبرحة ، لانه هو لم يستعمل اي مخدر حين كان يعدم اخصامه .

لا تحمل ماكوندو في الحكايات اسمها ولكنها تملك عمدة ، ورجل دين منافقا ، ونساء يعالجن حزن الرجال في الاسرة الفارغة ، وديوك مصارعة ، ولصوصا . وتحت المطر الاستوائي يفتح السكان مظلاتهم الممزقة ، ويراهم المرء وهم يعدون النجوم في الليالي الصافية . ومع ذلك فما من احد منهم يحمل هويته الاصلية في ماكوندو « مئة عام من العزلة » اللهم الا السيد هربرت ، اغنى رجل في العالم على بحر الزمن الضائع ، والذي يشبه السيد هربرت الآخر الذي جاء ليرهق ماكوندو باعمالـه التجارية الخسيسة في تسويق الموز ويدفع بجميع السكان الـى الاكتفاء بالعذوق .

اما الكولونيل اوريليانو بوئنديا ، الذي يظهر في الحكايات وفي الرواية الكبيرة ، فلا احد يستطيع ان يعتبره شخصا من نسج المؤلف . رجل « كان مصدر اثنتين وثلاثين انتفاضة مسلحة ، وازدهر اثنتين وثلاثين

مرة » ، وكان له سبع عشرة زوجة والعدد ذاته من الاولاد الذكور ، ونجا من اربع عشرة محاولة اغتيال ، ومن ثلاثة وستين كمينا ، وقررت فرقة الاعدام ظهوره بشكل اضطراري في نص لم يستشر فيه المؤلف . ان مجد غرثيا مركيز اذا هو في انه اختير من قبل بطل يأتي ذكره باستمرار في ذكريات الحرب الاهلية ليخصب كل حكاية قبل ان يفرض على رواية « مئة عام من العزلة » موهبته المدهشة كصانع متخصص في الاسماك الذهبية ، وكفاءته الدقيقة كضابط بذل نشاطا في خدمة هزيمته الخاصة يفوق كل نشاط بذل في جميع الانتصارات الحربية التي جرت بين الاخوة .

العثور على النغمة

حرب اخرى كان يحتدم اوارها في نفس غرثيا مركيز عندما كان الكولونيل اوريليانو بويندييا يدفع حصانه بخطى عدوه الاولى في الحكايات. كان الصراع صراعا جماليا دقيقا، يتعلق بالطريقة والاسلوب اكثر مما يتعلق بالفاعلية . اصبح لغرثيا مركيز قرية مع اشخاصها الاساسيين، فكان يعاوده ايقاع « الاغاني الشعبية » على الشاطىء الكولومبي ، تلك الاغاني التي يغني بها المسافرون في الحكايات،وهو الايقاع ذاته الذي بنى عليه نشيد فرنشيسكو الانسان في ماكوندو ، ولكن ماكان ينقص المؤلف هو العثور على النغمة الصحيحة . تلك كانت مشكلته حين كان يوقع باسم مستعار حكاياته في زاوية « الزرافة » التي كانت تنشرها له « إل اسبكتادور » بوغاتا . اظهر بعض النصوص ملامح موهبته المبكرة الجريئة وبقي بعضها الآخر خاليا من هذه الغبطة المتدفقة التي اصبحت فيما بعد علامته الساخرة . ولكن جميع هذه النصوص كانت تنبىء بطموح يقع في حدود حالة اليقظة كما في تشرين الاول ١٩٥٠ حين اعاد مرتين كتابة اقصوصتيه « محترف الكابوس » و « نهاية ناتانائيل »، وهما اقصوصتان معقدتان حيث يقود بارع في الحلم فنه بعيدا حتى انه لا يستطيع ان يميز يقظته من حلم يروي له تفاصيل هذه اليقظة . كان اسم البطل ناتانائيل

الا ان قناعه لم يكن مثبتا على وجهه كما ينبغي مما اتاح للقارىء ان يتعرف الى (غبرييل غرثيا مركيز) .

حلم حلم كان يعذب غرثيا مركيز ، ويعيد اليه الصدق الضروري ليفضح الواقع في بشاعته الملموسة . كان اشخاصه يشعرون تجاه هذا الواقع بسورات تمرد ضد البداهة التي تحملهم على ان يغطوا اجمل الغرقى بالازهار ، ويأكلوا بضع ثدييات على التوالي ، او يعيشوا حياة اطول من تلك التي يسمح بها اكرم المعاهد الطبيعة . فاتخذ وجودهم بتأثير ذلك وجهة متشككة مظلمة سطرها غرثيا مركيز بدقة بالغة في روايتيه « الاوراق الذابلة » (١٩٥٥) و « الساعة الرديئة » (١٩٦٢) .

بعد سنوات ، وامام رهط من الصحفيين ، تذكر غرثيا مركيز الايام القديمة التي كتب فيها رواياته الاولى عن ماكوندو . كان يحمل قصتها منذ الطفولة ، ولكن الورق كان يرفض ان يشرب اضطراب السكان في قرية ضائعة على حدود السييرا . لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره حين كتب « الاوراق الذابلة » ــ وقد لف مخطوطها بربطة عنق ــ ،وذلك بدءاً بالاهداء الذي يشير الى بولينيس وانتيغونا وانتهاء بالجملة الاخيرة التي تاخذ فيها النسور بالغناء .

تشير الرواية الى « هذه المادة المرة للقدر المحتوم التي دمرت ماكوندو » . ظلت القرية موهونة القوى بعد رحيل اجانب الموز عنها ، ووحده موت طبيب ، انقطع عن الناس عشر سنوات بعد ان رفض ان يعنى بالجرحى ، كان ينبىء بالتحرك . كولونيل صديق للطبيب يسهر مع ابنته وحفيده البالغ من العمر احد عشر عاما بالقرب من الجثة . الكتاب كله يعيد طرح السؤال ذاته : هل ستسمح القرية بان يدفن الطبيب في مقبرتها ؟ وفي اجابات ثلاثة اشخاص ، تحدث كل منهم بضمير المتكلم ، ترتسم حكاية ماكوندو حيث الكولونيل اوريليانو بوينديا لم يكن معروفا الا كمعتمد لساحل البلاد على الاطلسي ، وهو منصب لم يستطع ان يعود اليه فيما بعد .

كتب الناقد الارجنتيني لويس هارس يقول : « ان المشكلة الحقيقية لقرية ماكوندو هي التآكل الاخلاقي . انها قرية سيئة النية ، حقود ، لا يحب الناس فيها بعضهم بعضا . دفن الماضي فيها من غير ان يرقى (من الرقية) ، ثم عاد اليها كوخز ضمير ليتحول الى كابوس مشترك . مامن احد ينام جيدا في ماكوندو » . ولكن الحالة في معظم الاحيان كانت اسوا في اليقظة ، يقظة « الساعة الرديئة » . في هذه الرواية الثانية نجد منشورات تشنيع وقذف تلصق على ابواب البيوت متهمة المراة فلانة بانها اجهضت حين ادعت انها ذاهبة لمعالجة اسنانها او ان الطفل فلانا ليس من صلب ابيه . عندما كتب غرثيا مركيز هذه الرواية كان لديه عنوان صريح : « هذه القرية القذرة (بمعنى البراز) » ثم عدل عنه فيما بعد كما عدل في وضع الكولونيل ، وهو اغنى أشخاصه ، فجعله يرحل ـ لكي يظهر في رواية جديدة هي « لا رسالة للكولونيل » ـ ويعيش حياته بعد رحيله مقسمة بين العناية بديك مصارعة والبقاء في المنزل ، منتظرا ما ستاتي به الحوادث .

المنافسة الهاذية :

كانت ماكوندو تعيش « الساعة الرديئة » على الدوام . ولذا بقيت الرواية نوعا من اللازمة المضجرة المؤلمة وقد غاب عنها حتى الكولونيل اوريليانو بوينديا مادام لم يفعل شيئا سوى الاكتفاء بالنوم في فندق القرية وهو في طريقه الى توقيع اتفاقية السلام . ولم يكن غرثيا مركيز قد غير اسم رجل الدين ، الاب انخل ، كما انه لم يتوصل الى تدبير امره مع السياسة الا بقوله : « الشخص الوحيد الذي له حق الحظر هنا هو الحكومة . نحن نعيش في بلد ديمقراطي » .

يلاحظ كل من قرا هاتين الروايتين ، بعد « مئة عام من العزلة » ان صورة الفشل لا تتكوّن لديه بقدر ما يتكوّن سؤال ينبع منهما : لماذا لا تتوصل ماكوندو الى ان توجد في ماكوندو ؟ كان العالم هو ذاته ،

والبشر هم انفسهم، والعذاب هو عينه. لم يتغير غرثيا مركيز في الروايات الثلاث اذ كان يعالج على الدوام موضوع بلدته ومسقط راسه اراكاتاكا التي لم تكن كبيرة كما يمكن لها ان تعتبر امام خلفيات لا تحصى . حين تأملها الكاتب الامريكي بول ثيرو من القطار السريع الذي نقله الى بوغوتا لم يجد ذات مساء سوى « اكواخ من الطين ، وخيالات نخيل ، واشجار موز ، وديدان تلمع في العشب » . ولكن على المرء ان لا يرى فقط بل عليه ايضا أن يسمع حكايات الموتى وخطواتهم في بيوتهم ، تلكالحكايات والخطوات التي رافقت طفولة غرثيا مركيز . كما ان على المرء ان يستروح هذه الرائحة الدائمة للرطوبة الاستوائية التي تشبه رائحة السماد القذر ، والتي تنافسها الرياح المثقلة بالرغبة الهاربة في هبوبها من البحر .

ويروي بيير غوفون ، الذي ترجم غرثيا مركيز الى الفرنسية ، « ان الشمس والمطر في اراكاتاكا يتناوبان عنفهما في منافسة هاذية » . كان قد شاهد الآثار اللونية التي خلفتها الحرب الاهلية في الكلس الاحمر بلون الدم بمقر حزب الاحرار ، وفي الدهان الازرق بلون الافق بمقر حزب المحافظين . ولقد شاهد بصورة خاصة ان النمال تأكل غرف البيت الابوي للمؤلف كما التهمت اخر ذرية آل بوينديا الذي ولد بذنب خنزير . وكانت شجرة الكستناء ، التي ربط اليها خوسيه اركاديو بوينديا ، هي ايضا هناك . كل شيء يدل على ان نبوءة الساحر ملكيادس كانت محتملة الوقوع في اراكاتاكا : « اول السلالة مربوط الى شجرة ، واخرها ترعى جسده النمال » . ولكن كل شيء أصبح ممكنا لان غرثيا مركيز اراده وهو يعترف بان العدالة الموجعة تمهر بخاتمها مصير البشر ، فاذا ما وجب علينا ان نلعنهم فلنتركهم اولا يولدون .

من الجملة الخامسة في « مئة عام من العزلة » انطلق كل شيء : « كان العالم من الحداثة بحيث ان كثيرا من الاشياء كانت ماتزال بلا اسماء ، ولكني نبينها كان يجب ان نشير اليها بالبنان » . هذه العبارة ، التي لم يكن من الممكن ان تحويها اية حكاية ولا اية واحدة من الروايتين الاوليين ، تنظم العلاقة التي لا تحتمل بين الكاتب والواقع .

حين أصبح غرثيا مركيز قاصا مطلقا لعالم يخلقه بأكمله ، لم يعد يسحب ذيل المرارة بجميع كتاباته التي بدات في قرى تعيش ساعة اللعنة الرديئة . ان زمن الشقاء سيأتي الى ماكوندو ولكن غرثيا مركيز كان قد استطاع ، قبل ذلك ، ان يكون الحالم الذي يكتب ، ناثانائيل الشهواني الذي يجعل قطيعا بأكمله من الماشية يتسافد (يتزاوج) لشدة ما كان غرام اوريليانو الثاني بخليلته بيتر كوتيس ذا حرارة اتصالية . وسيترك المرأة المسنة المشهورة باسم « الفيلة » تلتهم ربع عجل بأكمله من غير ان تخالف اية قاعدة من قواعد السلوك في الجلوس الى المائدة ، وسيجعل اوريليانو سنتينيو يكتشف الشراب قبل جميع الناس وقد انتشى بكثرة البوظة ووفرة الثمار . كل شيء حقيقي مادام كل شيء في الماكوندو قد وجد ليعاد خلقه ، فاذن كل شيء يمكن له ان يخلق .

كانت ماكوندو قد اصبحت مناقسة لـ « يوكنا باتوفا كاونتي » رائعة وليم فولكنر ، ولكن غرثيا مركيز في معرفته ما هو به مدين لـروائي اوكسفورد ، لم ينس قط همينغوي السنوات السابقة ، فمجّده مشيدا بحبه الكبير للعبارات المتراصة في انسيابها المقنع الجميل . « مئة عام من العزلة » ، التي صرف ثمانية عشر شهرا في كتابتها ، كانت اذن هـذا العالم الذي يقتسم في الوقت ذاته غرثيا مركيز يشغل المكانة الاولى في قلب « الانفجار » الادبي المفاجيء بامريكا اللاتينية ، الا ان روايته هـذه يجب ان توضع تماما على حدة .

الواقـع السحري :

كان اليخو كربنتييه ، الكاتب الانتيلي التقدمي الكبير ، قد اجاد في الكلام عن « الواقع السحري » ليشرح ان أمريكا اللاتينية كانت تبحث عن حل لها جمالي في التعبير عن واقع باروكي . هذا الواقع السحري لم

يكن الا مرحلة من مراحل المسيرة الطويلة نحو ماكوندو . تقدم غرثيـا مركيز وحده ، مستنيرا بكتابات فرجينيا وولف ، او روبرت لويس ستيفنسون ، او كبار كتاب العصر الامريكيين ، اكثر مما استنار بأي كاتب معاصر باللغة الاسبانية . اخضع اسلوبه للعبارة الطويلة التقليدية (الكلاسيكية) وتابع بتصميم مشكلة الزمن والبقاء ليروي الحياة العامـة للانسـانية من خلال الحياة الخاصة لبضعة اناس .

دهش الكاتب الانكليزي في . اس . برايتشت من مهارة غرثيـا مركيز في التحدث « عن الشعب متحاشيا رواسم (كليشيهات) البلاغة السياسية لكي يجد ما تعنيه ملايين الحيوات المنفصلة التي توقفت عن ان تكون خفية غائبة لتصبح مرئية حاضرة ، تطفو على ذاكرة التاريخ ، وتحمل هوياتها » . كان هذا هو الرد الشعري والانساني الجميل علـى التطور التقني والالكتروني القبيح الذي مزق روح العصر . لم يكـن الكاتب الكندي الكبير ماك لوهان قد أقنع الانسانية بعد بأن العالم باكمله قد أصبح « مجمل قرية » بفضل وسائل المواصلات السريعة حين بـين غرثيا مركيز ان الادب يمكن له ان يصنع من مجمل قرية عالما باكمله .

ان يكون غرثيا مركيز قد جعل لـ « مئة عام من العزلة » بداية وخاتمة فليس ذلك الااحتراما منه لمتطلبات الرواية،وكل مايعرفان الاستعمال المتكرر في النص لكلمة « زائل » يشهد بأن المؤلف قد الحق هزيمة بالابدية.

بعد سبع سنوات فقط ، وحين ظهرت رواية جديدة لغرثيا مركيز ، عرف الناس ان الكاتب لن يجرب حظه مرة ثانية مع القرية التي كتـب عنها بعد عشرين عاما من العزلة . لقد قال : « ماكوندو ، انها اليوم مجرد عقليــة » .

الشعر في متناول الجميـــع

مقالة بقلم : غبرييل غرثيا مركيز

في العام الماضي ، نبه استاذ من اساتذة الادب البنت الثانية لصديق لي كبير الى ان فحصها النهائي سيدور حول « مئة عام من العزلة » . خافت الفتاة ، ومن حقها ان تخاف ، لا لانها لم تكن قد قرات الكتاب فحسب بل لانها ستمتحن ايضا في مواد اخرى اكثر جدية . وكان والدها ، لحسن حظها ، على تكوين ادبي متين ، وعلى ميل الى الشعر لا يضاهى ، فدفعها الى قراءة الرواية وتحضيرها ، حتى انها تقدمت الى الامتحان وفي جعبتها ما في جعبة استاذ من المعلومات .

طرح عليها الاستاذ الفاحص سؤالاً غير متوقع : ماذا تعني الرسالة المقلوبة المرسومة على غلاف « مئة عام من العزلة » ؟ كان يشير في سؤاله الى طبعة بوينس ايرس من الرواية التي صمم غلافها الفنان التشكيلي فيثنتي روخو كما وسوس له شيطانه المستبد ان يفعل . عجزت الفتاة طبعا عن الجواب . وحين قصصت على فيثنتي روخو هذه الحادثة قال لي بانه هو ايضا عاجز عن الجواب .

في هذا العام كان على ابني غونزالو ان يجيب عن اسئلة في الادب لقبوله في معهد من معاهد لندن . دار احد الاسئلة حول رمز الديك في رواية « لا رسالة للكولونيل » . ومع ان غونزالو كان يعرف جيدا اسلوب بيته ، الا انه لم يستطع مقاومة الاغراء في الاستهزاء بهذا الحكيم البعيد ، ولذا اجاب : « انه الديك ذو البيض الذهبي » .

ولقد علمنا فيما بعد ان التلميذ الذي حصل على العلامة الفضلى اجاب ، كما علمه استاذه ، بأن ديك الكولونيل هو رمز القوة الشعبية المكبوتة . وما ان علمت بذلك حتى اغتبطت مرة أخرى بنجمتي السياسية

الهادبة ، ذلك ان النهاية التي تصورتها لهذا الكتاب ، والتي غيرتها في آخر لحظة ، انما تقوم بالنسبة الى الكولونيل على فك رقبة الديك وطهو حساء شهي معارض بلحمه .

منذ سنوات وانا اجمع هذه اللالىء التي يفسد بها اساتذة الادب الاردياء نفوس الاطفال . احد هؤلاء الاساتذة ، وهو ذو نية حسنة ، راى في الجدة الضخمة التي يخلو قلبها من الانسانية ، والتي تستغل ايرينديرا الطيبة لسداد دين ، رمزا للراسمالية التي لا تشبع . واستاذ آخر ، وهو كاثوليكي ، علّم تلاميذه ان ارتفاع الحسناء ريميديوس الى السماء انما هو تصوير شعري لصعود مريم العذراء بالجسد والروح . وهناك استاذ آخر ملا حصة باكملها يتحدث عن السيد هربرت ، وهو شخص في احدى اقاصيصي يحل مشكلات الناس كافة ، ويوزع المال بسخاء . قال عنه هذا الاستاذ : « انه استعارة جميلة للإله » . ولقد ادهشني ناقدان من برشلونة حين اكتشفا ان لـ « خريف البطريرك » بنية الكونشرتو الثالث للبيانو لبيلا بارتوك . والحق انني فرحت بهذا الاكتشاف كثيرا لما اكنه من اعجاب لبيلا بارتوك وبخاصة لهذا الكونشرتو من اعماله ، ولكني لم أستطع ان افهم حتى الان تشبيه هذين الناقدين . وكان استاذ في كلية الاداب بهافانا يكرس ساعات لتحليل « مئة عام من العزلة » ثم توصل الى استنتاج يقترن فيه المدح بالقدح بان هذا الكتاب لا يقدم اي حل . كل ذلك جعلني اقتنع بان هوس التفسير يغدو مع الزمن شكلا جديدا من اشكال التخيل ، ويؤدي احيانا الى قول الحماقات .

أكون قارئا في منتهى السذاجة ان لم افكر في ان الروائيين يريدون ان يقولوا اكثر مما يقولون . حين يقول فرانز كافكا ان غريغوار سمسا استيقظ ذات صباح وقد تحول الى حشرة هائلة ، يبدو لي ان هذا القول لا يرمز الى شيء ، وما اقلقني على الدوام هو اي نوع من الحيوانات

استطاع سمسا ان يكون ؟ واعتقد انه مر حين من الدهر كانت فيه البسط تطير ، والجن تتحبّس في قماقم . واعتقد ان اتان بلعام تكلمت — على ما تقول التوراة — وما آسف له انهم لم يسجلوا صوتها . واعتقد ان يشوع دمر اسوار اريحا بقدرة ابواقه ، وما آسف له ايضا انهم لم يدونوا موسيقا تدميره . واعتقد ان المجاز فيد بريبرا — في رواية سرفنتس — كان حقا من زجاج ، كما تخيل في جنونه ، وان غارغانتوا الطروب — في كتاب رابليه — بال بغزارة على كاتدرائيات باريس . اكثر من ذلك : اعتقد ان عجائب مماثلة مازالت تجترح الى يومنا هذا ، واذا كنا لا نراها فلأننا على الارجح ممنوعون من رؤيتها بسبب العقلية الظلامية التي ختم بها اساتذة الادب الارديا على عقولنا .

اكن احتراما كبيرا لمهنة التدريس واعطف عليها كثيرا ، ولذا اتألم حين ارى الاساتذة ضحايا منهج علمي يقودهم الى التفوه بالبلاهات . احدى المخلوقات التي لا انساها هي المعلمة التي لقنتني القراءةفي الخامسة من العمر . كانت فتاة جميلة عالمة لا تدعي انها تعرف اكثر مما تقدر على معرفته ، وكانت فضلا عن ذلك على قدر كبير من الصبا حتى اصبحت مع الزمن اصغر مني سنا . كانت هي التي قرات علينا في الصف القصائد الاولى التي سممت عقلي الى الابد . واتذكر بعرفان الجميل ذاته استاذ الادب في المدرسة الثانوية ، وهو رجل متواضع عاقل ، كان يقودنا في متاهة الكتب الجيدة من غير ان يبالغ في تفسيرها . ولقد اتاحت هذه الطريقة للتلاميذ ان يسهموا بمزيد من الحرية والاندفاع الشخصي في معجزة الشعر .

وجملة القول ان درس الادب يجب ان لا يكون الا دليلا جيدا للقراءة . وكل ادعاء آخر لا يصلح لشيء ما عدا اخافة الاطفال . واني لأومن في هذا المجال بالللباقة .

قصة الرواية

مقالة بقلم : غبرييل غرثيا مركيز

قبل وفاته بقليل ، افضى الي الفارو سيبيدا ساموديو بخاتمة « وقائع موت معلن » . كنت قد عدت من رحلة طويلة جدا في أوروبا ، وكنا في بيت عطلته الاسبوعية ، قبالة بحر سابانيليا البائس ، نعد اكلته الاسطورية النفيسة ذات التوابل الكثيرة .

قال لي فجاة : « لدي نبأ جيد يهمك : عاد باياردوسَنْ رومان الى زوجته » .

اذهلني النبأ كما كان يتوقع . وتابع : « انهما يعيشان معا في مانوريه تقدم بهما العمر ، وهما معدمان ولكنهما سعيدان » . لم اكن احتاج الى مزيد من القول اذ بلغت نهاية بحثي الطويل .

وما تعنيه هاتان العبارتان هو ان رجلا كان قد هجر زوجته ليلة عرسهما لاكتشافه انها غير عذراء ، ثم عاد بعد ثلاثة وعشرين عاما ليعيش معها . وقد نتج عن هذا الهجر ان صديقا كبيرا وعزيزا جدا على قلبي ، من اصدقاء طفولتي ، قد اتهم بانه اقترف اثما فاضحا لم يثبت ، ثم قتل بطعنات مدية من قبل شقيقي الفتاة المهجورة بحضور جميع اهل القرية كان يدعى سنتياغو نصّار ، وكان رفيقا مرحا وشخصية بارزة في الجالية العربية هناك . حدث هذا قبل ان اعلم بقليل ماتراني اكون في الحياة ، واحسست بحاجة ماسة الى ان اروي ماسمعت لعل هذا الحادث هو الذي سيحدد نهائيا موهبتي ككاتب .

رويت هذه الحكاية اولا لجرمن فارغاس والفونو فونيمايور وذلك بعد خمس سنوات في مبغى « الكارافانيز لاوفيميا السوداء » . قررت آنذاك ان اصبح كاتبا ، وكان ابي يقول لي : « ستأكل ورقا » . وحلمت خلال سنوات انني امزق مواعين ورق باكملها ، وآكل كرات ورق لم

يكن من نوع ورق الصحف التي كنت اعمل فيها بل من النوع الجيد المتماسك المزخرف ، واظبت على استعماله كلما وجدت مالا استطيع به شراءه . ولقد اتفق صديقاي فارغاس وفونيمايور على ان حكاية الجريمة جديرة بان تكتب ، حتى ولو اضطرت الى التهام الورق . قال لي فوينمايور « لا بأس بكتابتها ولو احوجك الامر الى اختراعها . كان صوفوكل يخترع اعماله بالطريقة ذاتها ، ولقد نجح فيها » . ووافقني الراي الفارو سيبيدا ساموديو بعد ان حاز على شهاداته من جامعة كولومبيا ، ولكنه حذرني بلا تحفظ قائلا : « المشكلة الوحيدة هي ان هذه الرواية عرجاء ، تنقصها قدم » .

والواقع انه كانت تنقصها هذه النهاية غير المتوقعة التي رواها لي بنفسه بعد ثلاث وعشرين سنة من وقوع الجريمة ، وكان من المستحيل أن اتصورها على هذا الشكل . ونصحني فارغاس بحذره العفوي ان انتظر سنة او سنتين لانضاج القصة . لم انتظر سنة ولا سنتين بل ثلاثين سنة .

لا يعتبر هذا التأخير استثنائيا في اعمالي اذ لم يسبق لي ان كتبت رواية الا بعد ان يكون قد مر على وقوع حوادثها عشرون عاما على الاقل . ولكن سبب التأخير في هذه المرة كان يتعلق باستكمال الحوادث ، فتابعت البحث في خيالي عن القدم الضرورية التي تنقص هذا المنصب ، محاولا جهدي ان اخترعها من دون التفكير بان الحياة كانت تصنع هذه القدم لحسابها وبمزيد من المهارة . واعطاني دون رامون فيفنييس الوصفة الفضلى اذ قال لي : « كرر روايتها فهذه هي الطريقة الوحيدة لاكتشاف ما تحويه قصة في قلبها » .

انبعت النصيحة طبعا . ورحت اقص هذه الحكاية ذات اليمين وذات الشمال خلال سنوات عديدة ، على امل ان ارى احدا يكتشف ما ينقصها . وكانت زوجتي مرسيدس تتذكر نتفا منها منذ ان كانت طفلة صغيرة ،

فأعادت تكوينها كاملة لكثرة ما سمعتها ، وتوصلت الى ان ترويها بشكل أفضل . وسجلها لويس الكوريزا في بيته بمكسيكو ايام كان ساممها .مايزالون صغارا في السن . رويتها لروي غيرا على مدى ست ساعات في قرية قصية من قرى موزامبيق ، ليلة اطعمنا اصدقاؤنا الكوبيون لحم كلب من كلاب الشارع بعد ان حملونا على الاعتقاد بأنه لحم غزال ، ومع هذا فلم نستطع ان نكتشف العنصر الذي كان ينقص الرواية . ولقد قصصتها بضع مرات على كارمن بالثيلس ، وكيلة اعمالي ، وذلك خلال سنوات عديدة : في القطار ، في الطائرة ، في برشلونة ، في كل مكان . وكانت في كل مرة تبكي كما لو انها تسمعها للمرة الاولى . وما لم أتوصل الى معرفته هو هل كان بكاؤها تأثرا وانفعالا أم لانني لم اكتبها . وكان الصديق الوحيد الذي لم اروها له هو الفارو موتيس وذلك لسبب عملي يعود الى انه كان دائما اول قارىء لنصوصي ، وانا يهمني ان يقرأها من غير ان يأخذ اية فكرة مسبقة عنها .

وعلى هذا كان من شأن النبأ الذي نقله الي ساموريو في ذلك الاحد بسابانيليا ان نظم أفكاري . ان عودة سنتي رومان الى انخيلا فيكاريو هي النهاية التي لا شك في انها كانت تنقص الرواية . كل شيء بدا لي عندئذ واضحا : فبسبب تعاطفي مع الضحية كنت افكر على الدوام بان الحكاية انما هي حكاية جريمة وحشية ، بينما لم تكن في الواقع سوى حكاية سرية لحب رهيب . ولقد كان من الممكن ان لا اعرف هذه التفاصيل الخفية ابدا لو لم نتج ، انا وصديقي الفارو ، من الموت بأعجوبة على اثر تدهور الشاحنة التي كانت تقلنا في هاوية قبل ساعتين من وصولنا وفكرت : « مومس هي الحياة ! نجهد انفسنا في اكتشاف نهاية قصة ثم ينتهي بنا الامر الى الموت من غير ان نستطيع روايتها ! » . وحين استرددت عافيتي ، من الخوف بخاصة ، ذهبت للبحث عن باياردوسنّ رومان وانخيلا فيكاريو في بيتهما السعيد في مانوريه لكي يقصّا علي اسرار تراضيهما الذي لا يصدق . ولقد اغنتني هذه الرحلة اكثر مما املت منها اذ كنت اقع على اسرار حياتي الخاصة كلما سبرت ذاكرة الاخرين .

هناك قريتان تختلف احداهما عن الاخرى كثيرا ، ولكنهما تحمـلان الاسم ذاته وهو « مانوريه » . الاولى تتألف من شارع وحيد عريض جدا، بيوته متشابهة فيما بينها ، وتقوم على هضبة خضراء ذات صمت يفوق التصور . الى هنا كانوا يرسلون والدتي عندما كانت صغيرة لتغيير الهواء. كانوا قد حدثوني عن هذه القرية الطيبة في بيت جدي ، فما ان وقع بصري عليها حتى تذكرتها كما لو انني عرفتها في حياة سابقة . لم تكن الاسرة السعيدة تعيش فيها لان رفائيل اسكالونا ، ابن اخي الاسقف ، اخطأ في معرفة الطريق الذي يقود الى مانوريه الثانية . ووجدنا أنفسنا في مقهى القرية الوحيد نحتسي جعة مثلجة حين اقترب من طاولتنا رجل كأنـه شجرة ، يتمنطق بمسدس حربي ، وتحيط بساقيه لفافتا جلد مـن اللفائف التي يضعها الفرسان. قدم اسكالونا احدنا للآخر، فاحتفظ بيدي في يده وهو ينظر في عيني .

سألني : ــ هل هناك صلة بينك وبين الكولونيل نيكولا مركيز ؟

ــ انا حفيده .

ــ اذن جدك قتل جدي .

لم يمنحني وقتا اشعر فيه بالخوف لانه تكلم بحرارة كما لو اننـا قريبان . كان مهربا من مهربي سلالة الامادیس الاسطورية ، وكان صادقا شهما مثلهم . واحتفلنا بلقائنا ثلاثة ايام بلياليها في شاحناته الواسعة ، ونحن نحتسي كؤوس الكونياك الحار ، ونأكل لحم الجداء احياء لذكرى جدينا العزيزين . نقلني الى قرى مختلفة حتى اوصلني الى شبه جزيرة غواجيرا لكي اتعرف الى اولاد الكولونيل مركيز التسعة عشرة الذيـن بذرهم هنا وهناك في اثناء الحرب الاهلية الاخيرة . وبعد اسبوع اوصلني الى مانوريه الثانية وهي قرية تقوم على ارض من ملح البارود تجاه بحر من اللهب . اوقفني أمام بيت عرفته لتوي لكثرة ما حدثوني عنه ، وقال : « هنـا » .

كانت تجلس بقرب النافذة امراة تطرز على آلتها في ساعة من اشــد ساعات النهار قيظا ، وبدت في نصف حداد ، شعرها مصفر وعلى عينيها نظارتان من المعدن ، وعلق فوق رأسها قفص فيه كناري لا يتوقف عن التغريد . حين رأيتها على هذه الحال ضمن اطار النافذة الشاعري رغبت عن التفكير في انها هي نفسها لانني رفضت أن اصدق أن الحياة ينتهي بها المطاف الى ان تشبه الادب الرديء . ولكنها كانت هي نفسها : انخيلا فيكاريو ، بعد ثلاثة وعشرين عاما من حدوث المأساة .

ادركت ان المكان الذي وقعت فيه الجريمة قد جمّله الحنين . وكان شعوري مما لا يمكن تحاشيه ، فلقد قضيت فيه سنوات مراهقتي التي كانت اكثر سنوات حياتي حرية الى ان ارتأت اسرتي ان تنتقل الــى مصيف . ولقد عدت اليه مرتين فيما بعد بسبب مشروع الرواية . في المرة الاولى ، وكان ذلك قبل خمسة عشر عاما ، حاولت ان اجمع مــن ذاكرة الناس المستندات العديدة المبعثرة للغز الجريمة ، كما حاولت بخاصة ان اجد النهاية التي لم تكن الحياة قد رسمتها بعد . وخيل لي ان الزمن لم يقس كثيرا على احد ولا على شيء ، ماعدا بيت المتعة الذي كانت تديره ماريا اليخا ندرينا سرفانتس ــ اذ تحول الى مدرســة للراهبات . يا لها تجربة مزعجة ان ارى سربا طاهرا من الفتيات الصغيرات بلباسهن الازرق السماوي يدخلن هذا الرواق الثالوثي حيث كان جيلي كله يأتي ليفقد فيه بكارته !

وكانت المرة الثانية التي جئت فيها الى المكان المذكور تستهدف كتابة هذا المقال . وكنت آنذاك مخدوعا بالخطأ الذي يؤمن به مقتنعو الواقعية، وأعني به التقاط صور حية لما تكون عليه حياة الناس . كنت اكتب وانا شبه عار ، يقطر مني العرق والجهد المضني ، من الساعة التاسعة صباحا الى الثالثة بعد الظهر ، خلال اربعة عشر اسبوعا على التوالي ، وذلــك في المثوى (البنسيون) العائلي المخصص للرجال فقط حيث عاش باربارادو /سن/رومان الاشهر الستة التي بقي فيها بالقرية . كانت الغرفة عارية

الامن سرير حديدي ، وطاولة عرجاء كنت اضطر الى تقويمها بلصاقات من الورق المضاد للذباب ، ونافذة يهوي فيها الذباب الذي ترهقه الحر والرائحة النتنة التي تنبعث من المياه الراكدة في المرفأ العتيق . كان ذلك هو الاسهام الوحيد الذي قدمته تلك البيئة الى وجودي ككاتب ملتزم . وكلما استمررت في الكتابة كنت اشعر بأن الواقع المباشر لا علاقة له بالواقع الذي احاول ان اصوره ، حتى ولا بالواقع الذي كنت اتذكره. وادركني الذهول حتى صرت اسائل نفسي : ترى ، أتكون الحياة هي ايضا مجرد اختراع من اختراعات الذاكرة ؟.

وتوفي الدكتور ديونيزيو ايغواران ، وهو ابن عم أمي ، وطبيبنا الوحيد في زمن المأساة التي حصلت بين هاتين الزيارتين . وتوزعت شهرته بين عدة اطباء جدد وبخاصة الدكتور كريستوبال بيودا الذي كنا ندعوه كريستو ، وكان في السنة الثالثة من دراسته للطب وقت وقوع الجريمة ، وهو الشخص القدوة في هذه الوقائع ، والصديق الحميم الذي رافق سنتياغو نصار حتى الدقائق الاخيرة التي سبقت وفاته ، والوحيد بين سكان البلدة العشرين الفا الذي سعى الى الحيلولة دون مقتله وكاد ينجح في مسعاه . كانت شهادته اكثر الشهادات ذكاء واشدها عطفا ، وهو الذي ذكرني في نهاية محادثاتنا الطويلة بحادثة غريبة جرت بعد وقوع الجريمة . لقد قال لي ان تشريح جثة سنتياغو نصار لم يتم من قبل طبيب وانما من قبل كاهن القرية .

كان هذا الكاهن يدعى كارمن أمادور ، وكان يتبجح بأنه ولد على صخرة من صخور غاليسيا (منطقة في شمالي اسبانيا) حيث الناس لا يتكلمون لغة قشتالة ، وكان يكفي ان تستمع اليه وهو يذكر ذلك لكي تقتنع بأقواله . تذكرته بمرارة لانه هو الذي كان يجعلني استظهر القصائد المنلوطة لغبريل /إي/غالان ، وهو الذي قال لي فيما بعد ان الله قد صنع قراءة خيل فيثانتي . ولا اذكر الا انه كان كاهننا الوحيد ، ولكن حين رجعت للمرة الاولى بعد بلوغي سن الرشد الى البلدة كان قد رحل من غير أن يخلف اثرا .

لم احاول قط ان التقي به . ومع ذلك ففي اثناء قضائي الصيف منذ سنتين على شاطىء كالافيل ، بالقرب من برشلونة ، حدثني احدهم عن كاهن متقاعد ينزوي في بيت منعزل ، وقد سبق له ان قال بأنه اضاع نصف عمره في بلدي . عرفته فورا ، وكيف لا اعرفه وعيناه عينا عجل لبني ولهجته القشتالية ذات ايقاعات كاريبية . تحدثنا احاديث مطولة عديدة حتى نهاية الصيف ، وكان من البدهي انه لم يستطع ان يستسيغ الذكرى السيئة لتشريح جثة نصار .

بعد ان سلمني ساموديو المفتاح الاخير بعام واحد ، كانت الرواية جاهزة للكتابة . ومع ذلك فلقد انقضى زمن طويل من غير ان اكتبها لاسباب جد بسيطة لا نتوصل ، نحن الكتاب ، الى فهمها . ثم انقضت حقبة نسيت فيها امر كتابتها تماما . وذات يوم جميل من ايام خريف ١٩٧٩ ، وكنا انا وزوجتي مرسيدس في الردهة الرسمية لمطار الجزائر ننتظر النداء للرحيل ، اطل علينا امير عربي بعباءته الفخمة التي تشير الى نبل محتده ، وعلى يده صقر منتصب . كان الطائر بالاحرى انثى صقر تكتسي ، بدل الغماء (القبعة) الجلدي المألوف ، غماء من ذهب حلي بالماس . في تلك اللحظة خطر ببالي سنتياغو نصار الذي كان قد تعلم من ابيه فن القنص الجميل في الاجواء ، في البدء بوساطة صقور مولدة ثم بوساطة صقور اصيلة مستوردة من العربية السعيدة . وكان عند وفاته يملك في مزرعته مربى للصقور يحوي منها اثنين وذكرا . وقد دربت على قنص الحجل ، كما كان لديه سنقر من ايكوسيا درب على الدفاع الشخصي .

ومع ذلك فان تذكري لسنتياغو نصار لم يحصل فقط لمجرد مشاهدتي ملك الصحراء وهو يطل بطائره المتوج بالذهب . كان تذكري له بالاحرى ضربة مخلب من ضربات القدر . في طائرة العودة ادركت ان هذه القصة ، التي طالما طرأ عليها تغيير ، قد فرضت الآن ذاتها علي ، وانني لا استطيع ان استمر في الحياة لحظة واحدة من غير ان اكتبها . انني الآن امسك بها امساكا تاما لم اشعر به منذ اثنين وثلاثين عاما ، منذ نهار الاثنين

الكريه الذي اقتحمت فيه ماريا اليخاندرينا سرفانتس ، وهي عارية تماما، الغرفة التي بقيت نائما فيها على الرغم من دقات ناقوس الخطر ، وايقظتني صارخة بجنون : « لقد قتلوا لي حبيبي » .

وبهذه المناسبة لابد من الاشارة الى ان جورج بليمبتون في مقابلته التاريخية مع ارنست هيمنغوي بـ « مجلة باريس » سأل الكاتب الامريكي الكبير عما اذا كان يستطع ان يدلي شيء يتعلق بالطريقة التي يتبعها لتحويل شخص من الحياة الواقعية الى شخص في رواية ، فأجاب هيمنغوي : « اذا شرحت كيف يحصل ذلك احيانا فسيؤلف شرحي كتابا موجزا للمتخصصين من المحامين في دعاوى القدح والذم » .

آخر مقابلة مع غبرييل غرثيا مركيز

كانون الثاني ١٩٨٢

في هذا العام ، كما في الاعوام السابقة منذ ١٩٦٧ ، تاريخ صدور روايته « مئة عام من العزلة » ، لم يحصل غبرييل غرثيا مركيز على جائزة نوبل للآداب ، مع ان نيرودا قال عن اعماله : « انها اكبر ثورة في اللغة الاسبانية منذ سرفانتس » . وكجميع ما كتبه هذا الكولومبي ، المولود عام ١٩٢٨ ، صدرت روايته الاخيرة « وقائع موت معلن » بعد أن نضجت ببطء . انها قصة قتل غريبة لان القاتلين فيها كانا قد اعلنا مخططهما للقرية باكملها قبل ان يقترفا جريمتهما البشعة ، وها هو غرثيا مركيز يقود التحقيق بنفسه بما عودنا عليه من دعابة وخيال يبعث الدوار . ليس غرثيا مركيز روائيا كبيرا فحسب بل هو صحفي مبدع ايضا . وتشهد تحقيقاته على التزامه ، فقد كتب تحقيقا عن نيكاراغوا قبل وصول الصندينيين الى الحكم ، واجرى مقابلة مع الجنود الكوبيين في انغولا . ويعتبر فيديل كاسترو وفرانسوا ميتيران من اصدقائه الشخصيين . ولقد قادته مساندته المستمرة لكوبا الى المنفى . وفي كولومبا ، التي ترزح تحت حكم الرئيس طورباي المستبد ، وتسام سوء العذاب ، وتشتعل فيها حرب العصابات ، اضطر مؤلف « خريف البطريرك » (وهي رواية تقدم لنا صورة ديكتاتور) الى الالتجاء منذ اشهر الى سفارة المكسيك ببووغوتا ، مستبقا القبض عليه من قبل الشرطة التي تتهمه بانه على علاقة وثيقة بالحركة الثورية م ١٩ .

يعيش غرثيا مركيز الآن بين برشلونة وباريس (حيث عرف البؤس عام ١٩٥٥) . هذا الرجل الصامت الخجول الذي كان يفضل أن تنشر كتبه بعد وفاته خوفا من حكم القراء عليها ، يعترف : « اكتب لكي يزيد الناس من محبتهم لي » . وفيما يلي ترجمة كاملة لآخر مقابلة اجريت معه في كانون الثاني ١٩٨٢ . انه قلق على بلاده وعلى امريكا اللاتينية باسرها .

ــ ما هو نشاطك بعد نشر روايتك الاخيرة « وقائع موت معلن » ؟

ــ اكتب دائما . اكتب كل يوم من الساعة التاسعة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر .

ــ ماذا تكتب في هذه الايام ؟

ــ اخط مذكراتي . اما رواية « وقائع موت معلن » فهي قصة حقيقية جرت في قرية مولدي . كنت قد وعدت امي بأن لا اؤلف كتابا عنها ما دام بعض اشخاصها ، ممن ذكرت لي اسماءهم ، على قيد الحياة . ولقد طبع من هذه الرواية نسخ تفوق بعددها نسخ اي عمل ادبي صدر في امريكا اللاتينية حتى الآن .

ــ كنت موجودا في الاحتفال الذي تولى فيه فرانسوا ميتيران مهام الرئاسة . ماذا يمثل لديك انتصار الاشتراكية في فرنسا ؟

ــ تعرفت الى فرانسوا ميتيران في تشرين الثاني ١٩٨٠ عند أصدقاء مشتركين . كان عند ذاك مجرد مرشح للرئاسة . اعجبني فيه ايمانه العميق بالفوز في الانتخابات لكي يستطيع ان يغير الاشياء في فرنسا . وحين دعاني الى الاحتفال بتوليه مهام الرئاسة شعرت ، بكل بساطة ، بأنني ذاهب الى موعد كان قد حدد لي منذ عدة اشهر .

ــ هل تختلف فرنسا اليوم عن تلك التي عرفتها حين كتبت فيها « مئة عام في العزلة » بمثوى (بنسيون) عائلي صغير ؟

ــ من الصعب ان اقارن بين الحقبتين . في عام ١٩٥٦ كانت حرب الجزائر في اوج اشتعالها ، ولقد اوقفت عدة مرات واسيئت معاملتي من قبل شرطيين قساة كانوا يحسبونني جزائريا . اما في الوقت الحاضر فان غضبي قد خف مع الحنين الذي نشعر به تجاه الماضي . تلك هي مزية الحنين : وعلى اية حال فانا مقتنع بأمر واحد وهو انه لن يحدث في فرنسا اليوم ان تضرب الشرطة احدا لمجرد ان راسه لا يعجبها .

ــ هل لصفة كونك كولومبيا اهمية في اعمالك ، في طريقة تعبيرك ؟

ــ انا لست كولومبيا فحسب ، بل انا امريكي لاتيني ايضا . ومع وجود الفوارق الهائلة في امريكا اللاتينية ، لا بين بلاد وبلاد فقط ، وانما بين منطقة واخرى ، فان المرء لا يستطيع الا ان يشعر بهذا الشعور . وعلى اية حال فانا احس بانني انتسب الى امريكا اللاتينية باسرها . واعتقد انني اصبحت ما انا عليه ككاتب . لانني عشت ، وتمثلت ، وعبرت عن هذا النوع من الواقع . وانا مقتنع بان اي كاتب لا يمكن له ان يكون عالميا الا بمقدار ما يكون محليا بكل ما تتطلبه المحلية من عمق وصدق .

ــ انت كاتب مشهور ، وذات يوم توجب عليك ان تلتجىء الى سفارة اجنبية . ترى ، ماذا نفعك كونك قد اعطيت الادب الامريكي اللاتيني ، ولربما العالمي ، اعظم رواية في السنوات الثلاثين الاخيرة واعني بها « مئة عام من العزلة » ؟

ــ لكانني في الواقع قد اصبحت الى حد ما شخصا من اشخاص الادب الامريكي اللاتيني بدلا من ان اكتفي بان اكون كاتبا . ان تصرفي يعتبر تصرفا عاديا في هذا الجزء من العالم ، ولقد اضطررت الى القيام به على الرغم مني . كتب احدهم بأن هذا التصرف قد بدر مني لرغبتي في ان احيط نفسي بهالة من الدعاية ، وهذا قول مضحك لان مشكلتي هي الهروب من الدعاية لأستطيع ان اعيش بسلام . وقالوا ايضا بان هدفي كان الحط من قدر حكومتي امام الراي العام الاجنبي ، اما الحقيقة فهي تختلف تماما اذ ما من احد يحتاج الى ان يحط من قدر الحكومة الكولومبية لانها هي ناشطة على الدوام في الحط من قدر نفسها . في الماضي ، اكدت لي عدة شخصيات ، ومن بينها رئيس الجمهورية ، عدم وجود اية تهمة موجهة الي . وبالرغم من جميع هذه التاكيدات قررت ان اقوم بهذا التصرف المدوي لانني لم اكن اشعر بالطمأنينة . وانا مقتنع بان العسكريين في كولومبيا يعرفون ، ويراقبون ، وينقلون اسرارا لا يعرفها المدنيون .

ــ ماذا كان العسكريون يحوكون ضدك ، ولماذا ارادوا الايقاع بك ؟

ـ اعتقد انهم ارادوا ان يستجوبوني على اثر ضبط كمية كبيرة من الاسلحة تعود الى المنظمة م ١٩ . وكان الهدف من هذا الاستجواب طبعا ان يزرعوا في الراي العام فكرة مؤداها انني رئيس هذه المنظمة ، وانني كنت اتستر على نشاطها وراء مهنتي ككاتب . ان اجيب عن اسئلتهم لا يسبب لي اية مشكلة ، ولكن هؤلاء الناس لا يأتون اليك في رابعة النهار ليتناولوا معك شرابا مشهيا وهم يطرحون بعض الاسئلة . انهم يصلون دائما مع الفجر فيحطمون باب بيتك ، ويسوقونك بعنف وعيناك معصوبتان . يضاف الى ذلك ان لهم الحق ، بفضل القوانين الاستثنائية السارية المفعول بكولومبيا ، ان يحتفظوا بك عشرة ايام في السجن .

يرى بعض اصدقائي ان هذه المعاملة كان من الممكن **ان لا تحدث ، وذلك لاعتقادهم** بأنني انا شخصيا غير معرض لها . ولكنني **اخشى ، مع الاسف ، ان تكون** السلطة العسكرية قد وصلت الى حد **تريد ان تظهر فيه بأنه ما من** احد ينجو من قبضتها .

ـ لماذا ؟ ما هي المشكلات التي تعجز السلطة العسكرية عن حلها ؟ ولماذا قررت ان تتصرف هذا التصرف الجائر ؟

ـ انها المشكلات ذاتها التي لم تستطع اية حكومة في كولومبيا حلها : الفقر الشديد ، الظلم ، ضروب اللامساواة الاجتماعية الهائلة . وبما ان العسكريين لا يملكون حلا سياسيا لمعالجتها ، فلقد عقدوا العزم على استعمال القمع . وتلك لعمري حلقة مفرغة ، فكلما ازداد القمع ازدادت المقاومة ، وكلما ازدادت المقاومة ازداد القمع ، وهكذا دواليك ... ولا أحد يدري كيف سينتهي الامر . ان خوفنا ، وهذا هو صميم المشكلة التي نعيشها حاليا ، هو ان نكون قد وصلنا الى نقطة يجب فيها علينا ان ندافع عن الديمقراطية بأية طريقة من الطرق ضد اي انقلاب عسكري محتمل . وكنت اتوقع ان يكون لتركي الوطن وطلبي اللجوء الى سفارة اجنبية ردة فعل دولية وازدياد في تحسس الراي العام العالمي لما يجري في كولومبيا . ولقد كنت محقا في توقعي ، والدليل انني الآن هنا ، في فرنسا ، وانك تطرح علي اسئلتك .

ـ هل تخشى السلطة في كولومبيا هذا النوع من الدعاية ؟

ـ نعم ، لان السلطة المدنية تتمسك بالامور الشكلية ، اي يهمها ان تظل الاشياء كما هي مع الاحتفاظ بالمظهر الديمقراطي . نحن لا نعرف بالضبط مدى نفوذ السلطة العسكرية في كولومبيا ، ولكني اظن بأنها لا تخشى هذا النوع من الدعاية وان يكن يشكل قوة تثيرها لأنها لا تستطيع ان تؤمن بوجود سلطة تعلو سلطة السلاح . ومن المحتمل ، في المرحلة القادمة ، ان يحاول العسكريون الغاء السلطة التي تمثلها الثقافة ويحمل لواءها المثقفون .

ـ في بوليفيا تسلم العسكريون السلطة . قاموا بعملهم ليدافعوا عن مصالح مهربي المخدرات الذين يسيطرون عمليا على اقتصاد البلاد . وتعد كولومبيا احدى اكبر الدول المنتجة للمخدرات في العالم ، فهل يدافع العسكريون فيها عن مثل هذه المصالح ايضا ؟

ـ ثمة شائعات ولكني لا اصدقها . العسكريون الكولومبيون هم في خدمة الطبقة الحاكمة . ويقوم الآن مهربو المخدرات بالتسلل الى مختلف قطاعات المجتمع ، والانتاج ، والصناعة ، والتجارة . وعلى العموم فهم يوظفون رساميلهم في الاقتصاد القومي . ومما لا شك فيه ان القوات المسلحة هي ايضا ضحية لهذا التسلل . على اني لا اعتقد ان الظاهرة البوليفية ، بعسكرييها الذين يمارسون التهريب بشكل رسمي ، توجد في كولومبيا .

ـ لنتحدث عن م ١٩ . من هم اعضاؤها ؟ من هو رئيسها ؟ ما هي الايديولوجية التي تعتنقها ؟ هل بمقدورك ان تحلل هذه الظاهرة من وجهتي نظرك كمواطن كولومبي وكاتب في الوقت ذاته ؟

ـ الـ م ١٩ هي حركة يصعب التعريف بها . قاسى اعضاؤها كثيرا حتى استطاعوا ان يجدوا لهم هوية ، هذا بالاضافة الى انهم مروا بمراحل مختلفة . تتميز هذه الحركة ، بشكل اساسي ، بالرغبة في ان تجد للمشكلات التي تعاني منها كولومبيا حلولا جذرية ، وفي الوقت ذاته

مستقلة عن الكتلتين السياسيتين الكبريين في العالم . هذا هو الهدف الحالي لـ م ١٩ اجمالا . على ان ما يظل غير واضح في اذهان اعضائها انما هو الوسيلة التي يجب استعمالها لبلوغ هـذا الهدف . والواقع انهم يؤكدون ان جميع الوسائل صالحة . وهم الآن في وضع قد يبدو متناقضا . فلقد شنوا من جهة حرب عصابات على جبهة واسعة الامتداد ، ومن جهة ثانية سموا رئيسهم ، جيم بات مونكالون ، وهو رجل لم يبلغ بعد الاربعين من العمر ، ليكون مرشحا رسميا يمثل م ١٩ وانصارها في انتخابات الرئاسة القادمة .

ــ ما يزال من الصعب تكوين راي عن هذه الحركة . ولكن هل تعتقد انه يجب اعتبار هؤلاء الشبان كشبان الألوية الحمراء في ايطاليا أو كجناح الجيش الاحمر في المانيا ، اي ارهابيين تجب مكافحتهم ، ام يجب اعتبارهم مواطنين مقاومين كثوار السلفادور ونيكاراغوا الذين يناضلون ضد القمع والاضطهاد ؟

ــ انهم يختلفون كثيرا عن الارهابيين التقليديين الموجودين في أوروبا ، وذلك بطرائقهم ومداليل بعض اعمالهم . لقد مروا بمراحل مختلفة كما سبق لي أن ذكرت . وانطباعي عنهم هو انهم الآن قد وعوا ان الارهاب لا ينفع ولا يثمر ، وانه طريقة غير مشروعة للنضال الثوري . وانا موافق على هذه النتيجة .

ــ كيف توصل العسكريون في كولومبيا الى التفكير بان المنخرطين في حرب العصابات من حركـة م ١٩ قد دربوا في كوبـا ، الم تكن رئيسهم الايديولوجي ما دمت قد ذهبت لزيارة فيدل كاسترو ؟

ــ الاجابة بسيطة . لقد ذهبت مؤخرا الى كوبا . وانا اذهب اليهـا بانتظام كل ثلاثة اشهر او اربعة . قضيت بعضا من الوقت برفقة فيدل كاسترو ، تحدثنا في الادب جريا على عادتنا في كل مرة نتلاقى فيها . حين عدت الى كولومبيا توقفت لمدة في باناما ، حيث قابلت رئيس وزرائهـا الجنرال عمر توريخوس ، وهو صديق لي قديم ، واحبه كثيرا . تبادر الى اذهان العسكريين انني قمت بالجولة ذاتها التي يقوم بها الثوار عادة .

ما لا يتوصل العسكريون الى فهمه هو أن العمل السياسي الذي أقوم به انما يتم في وضح النهار : فرحلاتي علنية ، وتصريحاتي علنية . ثم لماذا الجأ الى اي نشاط سري انا عاجز اصلا عن القيام به ، ما دام الالتزام العلني هو ما انجح فيه على احسن وجه . وهذا الالتزام هو في الواقع أحد الدوافع التي من اجلها اكتب . لطالما رددت مرارا ، وعن اقتناع كلي ، ان اول واجب من واجبات الثوري هو ان يجيد الكتابة . هذا ما احاول ان افعله .

ـ شخص لا يحبك قال عنك : « إنه لكاتب ممتاز . ومن المؤسف انه لا يتوصل الى نسيان هذا الميل الى الاثارة الذي انتقل اليه من وقت ان كان صحفيا » . وشخص يكرهك اضاف : « ان نشاطه السياسي يتسع في هذه الايام ، ومنذ ان ضعف إلهامه اصبحت ممارسته للادب اقل كثيرا من ممارسته للسياسة » .

ـ ما يحزنني هو ان اعرف ان هناك اناسا لا يحبونني واناسا يكرهونني اكثر مما يفعل هذان اللذان اشرت اليهما . وعلى اية حال ، ينبغي ان اقول ان العلاقة بين عملي الادبي وعملي السياسي ليست ناجمة عن نزوة، ولكن عن اوضاع موجودة في بلدان امريكا اللاتينية .

ـ ترتبط بصداقة مع فيدل كاسترو ، وتعتبر ان الثورة الكوبية هي محاولة من اندر محاولات التغيير التي نجحت في امريكا اللاتينية . وهذا تم نتيجة للحضور السوفييتي في ذلك الجزء من العالم ، انك لا تجهل هذا الامر ، اليس كذلك ؟

ـ الحضور السوفيتي غير موجود عمليا الا في كوبا . على اننا لا نستطيع ان ننكر ان هنالك وجودا سوفييتيا في كوبا لان الثورة الكوبية لم توجد الا بفضل المساعدات التي قدمها الاتحاد السوفييتي . وبامكان هذه الثورة ان تتطور بشكل مستقل وخلاق ، ولكنها لا تستطيع ذلك ما دام الحصار الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة قائما . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فما دامت بضع دول امريكية لاتينية تناصب

كوبا العداء ، فيجب على هذه الجزيرة الاشتراكية ان ترتبط بحليف ولو كان يبعد عنها اربعة عشر الف كيلو متر بدلا من ان تتجمد في قوقعتها الوطنية والجغرافية والتاريخية .

ـ تعتقد اذن ان كوبا ستجد ذات يـوم حـلا لمشكلاتها السياسية والاقتصادية ، وهكذا تستطيع ان تصبح مستقلة ؟

ـ اكيد ، وهذا هو قدرنا . وسيأتي يوم لن يملك فيـه امريكـا اللاتينية سوى امريكيي الجنوب .

ـ لنتحدث عن فيدل كاسترو ...

ـ كلا ، لاني اريد ، باي ثمن ، أن اتحاشى اعطاء اي انطبـاع بأن هذه المقابلة قد استغلت لتصبح منبرا لفرض اية افكار سياسية . ثم انني أقلعت نهائيا عن التحدث في الشؤون السياسية مع الاوروبيين .

انهم لا يفهمون امريكا اللاتينية ، وليست لديهم اية فكرة عما يجري فيها ، وهم يحاولون أن يحللوا الاوضاع مستندين الى مفاهيم اوروبيـة لا محل لها هناك ، حيث كل شيء يختلف . ما اريد ان اقوله لاصدقائي الاوروبيين ، من مثقفين وسياسيين ، ان الطريقة الوحيدة لمساعدتنا في تحقيق تغييرنا الاجتماعي هو ان يدعونا نقوم به وحدنا .

ـ في بلد ديمقراطي من هو « البطريرك » ؟

ـ في بلد ديمقراطي لا يوجد « بطريرك » .

ـ ولا حتى بيروقراطيـة ؟

ـ البيروقراطية ليست بطريركا . البيروقراطية قذارة !

ـ ماذا يجري في كولومبيا لو حصلت على جائزة نوبل للاداب ؟ وهذا شيء محتمل جدا ؟ كيف سيكون تصرف العسكريين ؟

ـ اعتقد انهم في الواقع سيكونون مسرورين ، شأنهم في ذلك شان

جميع الكولومبين . وانا مقتنع بانني شخصيا ساكون اقل الكولومبيين سرورا .

ـ لماذا ؟

ـ لان ذلك سيضيف مشكلة الى جملة المشكلات الموجودة لدي .

ـ هل لديك انطباع بانك نصب حيّ ؟

ـ لا ادري بالضبط ، يبدو لي ان الانصاب الحية يجب ان تشعر بأنها محشوة قشا .

ـ لماذا لم تسمح قط بان يمثلوا رواياتك على الشاشة ؟

ـ لاني اريد ان يستمر قرائي في تصور اشخاص رواياتي كما يفهمونهم . اشعر بأنهم يتحققون من وجود اشخاصي في وجوه عائلية : في وجه قريب او صديق او جار .

بينما في السينما يفرض السينمائيون وجوها لا يتعرف فيها القراء الى (اشخاصهم) كما تصوروهم و كما تصورهم القراءة . اضف الى ذلك ان كتبي ادبية جدا .

ـ كيف ستعيش من الآن فصاعدا ؟

ـ سأستمر في الكتابة ، وفي بذل كل ما بوسعي لتحسين الاحوال في امريكا اللاتينية ، بلا برنامج موضوع ، ولا اي مشروع ولكن تبعا للحوادث والظروف .

ـ واذا قرعوا بابك ذات يوم بعنف في الساعة الثانية صباحا ، ثم اوقفوك ، او ابعدوك ، او وضعوك في السجن ؟

ـ وقد ياتي يوم ايضا اموت فيه . كل شيء ممكن الحدوث .

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



مفتاح الساعات

د. نذير العظمة

— ١ —

اقطفْ جسدي
غلغلْ في نبضي واتئِد
حدّقْ في مرآتي
وتعلقْ بشراعي الآتي
صرْ كالولدِ
واقلبْ ميزان الأوقاتِ
كل الأيام نغيّرها
ونصيّرُها مثل الأبدِ
دوزنْ عودي
صيّرْ عمري
حلما ينبض في عنقودِ

انضــج خصبي بالآهــاتِ
خبّئ مفتــاح الساعات
اسكنْ في لهبي واتّحــدِ
طــرْ في خلَدي ! !

— ٢ —

يــا حبيبــة

يا حبيبهْ

لا تفاري من فــم الورد
فمــك الأشهى من الــورد
خمــرة تقطر شوقا وعذوبــهْ

يا حبيبهْ

ايتها الطفلة في ارض اللهب
اقطفي قلبي عنقود غضب
يقطر النــار القريبــهْ

يا حبيبهْ

في غــد نطلع في الأرض اغانْ
نطلق الجرح صهيلا في الزمــانْ
نمنــح الحــب صليبهْ

يا حبيبهْ

آه من كرمك لا اشبع قطفــا
آه من عنابك الخمريّ رفــا
يرســم النبض كتيبهْ

يا حبيبهْ ! !

— ٣ —
لفتــان

يا ولاّده
تتكلم لغتين
لا تلتقيــان
ترتشفين جــراح القلب
وانــا لا عينين
يتركني الحب
في قرطبــة البين
اسال عن درب الزهــراء
اذ يتكرني الدرب
اشعل في جمر الشفتين
قبلَ الرعب
البس ثوب النفي وثوب الموت
واللغــة المرتــاده

يا ولاّده

— ٤ —
داخــل الحلــق

احسست ثغــركِ في مــدى عنقــي
فخرجت مــن جلــدي الى الافــقِ
يــا وردة ســـمراء فــارعـــة
بالمــــاء تنعش آخــر الرمــقِ

يـا طيب معتنـق اصـير بـه
طـيرا غريـب الريش والألــق
آه حــديـد الفــخ يخلبنـي
ويسيــل صوتـي داخــل الحلـق

ـ ٥ ـ

في لهفــة الرعش

يطيب لنـا حلـم من الغيـم صحـوه
برود ورود الحـب حـالـة الرمش
يلـون مـن لـون الحميـا وجوهنـا
ويترك قلب الشوق في لهفة الرعش
ايـا وردة في موتهـا بعـث وردة
لها القلب عرش ، والملوك بـلا عرش
انـا شاعـر والضـوء مـلء جوانحي
اسـل جبين الفجـر من خشب النعش

ـ ٦ ـ

ريح مـع الرباح

الطـير طـير لـه جنـاح وانـت طـير بـلا جنـاح
عجبت من ريشـك المدمى يصـير ريحـا مـع الريـاح

- ٧ -

للجرح ايماء

كم ذقتُ من غربة مر بها العنب

ومن حنين على اوتاره لهبُ

يا نقرة العود خلّ الصوت منذبحا

يسيل من دمه الوجدان والحبب

كم طائر في ضمير الغيب مرتحل

وطائر في ضمير الغيب يقترب

سقيته من صفاء العين لؤلؤة

فصار ينقط من منقاره الطرب

يا شاعر يعصر الأبعاد اغنية

ما هذه حجر في القلب او خشب

يشدو فيخترق الآفاق في دمه

موج من الحب كم يزهو وكم يثب

إنا شربنا على اصدائه نخبا

تضاحكت في ثنايا كأسه الشهب

أيان للجرح ايماء وغمغمة

تفار من شجوه العيدان والقصب

— ٨ —

لا تجزىء نقاوتي

ايها العاصر الذي هزهز الخطو بالطرب
زوّج الفكر للرؤى واقرن الماء باللهب
ايها الشارب الذي يشتهي غيرة الثمر
العناقيد عندنا حلفت انها درر
ايها العاصر الذي حملت كفه غمام
خل للقلب وثبه تمتلىء كاسنا سلام
ايها الشارب الذي ميّز العود والعنب
هو كل مداره صلة الخمر بالحبب
الخوابي مليئة وجهها الورد والزهر
سكنت جوقها المنى والذي يقتل الضجر
آه من كرمة الهوى سال من كفها قزح
الحجارات عندها حلفت انهما بلح
يا نديما بلا طلا دورت كاسه القمر
لا تسل عن سريرتي فانا جوهر الصور
ايها الشارب الذي شع من وجهه الفرح
لا تجزىء نقاوتي فانا الخمر والقدح
أيها العاصر الذي ترك القلب في سفر
قل متى يبلغ السهى قل متى ينتهي السهر ؟ !

ورود حمراء للشعر الأبيض

مسرحية في فصل واحد

وليد اخلاصي

« .. ومنذ هذه اللحظات ، سيتكشف المشهد واضحا عن منزل المعلمة المتقاعدة بكل تفاصيله المتقنة، وكأن يد فنان مرت على الاثاث والالوان .

في البداية يفتح الباب الخارجي لتطل منه المعلمة فتضيء الممر العريض المؤدي الى الداخل . وتقف امام المرآة الطويلة تتفحص زينتها ، وتتبادل مع نفسها نظرات الاعجاب ، ثم تتصرف وكأنها تلوم نفسها على هذا الموقف .

المرآة في الستين من عمرها ، ولكنها تظهر اليوم شابة اظهرت السعادة جمالها القديم . ترفع عن عينيها النظارات الطبية التي وضعتها منذ لحظات . تضع معطفها وشمسيتها على المشجب . تطل من جديد على المرآة ثم تخطو نحو الداخل ، لتشعل النور وتلقي نظرة رضى واسعة على الصالة .

الى جانب الكراسي المذهبة الستيل والتي جلست على اثنين منهما دميتان كبيرتان واحدة تمثل فتاة جميلة والاخرى صبيا بملابس سهرة ، هنالك المكتبة الكبيرة والمقاعد المريحة امام جهاز التلفزيون . قفص كبير يحمله عمود فضي يجلله رداء مخملي .

جانب من غرفة النوم ، يظهر سريرا من الخشب العريض تظلله (ناموسية) ، فيبدو وكأنه مهابة عروس ملكية تسكن الغرفة . وفي الطرف الآخر ، يبدو المطبخ حديثا مرتبا .

قرب المدخل ، تعلو الحائط صورتان كبيرتان ، احداهما لرجل معمم هو الوالد ، والثانية لامرأة متلفحة هي أمها . تخطو المرأة بقربها دون ان تلقي نظرة عليها . تتناول سيجارة من علبة ترسل الموسيقى لحظة فتحها . تنصت المرأة لحظة للموسيقى ثم تغلق العلبة ، وتشعل السيجارة ، ثم ما تلبث ان تضعها جانبا ، « تحادث نفسها »

المعلمة : لن ادخن اليوم . ليس اليوم مناسبا للتدخين
(تتطلع الى صورة والدها ثم امها)

المعلمة : لا تحبان لابنتكما ان تدخن (**ضاحكة**) من قال اني ادخن كثيرا . ابنتكما الصغيرة لها امتياز
(تنزع الرداء المخملي عن القفص فيظهر الكناري ساكنا وكأنه ينتظر)

المعلمة : تأخرت عليك اليوم (**تداعب القفص باصابعها**)

(تتطلع نحو الدميتين بنظرة خاطفة ، ثم تعود الى الكناري تحادثـه)

كانت الحفلة عظيمة . عظيمة ولا تنسى .

جلست في الصف الاول . المكرمون في الصف الاول

(بمرح الشباب) اعطيت الحفلة حقها ، فكنت لا اتحرك وكأني في مأتم ، وكان الخطباء يتحدثون بحماسة . الواحد تلو الاخر .

(تتنهد وكأنها تتذكر) ما الطفهم من قوم .

الاستاذة عائشة . . الاستاذة عائشة ، رمز العطاء والتضحية، استاذة اجيال يقفون في كل لحظة احتراما لجهدها

(الى الكناري) هل تحب أن تستمع الى كلمات التكريم

(كمن يتذكر شيئا نسيه تتجه الى محفظتها التي تركتها في الداخـل)

كلام لطيف وهدية . لا بد انها هدية جميلة

(تخرج علبة من المحفظة ، لتفض عنهـا الورق الملوّن . تتفحص ساعة اليد التي ظهرت لها . تضعها على معصمها ، ثم تستمع اليها باذنها)

المعلمـة : نبض الساعة ضعيف

(تقرب الساعة من الكناري)

هل تسمع ؟ انه نبض ضعيف . ولكنها دقيقة على ما يبدو . كلما خفّ نبض الساعة فهذا يعني انها مهمة **(بأسى مرح)** هل انا مهمة لان قلبي بات ضعيفا . خرافة . من يقول مثل هذه الاكاذيب . هل تصدق هذه الخرافات . يفترون على العلم . هـل تسمع دقات السـاعة **(من جديد تصغي الى الدقات)** هدية النقابة للمعلمة المتقاعدة .

(تجلس على المقعد تتامل)

لقد تقاعدنا . هذا يعني اننا فعلنا اشياء لها قيمة وجاء وقت الراحـة

(تتطلع الى الكناري وتقلـده) كوكو .. كوكو . اما زلت تخاصمني لانني غبت طويلا عنك

(تداعب نظارتها الطبية المعلقة بسلسلة فضية)

المعلمـة : بات لنا وقت كاف كي نقرا ونستمتع **(باصرار)** لن اقرا بعد اليوم اي كتاب له علاقة بالكيمياء . ثلاثون سنة كيمياء ، اليست كافية ؟ حمض الكلور .. احماض تذيب كل شيء

(تدور حول القفص ثم تتجه نحو النافذة)

اذابنـا حمض الزمن **(الى الكناري)** اذابنـا حمض الزمن يا عصفوري الوحيد الجميل .

(بمرح) ها هي ايام الربيع تبتدا تسجل ربيعا جديدا . سنجلس سوية، انا وانت ، على الشرفة نتشمس

غناؤك يام الدفء يحرك كل شيء . غرّد

(باسى خفيف) كانت تحبك كثيرا . امي كانت تحبك

(بشيء من الراحة) الآن ، لم يبق لك سواي .

(بمرح) ايها الشيطان الصغير ، كنت تعرف جيدا كيف تسعدها وترضيها . تغني لها في لحظات الوحدة ، فتبتسم لك وحدك . لم تكن تبتسم بسعادة الا لك .

(بحزن خفيف) المسكينة .. في اللحظات الاخيرة ، كانت توصي بك . يا عائشة .. يا ابنتي ، الكناري في رقبتك . لا تنسي الماء فالبلابل تموت دون انذار اذا ما احست بالعطش .

(يغلب عليها الحزن) ماتت من غير انذار . كانت هنا تجلس. تتابع التلفزيون بكل احاسيسها ، وفجاة شهقت . هل تذكر؟

(تمسح دمعة خاطفة) كانت تحبك **(تداعبه باصابعها وتصفر له)** وانا الا احبك !

(تشعل سيجارة دون وعي منها) تذكرتك اليوم في الحفلة ، والخطباء يتحدثون . صوتك اجمل . وذاك الشاعر .. كان مؤثرا ومتأثرا ، ولكنك تؤثر اكثر .

(تتذكر جملا من الخطب فتحاول تقليدها)

المعلمة : اجيال من طالبات هذا الوطن ، مئات وآلاف ، منهن من درس الطب والصيدلة ، ومنهن المعلمات ، ومنهن ربات البيوت ، والفضل كله يعود لجيل من المربين والمربيات ، لاشك في ان الاستاذة عائشة **(تصفق ..)**

(تضع شريطا في المسجلة وتستمع اليه)

التسجيل: (تصفيق) وها هي اليوم استاذة الجيل بيننا بعلمها الغزير وتواضعها الجم ، وكانما الشاعر الذي قال : قم للمعلم وفه التبجيلا / كاد المعلم ان يكون رسولا . كان يعني بشعره هذا الاستاذة عائشة الدخاني ، التي ضحت بحياتها واعطت اجمل ايام حياتها لمهنة التعليم **(تصفيق)**

(تقفل المعلمة آلة التسجيل ، وتردد ببرود)

المعلمة : عائشة محمد الدخاني التي ضحت بحياتها واعطت اجمل أيام حياتها **(تمشي في الصالة وقد عقدت كفيها خلف ظهرها . توقف فجاة)** نشرب القهوة **(تمشي خطوة)** كأس من اللبن افضل .

(تدير التلفزيون وتمضي الى المطبخ . في المطبخ تظهر وكانها تعد كاسا وتحادث الكناري من موقعها)

المعلمة : هل تعلم من قابلت اليوم في حفلة التكريم . لن تصدق .عائدة. لاتعرف من هي عائدة ! افضل طالبات المدرسة ، بل افضل

طالبة مرت علي . هي الان مدرسة الفلسفة . البنت كانت منطقية منذ ايام الدراسة ، وكانت جميلة

(تتحرك حاملة الكاس)

اجمل بنات المدرسة

(تدخل الى الصالة لتلقي نظرة على التلفزيون ثم تقفله)

ولكن اربعة اولاد تفقد المراة جمالها ، فلم يبق لها شيء سوى الفلسفة

(تستند براسها الى ظهر المقعد . ترسل آهة)

المعلمة : لم اعرفها في البداية . اقتربت سيدة محنية الظهر قليلا مني، وقالت مساء الخير . لم اخطيء عينيها ، ما زالتا تبرقان بذاك الشيء الذي لااعرف له تسمية (مستدركة) في الماضي كنت احس بمثل هذا التفاعل . حمض الدهشة مع معدن السعادة والفرح .

(كمن يحادث نفسه باحثا عن حقيقة ما)

المعلمة : اليوم ، ياعائشة ، كان ذاك البريق خجولا في عيني عائدة ، ولكنه كان موجودا ، وانا واثقة من سلامة نظري واحساسي . المعادلة صحيحة ، ولكن العناصر هي التي تغيرت . هل تتغير كيمياء الانسان بمثل هذه الطريقة ؟

(تمثل في الصالة بعد ان تعيد السيجارة التي كادت ان تشعلها)

المعلمة : حمض الاستسلام مع معدن الحزن

(الى الكناري)

لن تعرفها لاول وهلة . وهذا ماحدث . ولكن جمال المراة لايختفي تماما . هتفت فرحة بلقائها ، مازلت جميلة ياعائدة .

فقالت بصوتها الذي غلب عليه الحزن ، ومن اجمل منك يااستاذة عائشة . قلت لها وانا اقبلها ، قولي ياعائشة فنحن الان زميلتان . تمتمت بخجل ، ياالهي مااجمله من خجل ، علمتنا اشياء اكثر من الكيمياء ، ومنك عرفنا جوانب من الحياة .. حقيقة الحياة . انت استاذتنا ومعلمتنا ، ولايمكن ان تكوني في مكانة غير التي خلقت لك

(تمشي في الصالة وقدوضعت سيجارةفي فمها دون انتشعلها)

الملمسة : كانت بانتظاري عندما انتهى الحفل . قبلتني من جديد ، فبللت وجهي دموع رطبة غطت خديها . قالت انا سعيدة بك، وسعيت الى هذا المكان كي القاك بعد كل تلك السنين الطويلة، فانا لااخرج عادة من بيتي الا للعمل .

(تحادث الكناري)

الملمسة : خرجنا نمشي خطوات قليلة . قبلتني من جديد قبل ان نفترق. وجدت نفسي اسأل عائدة ، عائدة هل انت سعيدة . قالت لي ، ماعدنا نبحث عن السعادة . وافترقنا

(تمشي في الصالة . تلقي نظرة على الدميتين . تتفحصهما)

الملمسة : كيف يمكن لها ان تحقق السعادة . المسكينة ، ولد اقعده الشلل ، وزوج يترنح مخمورا في كل ليلة ، وعندما يرتمي جثة على الفراش ، ينشج بالبكاء محتجا علـى كـل شيء . تحادثه المسكينة مواسية ، ولكنه يظل يندب حظه في وظيفته وحياته ، ولايلبث ان يقبل كفيها مستعطفا ، ثم يغفو . وهكذا تتكرر الايام .

(تخطو خطوات عصبية . ترمي براسها الى الوراء ، ثم تستوى مفكرة) .

المعلمـة : هل اشكر الله على اني لم اتزوج ، ولم انجب اطفالا

(تجلس على المقعد)

مالك والهم ياعائشة

(الى الكناري)

طلاب وطالبات من كل مدينة ، كانوا ابناء لي . تحبهم عن بعد . لاتحمل هما ، لايمرض احد او يفشل في دراســة او عمـل

(تنهض حاملة الكأس لتعيده الى المطبخ وهي تتحدث)

عائدة الحلوة / لماذا اختلفت المعادلة / اختلط البريق بالبريق .

(تعود من المطبخ لتحادث الكناري)

المعلمـة : المسكينة عائدة تفكر بالراحة . لنقل انها تستحق الراحة . لكن خدمتها غير كافية للتقاعد . .

(لنفسها وهي تضع النظارات على عينيها)

هاانذا احصل على الراحة ، ومازلت قادرة . انهيت سني الخدمة بالتمام والكمال واكثر .

(تضرب فخذيها بكفيها وتقف . تذهب نحو برميـل نبتـة الكاوتشوك تتفحصها بدقة) .

المعلمـة : غبار . . غبار . . المسكينة دوما يغطيها الغبار

(تمرر اصابعها على واحدة من الاوراق الخضراء لتمسح الغبار وتتامله باسى) .

غبار . . غبار . قد يخنقك الغبار ياصبية

(تخرج منديلا من جيبها تمسح بها ورقة خضراء بعناية)

يكاد لونك يهرب . من فعل بك هذا ؟

(تفاجأ بورقة تسرب الاصفرار اليها فتشهق)

افي الربيع ورقة تموت !

(تقطع الورقة ببطء مرتعشة وتضمها الى صدرها)

الخبيثة . البنت ماعادت تنفع ، تأخذ اجرتها كي تهملك . الف مرة قلت لها الا تهملك . الغبار قاتل . الكاوتشوكة قبل كل شيء ، ولكنها لا تسمع . سأعاقبها غدا . صدقيني فأنا سأعاقبها .

(تعاود مسح الاوراق بمنديلها)

لاتحزني ، فأنا التي سنعتني بك منذ اليوم . ورقة ورقة

(تظهر الدهشة .. ومن ثم الفرح على وجه المعلمة)

ورقة جديدة تتفتح .. ياالهي

(تنحني على الشجيرة تتامل باعجاب)

ما اجمل تلك اللحظات التي تولد فيه ورقة

(تمشي مزهوة لتخاطب الكناري)

البداية هي الجمال . ان تخرج ورقة من غصنها ، اليس جميلا

(تجلس وكأنها تتذكر)

المعلمة : البدايات .. البدايات . وانت صغيرة ياعائشة ، صغيرة مثل النبتة تتفتح مع طلوع الشمس كل يوم ورقة . عيشة تضحك / عيشة تغني / عيشة جاءت من المدرسة / عيشة غن لنا .

(تمشي مزهوة لتقف امام مرآة صغيرة)

ضفائر عيشة / عينا عيشة / قوام عيشة .

مثل زهرة الياسمين تتفتح انوثة عيشة ، بسحر وثقة . قالت خالتك ، الصبية مبكرة فعجلوا بها . صاحت جارة ذات مرة ، خبئوا ابنتكم في البيت ، رجالنا عيونهم فارغة .

(تضحك وقد بدت كصبية وهي تتجه نحو غرفة النوم .

يسمع صـوت جرس الباب الخارجـي فتتوقف . تتطلـع مستقربة ثم تتجه نحوه والجرس يقرع للمرة الثانية . تفتح الباب . وكانها تحادث شخصا في الخارج) .

المعلمـة : نعم ، هنا منزل السـيدة عائشة الدخاني

(تمد ذراعيها لتتسلم سلة الزهور تضم عيدانا طويلة مـن القرنفل الاحمر . تحملها لتضعها على رف المشجب . ثـم تهتف) .

المعلمـة : انتظر لحظة من فضلك

(تفتش في محفظتها . ويبدو انها تخرج نقودا تذهب بها نحو الباب) .

لحظة من فضلك

(تقف حائرة تبحث عن الذي احضر سلة الزهر ، ويبدو انه قد اختفى ، ولكنها تنادي عليه)

انت يااخ .. ياسيد .. ايها الشـاب (**لنفسها**) اين ذهبت ؟

(تعود خطوة الى الداخل)

كان واقفا عند الباب ، وكنت اعلم انه بانتظار البقشيش

(تهز بكتفها ، وتغلق الباب من خلفها ، وتقف لتتأمل سلة الازهار . تحملها بين ذراعيها معجبة وتمشي بها باحثة عـن مكان . تضعها على جهاز التلفزيون ، ولكنها ماتلبث انتحملها لتضعها على الطاولة بقرب المقعد . تجلس تتأملها ، ثم لاتلبث إن تنحني تشمها ، ويبدو انها تفاجأ ببطاقـة صغيرة بـين الازهار .

تقرأ البطاقة بصوت منخفض ، ثم بصوت مرتفع)

المعلمــة : ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة .
ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة !

(تضم البطاقة الى صدرها بمحبة ، ثم يظهر التوتر علــى وجهها)

المعلمــة : **(مرددة)** ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة

(تسد بالبطاقة فمها ، وترمي براسها الى الخلف تفكر)

المعلمــة : قرنفل احمر لعائشة / قرنفل .. ياالهي / سنوات طويلة لم يدخل القرنفل الاحمر بيتك ياعائشة / اجمل وردة .. اكثر الورود كبرياء .

ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة .

ياللتلميذات الطيبات ! تذكرن استاذة الكيمياء القاسية . لم اكن بمثل تلك القسوة ، ولكني قسوت عليهن من اجل معرفة الحياة . الحياة هي الكيمياء . نفهم سر التفاعل ، فندرك معنى الحياة ، وكنت اريد لطالباتي ان يفهمن الحياة .

(مبتسمة تتذكر)

ياللصغيرات ! في البداية ترتسم الدهشة على عيونهن ، ثم تظهر المحبة واضحة . كم اسعدني ذلك

(تردد)

ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة

(تتساءل بحيرة وهي تعض على اصابعها)

المعلمــة : ولكن من ارسل القرنفل الاحمر ؟ طالبات اية سنة . ليتني اعرف لارد لهن الجميل .

مالاسعدني بهن . ثلاثون سنة او اكثر . . والاف الطالبات .
وانا الان لا اعرف من المرسل

(تعاود قراءة البطاقة)

لابد انها واحدة من طالباتي . باللخط الانيق ، وكأنه حروف مطبعة . ليبق / شعاعك / ابد الدهر / ياعائشة

(علائم تفكير مفاجيء وكأنها اهتدت الى حقيقة)

المعلمة : ياالها من خبيثة لطيفة ، وربما ياالهن من خبيثات لطيفات ، زميلات التدريس . ازدن اشعال نار الظن في اعماقي . الان يتذكرون الاستاذة عائشة .

(تأخذ قرنفلة تغرزها في شعرها وتتطلع الى المرآة)

المعلمة : عائدة ! لا . . لايمكن ، فالمسكينة غارقة في بحر همومها . تلميذة مثل عائدة باتت زميلة

(فجاة تتوقف وتهتف)

لابد انها النقابة

(بعد لحظة ، متراجعة عن قرارها)

ولكن النقابة احتفلت بي اليوم

(الى الكناري)

من تراه ارسل القرنفل الاحمر الى صديقتك الوحيدة عائشة؟

(تتحرك باتجاه غرفة النوم وهي تردد)

من تراه ارسل القرنفل الاحمر الى صديقتك الوحيدة عائشة؟

(تظهر وكأنها تخلع عنها ثوبها لترتدي روب المنزل ، وتعود بمرح)

المعلمة : من تراه . . من تراه .

(من جديد تتوقف امام سلة الازهار ، وهي مازالت تردد تساؤلها بشيء من السعادة . الا انها مالبثت ان تتوقف)

المعلمة : هل يمكن .. هل هو .. اتراه هو الذي ارسل القرنفل الاحمر؟

(بحماسة وهي تدور على نفسها تضم البطاقة الى صدرها)

وحده الذي يعلم اني مغرمة بالقرنفل الاحمر

(تردد بلهفة)

ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة

(تأخذ السلة الى حضنها وتدور بها وكأنها ترقص مع حبيب)

ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة

(تقف امام القفص تلهث)

المعلمة : لقد نسيت عائشة الرقص . كانت ايام التانجو .. والان لا استطيع ان اجاريهم في رقصهم واهتز كالريشة

(تستلقي على المقعد مستسلمة لذكرياتها)

المعلمة : ياللايام ! ايام الصبا .. يوم كانت امي تدعوني للرقص امام الاقارب والصديقات ، وكنت احمر خجلا . تمايلي ياعيشة

(تقف والبهر بالماضي يجرها الى الحركة فتتمايل)

تمايلي ياعيشة . غني ياعيشة . احب الغناء بصوت خفيض. ارفعي صوتك ياعيشة ولاتخجلي . من يخجل من صوته الحلو تقول عمتي ، من اجل خاطري اسمعيني صوتك ياعيشة .

واغلق فمي ثم اتوقف عن الرقص والغناء . ولا ينفع رجاء او اجبار . عائشة عنيدة ، اذا قالت فعلت . عيشة تعلم انها محبوبة فتتدلل .

(تستعرض المعلمة الكراسي المذهبة . وكانها تقدم الاحترام للضيوف ، تنحني ، وتقبل وجنات الجالسين على الكراسي)

المعلمة : اهلا خالتي . مساء الخير . شكرا علية خانم .

(تستوي واقفة)

المرحومة ، طالما تمنت ان لاتستخدم هـذه الكراسي الا يوم الخطبة .

(تتقدم من سلة الازهار ، وتظهر وكانها تفرق فيها متاملة)

المعلمة : وحده الذي يختار مثل هذا القرنفل . من غيره يرسل هـذه الازهار . من غيره يختار مثل هذه القرنفلات واحدة واحدة

(تهتف بفرح)

ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة .

هو لاينسى ابدا . **بالغبائك ياعائشة** ، كان علي ان اعرف انه هو الذي ارسل الزهور .

يالك من جاحدة ياعائشة . تنسين ! من ينسى

(تمشي باتجاه المكتبة وكانها مسحورة . تفتح خزانة فيها ، لتخرج بيدها الممدودة رزمة من الرسائل التي يلفها شريط حريري)

المعلمة : **(تهتف بهدوء)** ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة

(تهتف بقوة) ومن غير احمد يتمنى للشعاع ان يبقى !

(تفك المعلمة الشريط بلهفة ، وتخرج رسالة من ظرف وتقرا)

المعلمة : اليوم ، وانا اقطع الطريق من رصيف الى اخر ، لم اكن كعادتي اتطلع حوالي محاذرا من مرور سيارة مسرعة ، فلقد كنت افكر بعائشة الحبيبة . ياعائشة التي احبها .

(تتابع المعلمة القراءة دون النظر الى الرسالة وكانها تحفظها عن ظهر قلب)

ياعائشة ، هل تعلمين ان اسفلت الطريق لم يكن داكنا كعادته.
لقد بدا لي في تلك اللحظات وكأنه مفروش بالقرنفل الاحمر
الذي تحبين . ياعائشة ، وكانت خطواتي على الطريق محسوبة
في حقل القرنفل ، انقل قدمي من مكان لآخر وكأن الارض التي
امر بها حقل ذكرياتنا ، فكنت اخشى ان امس شيئا منها .
(لنفسها تتكلم)

المعلمة : حيرني احمد ، رقيق كزهرة ، صلب كالحجر الصوري
(تسحب رسالة ثانية وتبدا بقراءة مقاطع منها)

المعلمة : رسالتك ، ياحبيبة القلب ، الاخيرة . .
(لنفسها مبتسمة)
من يصدق كل هذا . . ولكن احمد لا يكذب
(تابع القراءة)
لم اكتف بقراءتها مائة مرة ، بل جعلت انسخها من جديد بخط يدي
(لنفسها تبدو السعادة على وجهها)
من يصدق ان طيارا يفعل هذا . ينسخ الرسائل من جديد !
(تتابع القراءة)
وكنت استمتع بكل حرف كنت قد صنعتيه بيدك .
وباللمفاجاة ياعائشة ، كان خطي على الورق لايختلف في شيء
عن خطك . ياالهي فلقد اغرمت بالقلم وبأصابعي ، وقلت لنفسي
لقد افلحت يااحمد في ان تتمثل عائشتك الرائعة
(لنفسها)
كنت اعلم ، بل كان علي ان اعلم انه هو الذي ارسل القرنفل الاحمر
(تمتد يدها لتسحب رسالة اخرى ، تدور بها وهي تقرا)

المعلمــة : عائشة ياطفلتي الحلوة ويا امي الحكيمة

(لنفسها ضاحكة وهي تتذكر)

كادت تلك العجوز مديرة المدرسة ان تشعل نار الفضيحة وهي تلقي القبض على القرنفلات الثلاثة وتلوح بهن في وجهي

(تقلد المديرة) يااستاذة يامربية ،هنا مكان لنشر الفضيلة والعلم ، وليس مكانا لتبادل الحب والازهار . قرنفل احمر؟ ياللفضيحة !

(تبتسم وكأنها تحادث الكناري)

قلت لها ، القرنفل من خطيبي . فنظرت الي بعينين لايمكن لي ان انسى اللوم فيهما ، ثم لم تعلق بكلمة .

(تضم الرسالة الى صدرها)

احمد لم ينس مرة واحدة ان تمر مناسبة دون قرنفل

(تتابع القراءة)

وانا اطير في السماء ، ياعائشة ، اعلم اني في جنتي ، بين احضانك . وعندما اكون على الارض ، احس بانك السماء بفسحتها التي لايحدها بعد . لااعلم ماذا اقول لك ايتها الارض العلوية

(لنفسها)

كانت المرحومة تتخوف دوما من ذلك الحب . تقول الحب فضيحة لايسكتها الا الزواج

(تتطلع الى الباب الخارجي ، وكأنها تدعو احدا للدخول)

المعلمــة : ادخل يااحمد . اهلا بك في بيتنا . بعد قليل يأتي بابا .ماما. . اقدم لك احمد **(تتقدم خطوة وكأنها تاخذ بيد احد لتقدمه الى اخر)** برهن لامي التي ستحبك ان الحب ليس فضيحة .

اترين ياماما ، انه يحبني ، وستحبين احمد انت ايضا .
الم اقل لك انه رجل حقيقي لايعرف الغش . الا تتحدثين الا
عن الخديعة . هل يعرف احمد سوى الحب (**بحدة**) ماما . .
مدي يدك الى احمد . سلمي عليه ان كنت تحبين عيشة .
ماما . . سيصبح زوجالابنتك . . ابنك . لاتعتب عليها ياأحمد،
فقلبها الطيب سيتسع لك . ماما . . سيكون لك ولدان منذ
الان (**متضاحكة**) لابد انك مازلت غاضبة من رسائله . تقولين
لايحق لاحد ان يكتب رسائل الى احد الا اذا كان زوجا او
قريبا . كل المحبين يكتبون رسائل صادقة . اعتقد انك
ستغضبين اذا قلت لك اني اكتب اليه ايضا . لن تصدقي
انه لن يخدع ابنتك الا اذا حضر اهله لخطبتي . حسنا ،
فهم سيأتون . قولي نعم وهم يأتون . ماما . . اتوسل اليك
الا تتحدثي بعد اليوم عن الخديعة

(وهي تتمتم نحو مقعدها . تجلس لحظة ، ثم تهب واقفة)

المعلمة : الخديعة . الخديعة .

ياالهي . . الم يكن هناك غير احمد ؟

الخديعة . الخديعة

(تسد اذنيها بكفيها وكانها لاتريد ان تسمع دويا هائلا)

السماء خدعت الطائرة / الطائرة تخدع احمد / الموت يخدع
عائشة . عيشة ياعيشة / انتهى كل شيء

(تمسك راسها بين يديها وتبكي . تلقي نظرة يائسة على ماحولها ، وتمشي ببطء جنائزي باتجاه غرفة النوم)

ليبق شعاعك ابد الدهر ياعائشة .

اي شعاع بقي لك . انني لاارى شيئا

(تبدو كالعمياء لوهلة)

لقد انطفأ كل نور . انتهى حفل التكريم وسقطت الطائرة
على رماد الارض والنار هي الظلمة
(تردد ببرود)
وهاهي اليوم استاذة الجيل بيننا تقف شامخة
(لنفسها متسائلة)
اين اقف يااحمد / هاهي النهاية . .
(تدخل غرفة النوم لتقف عند حافة السرير وتهتف ببطء)
اريد ان اموت ايضا
(تستلقي على السرير)
الموت مكافأة لاترد / الظلمة . . ايتها الزهرة . ياقرنفلتي . .
(تلبث ساكنة بلا حراك فترة طويلة ، وذراعاها معقودتان على صدرها وكانها جثمان سجي كي تلقي عليه النظرة الاخيرة ؟

(يسمع صوت الكناري قويا مشاغبا . تستوي المعلمة في جلستها بتباطؤ ، ثم تقوم واقفة لتتجه نحو القفص)

المعلمة : ماذا جرى لك . لا ينقصك شيء . ماء . . طعام . آه . . لا بد انه الربيع **(مبتسمة بضعف)** لا بد انه الربيع **(ضاحكة برقة)** لن احرمك من حبيبة . كن هادئا ولاتغضب . حسنا ، فلن اتركك وحيدا . الا تصبر حتى الصباح . ساجمعك بحبيبتك غدا . اهدأ الان ودعني انام ، فيومي كما ترى كان حافلا بكل شيء
(تلملم الرسائل لتعيدها الى مكانها في المكتبة)

المعلمة : غدا . . صباح جديد
(تعود الى القفص)
ايها الطائر الجميل . . الن تهدأ قليلا . تصبح على خير . .
هيا . . واهدأ . . اهدأ . . .

ستـــــــــــار

حلب / نيسان / ١٩٨٢

قصة

لكنها أشياء منسية

فاضل الربيعي

كنا داخل سيارة اجرة صغيرة . عيوننا مسمرة بعضنا في بعض ، ربما ثمة احساس يوحدنا جميعا ، ذلك اننا كنا قد نسينا شيئا ما ، شيئا يمتلك ترى مايكون ؟

نحن بالمرة ، لانستطيع تلمسه مثلما نتلمس حافة المقعد ، او زجاج النافذة او الايدي التي تمد الينا لتصافحنا في الشارع ، المنزل ، الزقاق ، السينما . او اي مكان اخر هذا . ماكنا نشعر به ويشعرنا ايضا بذلك الفشل المرير في اقتفاء اثر شيء هلامي زئبقي ، يفلت منا او يذبل في ذاكرتنا مثل زهرة النرجس او يموت مثل عطر نسائي بعد ليلة متعبة . اذن نحن جميعا ننسى شيئا ما ، لكنه يتوزع بيننا فانا مثلا : انسى عادة اشياء غير التي تنساها هذه المراة التي تجلس قبالتي . انه امر مذهل حقا .

لكنني المحه الان مثل البرق ، مثل الدهشة . يتارجح في العيون المفتوحة . على الشارع . ثمة امراة تغفو في مقعدها ، تترك يديها بين فخذيها وراسها يكاد يسقط بهدوء على زجاج النافذة الصغيرة ، رجل يتوسط المقعد . وقبالتي امراة اخرى تشاركه . كانوا ثلاثة مفعمون غضبا يكرهون الحدائق العامة ، وراكبي الدراجات الهوائية .. والملصقات الجدارية ، ربما كانت تلك المراة هي الوحيدة التي تغفو في مقعدها او انها الوحيدة الخائفة النائمة التي نسيت شيئا وظلت تبحث عنه في احلامها التي لم تعد تراودها .

في مقعدي كنت اضع اصابعي على وجهي . دون ان اعرف لماذا يحدث ذلك ؟ امراة مسيحية تجلس قربي كانت تصفف شعرها براحة كفها اللدنة وتحدق في . اثنان اخران كانا يفرقان في حديث هامس . يبتسمان وهما خجلين . كانا يتذكران اشياء كثيرة . سرعان مايحاولان تذكرها لكنها تتلاشى . مثل قطرات الندى . كانا يحسان بالتعب اللذيذ في تذكر اشياء ليست بعيدة .. انها قريبة ، وليدة هذه اللحظات .

ـ هل يفوتنا القطار ؟
ـ لاادري
ـ الساعة السادسة طبعا ؟
ـ اعتقد .
ـ اوه لقد نسيت حقيبة السفر
ـ اين ؟
ـ لاادري انها اماكن كثيرة ..
ـ الفندق .. المطعم . السينما .. باب المعظم ، شارع الرشيد .

نزلا من السيارة الصغيرة بسرعة من دون ان ينتبها الى ركاب السيارة اما نحن فقد كنا مشغولين جدا ، في تذكر اشيائنا المنسية . كانت المراة المسيحية قد كفت عن تصفيف شعرها ـ المراة النائمة استيقظت الان

والرجال الغاضبون ، كانوا يحيون راكبي الدراجات الهوائية ، الذين مروا قربنا على رصيف الشارع المقابل والسائق نسي انه قد خسر اثنين من ركاب السيارة دون ان يطالبهما بدفع الاجرة ، تحركت السيارة ثانية .. اذن : فقد كنا ننسى أشياء عديدة .

كان التوحد يلازمنا .

انها دائما تؤرقنا . تشعرنا بالخسارة والقهر . كانت الساعة السادسة مساء وساحة التحرير تعج بالكثيرين من رواد الحانات . السينما ـ الفنادق ـ المحلات العامة ـ كان النصب التذكاري لجواد سليم ، يواجهنا بقوة وبالضبط عند انحدار السيارة من الجسر . كنت احدق فيه من خلال زجاج السيارة الامامي ، افزعني لاول مرة . ذلك الحصان الجامح . الملتصق بقوة وتحركت مجموعة من الجنود باتجاه غير محدود في الشارع وداخل اللوحة ايضا ، كانت الحرية هي تلك المساحة البيضاء الفارغة التي تركتها كل هذه الحركة . التي قام بها الجندي ـ رجل الشارع . العامل .. المتعب .. الشارع ـ الحصان .. وبقيت اتحسس بصمات اصابعهم تطبع لنا شارة الحرية فوق صدور الصبية الذاهبين الى مدارسهم .

فجأة صرخ جندي داخل السيارة :
ـ اوه .. عذرا . لقد نسيت بندقيتي .
ـ ايـن ؟
ـ ربما في المنزل
ـ امتاكـــد ؟
ـ لا . ربما في المعسكر .
ـ لكـن ..؟
ـ عـذرا ..

نزل الجندي .. كان هناك زحام خطير فوق الجسر ، بالضبط عند مدخله . توقفت حركة المرور حين نزل الجندي .. كانت صافرة شرطي المرور تلاحقه ، فررر .. فررر .. فررر . ربما كان يقول له اشياء كثيرة . لماذا لماذا هنا يخالف .. لماذا .. لماذا .. لماذا .. لماذا .. ؟ فررر . فررر . فررر .

كانت المرأة داخل السيارة تغفو ثانية . كأنها تصر على ان لا تشاهد النهر . ــ او المراكب والشحاذين فوق الجسر ــ او الجندي الذي هرول ولاحقه شرطي المرور . كان عليه أن يقذف بنفسه في النهر وكان أن فعل ، كان ذلك مدهشا فقد هرول كثيراً وكان الزحام يشتد وصفارة الشرطي تصهل مثل الحصان الجامح عندئذ قفز الجندي فوق سور الجسر الى الماء وسط صيحات الاحتجاج وتوسلات الشحاذين وبائع السكاير والعلك .

ــ حسنة لوجه الله .
ــ فررر .. فررر .. لماذا تخالف ؟
ــ انه يقفز الى الماء .
ــ هل تجيد السباحة .؟
ــ احذر ستبتل بالماء .
ــ احذر ستبتل بالماء .

لكن لم يكن يشعر بايما شيء ، فقد القى بنفسه في النهر ببرود لا مثيل له عندئذ انفض الزحام . واستمرت السيارات تهبط الجسر . وعاد الهدوء . كان الغضب قد انطفأ وكذلك الدهشة ، الجثة الملفوفة بالكاكي ظلت طافية مع السجلات الرسمية واوراق المعاملات التي كانت طافية في النهر ايضا ربما كانت قد رميت من هذه العمارة . او تلك لا احد يدري ...

كانت المرأة تبحث في راسها عن اشياء منسية مثلنا تماما . وكنا نحن غاضبين وهي الوحيدة ، النائمة الخائفة .

عند مدخل شارع السعدون ، توقفت السيارة بفعل الزحام الذي عاد ثانية ، فكرت بهدوء المنفيين المهجورين على الارصفة مع الكتب السياسية والمجلات الجنسية . انهم بلا شك ينتظرون شخوصا ما . ربما نسوا مواعيدهم — فالساعة جاوزت السادسة وهم يحدقون في معاصمهم يبحثون عن عقرب الساعة يتبادلون الشك في صحة الزمن المرسوم ، انه مخدوع مثلهم . فالموعد لم يفت بعد لكنها بالمرة تلك .. الحقيقية الثابتة المتحركة ثمة « اشياء مهمة » ننساها عادة

فجأة صرخت المرأة التي كانت تغفو في مقعدها :

— اوه .. لقد نسيت طفلي ..

— طفلك اين ؟

— ربما في قطار السماوة

— ربما البارحة مساء ؟

— ان هذا فظيع

— ان هذه حماقة

— ان هذا غير معقول .

نزلت المرأة .. وعاودني ذلك الاحساس بالنسيان . وكنت بحكم تلك الرغبة المحمومة . في تقصي العواطف الذابلة ، متهما انا الاخر بالاهمال، بأنني متروك ، منسي أو مهمل ومهجور . وقد هبط المساء الآن .. تدلى مثل غصن عطش . وتمدد في أسفلت الشارع ونام في عيون الشحاذين (العميان) الذين يملأون الارصفة . كان الكل قد نسي شيئا ما . لاحظ هذا الرجل الذي يقف قبالة بائع الاقمشة :

— لقد اشتريت لتوي قطعة قماش

— هذا حسن

— لكنني نسيتها

— هذا احسن

ـ . و .....
ـ اوه .. حقا انا ايضا نسيت النقود .

انهما الآن بلا شك يتبادلان نكته بذيئة . ثم يفترقان ، الكل ينسى لاحظ ايضا (الطفل ينزلق من صدر امه ويزحف باتجاه الشارع المزدحم بالسيارات ويزحف اكثر . وبالضبط يصير في منتصف الشارع .. كان على شرطي المرور ان ينتبه وبوقف السيارات وكان على سائقي السيارات ان ينتبهوا للمارة ام انهم حسبوه جروا صغيرا وغير آدمي اشك في ذلك) . . لقد نسوا جميعا وكانت السيارة تدور حول الساحة .

ولما يزل نصب الحرية يباغتنا ويفاجئنا بذلك العنف المتوهج المرسوم فوق اللوحة ولما يزل الحصان نافر العنق متحركا باتجاه غير مؤكد ، انتبهت جيدا ، كان صهيل الحصان يصم الاذان ـ على الرغم من ان احدا لم يسمعه من هؤلاء المارة جميعا ـ ربما نسوا ، من يدري ؟ امتدت كل الاصابع ، الارجل ـ الوجوه ـ الاكف مصبوغة بدم احمر قان يتساقط من ضلع طفل صغير مهمل قرب امه في حديقة الامة .

قالت المرأة المسيحية : ـ

ـ هل نسيتم شيئا ؟
ـ قلت انا :
ـ كــلا
ـ قال صديقي :
ـ لا اعتقد
ـ قالت المرأة :
ـ كلا لم تسقط الباروكة .
ـ قال السائق :
ـ حسنا انا كذلك لم انس شيئا

قالت المسيحية ثانية :

ـ نحن منسيون جميعا . لكن ليس المسيح

قلت :

ـ انا املك رأسي

قلنا جميعا :

ـ اجل . لم ننس شيئا

نزلنا جميعا ، وكان الضوء الاصفر . يغمرنا . تحت النصب التذكاري .

لم نتلمس الليل الذي كان مختبئا تحت النيون والسيارات واعلانات الافلام الجنسية . وملصقات الفدائيين والقتلى . وهيروشيما . واطفال فيتنام . وخيام اللاجئين . كنا نذوب بين المارة والشحاذين . والنسوة المريضات . فجأة توقفنا عند اعلان كان يشغل مساحة كبيرة في عمود رخامي . كان الاعلان مليئا برؤوس عديدة ، ومجموعة من المارة ،تزدحم حوله بشكل محموم . وبترقب كانت الرؤوس تمتد نحو العمود . تحاول ان تقرأه . كان الكل صامتا . كنت اعتقد انه اعلان جديد عن القتلى والشهداء الفدائيين . اقتربت اكثر وسط الزحام . نحيت الكثيرين عن طريقي . توسلت الى آخرين وصفعت صبية صغارا كانوا قد ازدحموا ايضا وصلت . وقد جاء دوري لكي اقرأ :

« رينوهير » : دواء جديد للصلع !

ضحكت كثيرا . وغادرت المكان : كان ركاب السيارة الصغيرة . خلفي . سمعت المرأة المسيحية التي تلاصقني وهي تقول :

ـ الباروكة . لقد نسيتها !

وقال الشرطي :

ـ اوه ... لقد نسيت الهراوة

وقال صديقي :

ـ لقد نسيت هويتي

قالت المرأة الاخرى ، المريضة (من بعيد) :

ـ كان علي أن لا انسى

قلت : ـ

ـ حسنا .. هذا يكفي

قلت ذلك وانا اعرف جيدا انني الوحيد الذي لم انس ، رأسي او حذائي او قميصي او اي شيء من هذا القبيل . فجأة كان الكل يغادر المكان، ساحة التحرير تبقى مكانا مهجورا. لم تكن هناك صافرات، سوى صافرات الحراس الليليين تسكت نباح الكلاب وصياح السكارى . اذن لم يكن احد ، اجل ليس ثمة احد هنا وكان علي ان اغادر المكان ايضا اذ ان الكل ينسى ربما حتى نفسه .

بغداد ١٩٧٤

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



دعوة لوجهة نظر عربيّة في الأدب المقارن

د. حسام الخطيب

(١)

تكثر المناقشات اليوم حول ما يمكن ان يسمى معضلة الادب المقارن ، وفي كل مؤتمر من مؤتمرات الرابطة الدولية للادب المقارن
« Association International de la littérature Comparé »
تثار من جديد قضايا نظرية الادب المقارن وخصوصية مناهجه وحدود منطقه ومنطقته .

وكان كاتب هذه السطور قد أسهم في مناقشة هذه المعضلة بشكل مفصل في سلسلة من المقالات ظهرت في مجلة **المعرفة** منذ سنوات(١) وهدفت الى جلاء وجهات النظر المختلفة بالنسبة لنظرية الادب المقارن وما يتصل بها من مسائل . ولم يثر ذلك البحث ما كان يرجوه له صاحبه من مناقشات . ومن‌عجب‌ان تمضي مسائل الادب المقارن هكذا دون مناقشة في الوسط الثقافي العربي والوسط الجامعي بوجه خاص على الرغم من التوسع في تدريس هذا المقرر في الجامعات . وقد اتيح لي الاطلاع على الكتب المقررة للادب المقارن في الجامعات العربية وتبين لي انها جميعا — واكاد اقول دون استثناء — تتكىء على مصدرين اثنين لا ثالث لهما بالنسبة للنواحي المنهجية ، والاول غربي هو كتاب « الادب المقارن » لبول فان تييغم الذي ظهر في باريس عام ١٩٣١ وترجم الى العربية وطبع في مصر في دار الفكر ، وتعددت فيما بعد الطبعات المصورة لهذه الترجمة التي لا يظهر عليها اسم المترجم ولا تاريخ النشر ولا مكانه .

والثاني‌عربي (اللغة) وهو كتاب « **الادب المقارن** » للدكتور محمد غنيمي هلال الذي ظهر في مصر عام ١٩٥٠ وطبع عدة طبعات فيما بعد وحوى — بجهد مشكور جدا — كل ما يمكن ان يخطر على البال في مجال الادب المقارن .

وقد طلعت علينا في نهاية عام ١٩٨٠ مجلة « عالم الفكر » الكويتية بعدد خاص عن « الادب المقارن »(٢) ، اسهم فيه اساتذة جامعيون مختصون مثل الدكاترة : شوقي السكري ، انجيل بطرس سمعان ، رشا حمود الصباح ، محمد اسماعيل الموافي ، نور الشريف ، وغيرهم .

---

(١) انظر : الخطيب ، د . حسام : « الادب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الانساني » ، المعرفة ، القسم الاول ع ٢٠٤ شباط ١٩٧٩ ، القسم الثاني ع ٢٠٥ — ٢٠٦ ، اذار — نيسان ١٩٧٩ ، القسم الثالث ع ٢٠٧ ، ايار ، ١٩٧٩ .

(٢) عالم الفكر ، المجلد ١١ ، عدد ٣ ، اكتوبر ، نوفمبر — ديسمبر ١٩٨٠ .

وقد ضم العدد بحثا واحدا حول النظرية والمنهج للدكتور شوقي السكري بعنوان ، « مناهج البحث في الادب المقارن » ، وأما ما عدا ذلك فان الابحاث الاخرى كانت ذات صفة تطبيقية وتضمنت دراسات عملية موثقة يستحق اصحابها الثناء لما بذلوه من جهد وكد .

ويعنينا هنا البحث الاول للدكتور السكري الذي يمكن ان يقسم الى قسمين واضحين ، الاول بعنوان نظرية الادب المقارن ، والثاني بعنوان : تاريخ الدراسات الادبية المقارنة . وقد خصص معظم المقال للقسم الثاني وظهرت في هذا القسم علامات الاحاطة والبحث المتاني والدقة. اما القسم الاول ـ والتقسيم من عندي كما هو واضح ـ فانه يتصف بغنى المعلومات ولكنه يشكو من عدم ضبطها وتوظيفها ، وفي خلال العرض يطلف الباحث بوضوح شديد الى منطقة النقد الادبي حتى يخيل الى المرء في بعض الفقرات انه نسي موضوعه الاصلي . وهو يتحدث عن الاجناس الادبية والمدارس الادبية حديثا نقديا (لا مقارنيا) . ويتضح اتجاهه النقدي بقوة حين يتحدث تحت عنوان منفصل عن « علاقة الادب بسائر العلوم والفنون » حديثا لو انتزعه الانسان بكامله من مجمل البحث لما احس ان له اية علاقة بالادب المقارن ولكان حديثا مبدئيا في مجال نظرية النقد الادبي . واخص بالذكر ص ٢١ من المقال حيث يجري الحديث عن ريتشاردز ووليام امبسون وارنست جونز ـ وارنست كرس واريك اريكس وماري بونابرت وغيرهم من اصحاب المدرسة النفسية وتنقطع الصلة تماما باصل البحث . وبالطبع يمكن ان يحدث هذا في كتاب مفصل عن نظرية الادب المقارن اما من خلال عشر صفحات مخصصة لهذه المسألة الشائكة فان الامر يصبح مستهجنا ويتضح من الملاحظة الاخيرة في هذا القسم ان المؤلف انتقل تماما من الموضوع الى موضوع اخر هو « تاريخ الادب ونقده ونظرياته » وفيما يلي نص الفقرة التي ختم بها هذا القسم ، وبدأ بها القسم المتعلق بتاريخ الادب المقارن :

« ومن المستحيل هنا التعرض لجميع المدارس المعاصرة في تاريخ الادب ونقده ونظرياته ؛ الا أن هناك ثلاث ظواهر عامة لابد من الالمام بها في هذا المقام :

أولها ان الادب الحديث يتسع لكثير من الخلافات في التفسير والاحكام ، وثانيها ان النقد الادبي مليء بنظريات متناقضة لا سبيل الى التوفيق بينها دائما ، وثالثها ان ما يصلح من النظريات لدراسة بعض النصوص لا تنطبق بالضرورة على نصوص غيرها ، ولذلك يستحسن تناول الموقف في كل بلد من البلاد الهامة على حدة وبيان تاريخ اهتمامها بالادب المقارن ومناهجه . ولنبدأ بالدولة الاوربية التي سبقت غيرها من الدول في العصر الحديث في هذا المجال وهي فرنسا »(٣) .

ويحار المرء كيف يوصل مضمون هذه الفقرة الى الحديث عن تاريخ الادب المقارن . ويحار اكثر حين يكتشف ان القسم الثاني هو فعلا تاريخ للادب المقارن لا لنظرية الادب والنقد .

وبعيدا عن اية نية لاساءة تقدير الجهد الكبير الذي قدمه الدكتور شوقي السكري في هذا البحث ، ومع تأكيد الاحترام الشديد لغزارة معرفته فان المرء يسمح لنفسه بالتعبير عن شعوره لدى قراءة القسم الاول من البحث بأن هذا القسم بعيد عن روح الادب المقارن وبالتالي عن وضع الانسان في صلب المشكلة . ولنقدم فيما يلي برهانا اخر لان البرهان السابق قد يطعن فيه بأن بعض الباحثين المقارنين يدخلون البحث في نظرية الادب والنقد في (الادب المقارن) وهذا صحيح ولكن بشكل اخر .

في حديثه عن الترجمة يلاحظ الدكتور السكري بحق « ان المدرستين الفرنسية والاميركية تعتبران قضية الترجمة من اهم قضايا الادب المقارن » . ويتحدث في ثلاثة اسطر عن وساطة المترجمين بين الثقافات ؛

---

(٣) المصدر السابق ص ٢٣ .

ويضيف :

« وكثير من اقطاب الادب تصدوا لعملية الترجمة . واصبحت للكتب المترجمة ذاتية مستقلة عن الاصل . »

وهـذا صحيح كحقيقة ، ولكن هـذه الحقيقة تؤلف مشكلة للادب المقارن ، وتكون موضوع دراسة دقيقة من جهة ودافعا للحيطة والحذر من الاعتماد على الترجمة فهي اذن (حالة دراسية Case Study) شائكة وليست موضع فخر واشادة كما يبدو من الجملة التي اردفها الباحث بعد الجملة السابقة وانهى بها ملاحظته الفقيرة جدا حول موضوع مهم في نظرية الادب المقارن كموضوع الترجمة :

« ويحضرنا في هذا المجال الادب العربي مصطفى لطفي المنفلوطي بترجماته الفذة مثل ((ماجدولين)) و ((تحت ظلال الزيزفون)) وغيرهما . والاديب الانكليزي ادوارد فتزجرالد وترجمته الفريدة لرباعيات الشاعر الفارسي عمر الخيام(٤) .

ويتساءل المرء : هل ترجمة المنفلوطي هي النموذج الذي يتطلع اليه الادب المقارن ويعتمده في الوساطة بين الثقافات ؟

- ٢ -

ان قراءة العدد الخاص بالادب المقارن من (عالم الفكر) وندرة الابحاث الاصيلة التي تصدر في هذا الصدد(٥) تدفع المرء الى العودة الى اثارة هذا الموضوع والدعوة الى مناقشته من خلال وجهة نظر عربية مستفيدة

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٥) مع التقدير لكل الجهود الجامعية في تسهيل البحث وتصنيف النظريات وتبسيطها على نحو ما نرى من الكتب المقررة في الجامعات وبعضها حديث العهد جدا ، والاشارة اليها قد تكلف المرء ما لا يطيق .

من التجربة العربية العريقة في ابداع الادب ونقده والتأريخ له من جهة ، ومن تجربة الحضارة العربية في التفاعل والتمازج مع الثقافات الاخرى .

وفيما يلي بعض الخطوط الرئيسية المقترحة للتقرب من هذا الموضوع وهي خطوط مبدئية جدا ويرجى وضعها في اطار بحث :

« الادب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الانساني » الذي أشرت اليه سابقا ، والعودة اليه من اجل التفصيل .

وان الخطوط التالية المقترحة هي مجرد اثارة بسيطة لفتح المناقشة في هذا الموضوع الشائك .

أ ـ خطوط معضلة الادب المقارن من ناحية النظرية والمنهج :

١ ـ ان الادب المقارن نشأ اصلا على اساس الاهتمام بالادب الشعبي والفلكلوري اي بالبنية الاكثر تعبيرا عن الروح المشتركة للمناطق اللغوية .

٢ ـ حين اخذ مصطلح (الادب المقارن) يتبلور في الربع الاخير من القرن التاسع عشر اتضح تماما اتجاهه الى البحث في تاريخ العلاقات الادبية الدولية ، اي تركيزه على موضوع التأثيرات وقد كان هذا التركيز واعيا وله فلسفته الخاصة .

٣ ـ ظل الادب المقارن فترة طويلة متقيدا بمفهوم التأثر والتأثير وفي احيان كثيرة اشاح بوجهه عن النواحي الجمالية وبدا كما لو أن منطقه منطق بحث تاريخي خالص مجرد من النواحي الجمالية ومنطقته هي منطقة التماس الثقافي والادبي بين الامم . اي انه حدد منهجه بما يطابق المنهج التاريخي من حيث التجرد والاستقصاء والدقة والبحث عن البيانات

والوثائق وهذا ما سبب نفور الكثيرين منه . اذ اعتبروه معنيا بالدرجة الاولى بالنواحي الخارجية للادب لا بجوهر الادب ومعناه ، وبعضهم وصل الى التندر عليه بتشبيهه بالشرطة الدولية (انتربول) .

كذلك ارتفعت اصوات عديدة معترضة على ما يمكن ان يسمى بالتزمت في منهجية (الادب المقارن) ، بينما انصبت اعتراضات اخرى على التشكيك في حقيقة وجود شخصية خاصة لمنهج الادب المقارن ونسقه وهدفه من بين حقول البحث الادبي الاخرى ، اي ان الاعتراضات تناولته من خلال زاويتين متعاكستين احداهما تصمه بالتزمت المنهجي والاخرى تفتقد فيه ملامح منهج خاص .

وبرزت بعد الحرب العالمية الثانية وجهة نظر ثالثة تتهم المدرسة الفرنسية التقليدية بانها كانت اسيرة المركزية الثقافية الاوربية ، وانها حاولت ان تسخر الادب المقارن للتأكيد على التأثيرات الثقافية الاوربية في اداب العالم الثالث .

٤ ــ معظم الحلول التي طرحت للخروج من المعضلة كانت تعني الغاء لفكرة الادب المقارن او تحويلاتها حتى تطابق انساقا اخرى من البحث الادبي ليست بالضرورة مجانسة لها تماما مثل (الادب العالمي) و (الادب العام) وهما مصطلحان مائعان بعيدان عن التحديد ، وليس من المعقول ان يتخلى الانسان عن نسق بحثي عميق وجاد ومتجه الى التبلور كالادب المقارن ليتعلق بمفهومات غامضة ومختلف عليها من اساسها . وكان الباحث الاميركي رفاك أكثر الباحثين وعيا لمعضلة الادب المقارن ولهشاشة الحلول التي طرحت للخروج من المعضلة ، ولذلك رأيناه يطور نظرته باستمرار ويضيف اليها اضافات كثيرة ، ولكن من ينظر في صلب آرائه يجد انها تضرب جذورها في المفهوم الاساسي للادب المقارن وهو التأثر

والتأثير ، كما انها تؤكد على أهمية الادب المقارن وعدم امكان التضحية بثماره لمجرد وجود اختلافات منهجية بشأنه .

٥ — من الحق ان نعترف ان الانفتاح الانساني الذي يتحدث عنه كثيرا خصوم المدرسة التقليدية الفرنسية لم يكن قط غائبا عن اذهان كبار المقارنين ، ولكن تدقيقهم في منهجية البحث وتركيزهم في البدء على الامتدادات الخاصة لادابهم القومية (الادب الفرنسي بوجه خاص) هيأ النفوس لقبول/الانطباع العام بأنهم متزمتون وضيقو الافق وها هو م. ف. غويار(*) مثلا يكتب عن (امنية المستقبل) في نهاية كتابه (الادب المقارن) :

« ... ففي الواقع ان كل امرىء يشعر شعورا كافيا بأن المبادلات الثقافية هي احدى الامال الانسانية الراهنة ، وكذلك المقارنة — حين تكتب تاريخ العلاقات الادبية الدولية — تبين ان اي ادب لم يستطع قط ان ينعزل دون ان يضعف ، وان اجمل انواع النجح القومي قد اعتمد اعتمادا دائما على مجتلبات الاجانب ، سواء اكان ذلك النجح يهضمها ، ام كان يبرز ضدها وبفضلها في صورة اكثر وضوحا ، وفي الوقت ذاته نشاهد ان المقارنية تساعد كل شعب على ان يتتبع في نفسه نشأة سرابه ، الذي يتخذ غالبا على انه صور امينة ، وذلك درس في الاستنارة والتواضع له من القيمة ما لدروس التاريخ التي هي مجحودة ، لكنها يقينية وارادة فهمها من شأن كل شعب وكل فرد »(٦) .

وقد جاء هذا الكلام من كاتب اثار ضجة في اوربة وأميركا لشدة تركيزه على التأثيرات الخاصة للادب الفرنسي .

(*) غويار : الادب المقارن ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

ب ــ تفسير وبذور وجهة نظر عربية :

على الرغم من كل الاعتراضات يسير الادب المقارن بخطوات حثيثة في اتجاه التعرف على نفسه من جهة والتوصل الى نتائج ذات نفع فكري عام من جهة اخرى . ويمكن القول انه ابتداء من خمسينات هـذا القرن بدأ نطاق المشاركة في البحث المقارن يتوسع ليتجاوز اوربا جغرافيـا وليجد مجالا خصبا للنشاط في الجامعات الاميركية وكذلك ليجد اهتماما ــ ولو مبدئيا ــ في جامعات العالم الثالث . انـه على الرغم من كثـرة الاعتراضات ، يصادف هوىً في نفوس الباحثين ، وعلى الرغم من تعلقه اصلا بمفهوم التأثير والعلاقات الخارجية فانه يصبح اوسع افقا بفضل رحابة تلك المنطقة من العالم التي يجري مسحها ادبيا وكذلك بفضل مرونة منطقه التي سمحت أن يتناول قطاعا كبيرا مما يقع تحت عنوان (الادب العام) وكذلك (الادب العالمي) دون ان يفقد هويته .

وعلى الرغم من الميل الواضح لدى الاساتذة الكبار في الادب المقارن الى الاقتصار على مفهوم التأثير ، فان نتائج الادب المقارن ــ على اختلاف اتجاهاته ــ اصبحت ذات جدوى واضحة بالنسبة للناقد الادبي الذي يتمتع بأفق انساني وكذلك بالنسبة للمؤرخ الادبي المتجاوز للتحزب المحلي والاقليمي .

وقد رأينا كيف ان الاتجاه الانساني لم يكن غائبا عن أفقهم .

ويبدو لنا انه من الممكن القول ان الادب المقارن منهج خاص في المعرفة الادبية يشترك مع سائر مناهج التقرب الادبي كالتاريخ الادبي والنقـد في منطقة واسعة وفي منطق عام ، ولكنه يتميز عنها بما يؤهله لان يكون فرعا من المعرفة الادبية ذا شخصية واضحة وله منطقة خاصة هي منطقة التبادلات والامتدادات خارج الحـدود المحلية سواء من ناحية المناطق

الجغرافية واللغوية والقومية ، وهذا هو الاصل ، ام من ناحية المناطق الخاصة بأجناس الابداع الفني بوصف ذلك نوعا من البحث المكمل .

ويبدو من التجربة الادبية العربية في الماضي والحاضر ان التركيز على مسألة التأثر والتأثير لا يعني بالضرورة بثا لافكار المركزية الاوروبية ولا خنقا للافق الانساني ، وقد عالج الباحثون الاوربيون الاوائل ما كان ذا اولوية خاصة بالنسبة لهم ولا سيما من ناحية العلاقات الاوربية — الاوربية (فرنسا ، بريطانيا ، المانيا ، اسبانيا ، اليونان الخ . .) وكانوا اكثر اهتماما بالحاضر لان التبادلات في عصرنا الحاضر تكتسب اهمية خاصة في تشكل الاداب القومية .

واذا اردنا ان نتجاوز النظرة الاستعمارية التقليدية فاننا لا نتجاوزها بالخروج عن نظرية الادب المقارن الاصلية ولكن بتوسيع منطقة البحث تاريخيا لتشمل العصور الماضية التي كانت فيها اوربا مستوردة للافكار الادبية والعلمية على السواء . فمثلا اذا ركزنا البحث على التأثيرات العربية الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي او على الشعر البروفنسالي (تروبا دور) نجد ان حركة التأثر والتأثير ذات اتجاهات متعددة خاضعة لقانون تاريخي ، وليست وقفا على عملية التصدير الاوربية السائدة في العصر الحديث . ونحن العرب مؤهلون اكثر من غيرنا لان ندرك ان التاريخ الثقافي الادبي للعالم هو — في جانب كبير منه أي الجانب الذي يعنى به الادب المقارن — تاريخ تفاعل وتبادل وتلاقح .

واذا استطعنا ان نبتعد بنظرتنا المقارنة عن مفاهيم السرقات الادبية وما شابهها وتابعنا الموجات العامة لتأثيرات الافكار والحساسيات الادبية وجدنا أن الادب المقارن يستطيع ان يفسر لنا جوانب مهمة من تطورات الاداب القومية ، وان يضيء لنا اسباب الانبثاقات المفاجئة او الوهدات غير المتوقعة في مجرى تاريخها ، وان يؤكد لنا كذلك على المنطقة المشتركة بين

الاداب القومية من خلال ابرازه للتمايز والاختلاف اللذين ينجم عنهما التأثير والتأثر عادة ، وبالتالي ان يوطد مفهوم انسانية الانسان وانسانية ثقافتـه .

ومن الطبيعي انه كلما امكن التوصل الى مثل هذه النتائج من خلال منهجية بحثية واثقة من نفسها امكن الابتعاد بفكرة التواصل الانساني ـ الثقافي على الاقل ـ عن العاطفية والرومنتية وشطحات التفكير الرغبي .

ومن خلال نظرة مرنة غير متزمتة لا شيء يمنع من دخول الادب المقارن في حدائق التذوق الجمالي والاستمتاع الفني والبحث في الصورة الادبية والخيال والاسلوب والمعجم اللغوي للكاتب وموسيقى النص وما قد يوجد من اوزان عروضية او انساق خاصة في ترتيب الكلام ، وكذلك البحث في الشخصية الروائية وفي قيمها وفي البناء الفني للاعمال القصصية وفي كل ما يمت الى ذلك بصلة ، حيثما اقتضت ضرورات البحث المقارني ذلك ومن زاوية اظهار منطقة التأثر والتأثير ، وبشرط الا يحل الادب المقارن محل النقد الادبي كما يحدث في كثير من الدراسات المقارنية التي يكاد فيها الادب المقارن يشمل كل شيء .

ولا يستطيع المرء أن يتجاهل هنا بالطبع العبارات المتشددة لاساتذة المدرسة الفرنسية التقليدية ، ولا سيما جـان ـ ماريه كاريه ، التي أكدوا فيها على ما يمكن ان يكون تحريم مثل هذه الابحاث الجمالية على الباحث المقارن حرصا منهم على عملية المنهج . ونعتقد ان مثل هـذا التشديد قد فات اوانه ، وما ذاك فحسب لان تطورات الادب المقارن قد تجاوزته ، وما ذاك فحسب لان تجريـد الادب المقارن من التـذوق والجماليات يبعده عن ان يكون ادبا ، بـل كذلك لان تطورات التذوق الادبي نفسه اخذت تبتعد به عن مناخ التأثيرية المطلقة التي كانت سائدة

في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وتتجه الى الوقوف على ارضية صلبة من خلال مناهج ادبية وانظمة في التقرب والبحث تستفيد من المناهج العلمية العامة وتحتفظ لنفسها بخصوصية المعرفة الادبية ، وذلك من مثل (الاسلوبيات) و (اللغويات الحديثة) و (السيمائية) و (البنيوية) وغيرها ...

ولقد قطع الادب المقارن حتى الان شوطا مبدئيا في هذا المجال ، ولكن الخلافات المنهجية ما زالت تعرقل مسيرته ومازالت تمنح ميدانا خصبا لمبارزات ذهنية يمكن ان تكون اكثر فائدة لو انها وجهت من اجل اكتشاف تلك الحقول الغنية من التبادل الثقافي الانساني التي ما زالت اما مجهولة او اسيرة نظريات غير مستندة الى تفحص منهجي سليم .

عن كتابة التاريخ و « أمراء بلاد الشام »

للدكتورة امينة البيطار

عبد الكريم الناعم

في البداية لابد من التذكير بوظيفة التاريخ المعرفية، والتربوية ، عدا مايمكن استنتاجه ، بحيث يعتبر قانونا له مواصفات التطور الاجتماعي ، بما فيه من ملامح بشرية تبدو ، احيانا ، متمردة على الدخول في القانون العلمي ، الطبيعي ، و .. خاضعة له في نفس الوقت، دون ان تتحول الى معادلة رياضية صرفة لصدور معادلات لها مواصفات انسانية عنها .

لا اريد أن ادخل في امداء فلسفة التاريخ ، بل اردت التذكير بالفاعلية الانسانية فيه ، كما اردت تسليط الضوء بشدة على القيمة التربوية ، والقومية منها بصورة خاصة ، فنحن كأمة مجزأة تتجسد طموحاتنا القومية الاشتراكية في الوحدة ، لابد لنا من اشاعة المناخ الوحدوي في التاريخ نفسه ، باعتبار الوحدة هي الاصل والاساس ، وباعتبار التجزئة خللا ، وضعفا ، ويجب ان تكون (طارئة) ايضا ، مهما طال زمنها ، لذا يجب ان يكون تعاملنا مع هذاالتاريخ من هذا المنطلق ، لا بمعنى تغيير التاريخ ، لاننا عاجزون عن تغيير احداثه ، بل بمعنى (تفسير التاريخ) تفسيرا علميا جريئا يضع التاريخ ذاته في خدمة الامة والقضية ، ويرفض ان يضع الامة وقضيتها في خدمة التاريخ بمعناه الماضوي .

لقد استنفذ تاريخنا الكثير من قوى الشعب المادية والروحية ، وهدرها في اقنية الفرقة والضعف ، لا لانها كانت منسجمة مع روحية الامة ، بل لان القوة التي وظفتها امتلكت كل القدرات المطلوبة لجعل مادة التاريخ احدى الوسائل الداعمة لها ، ولو ان الملك (فاروق) ملك مصر لم تطح بـه ثورة ١٩٥٢ ، ـ على سبيل المثال ـ لوجد من يثمن نسبة الى (آل البيت) ، ولتحول ذلك الى حقيقة (معتمدة رسميا) ، تدرس ، ولو الى حين !!.

ان التاريخ لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فنحن الذين ندافع عنه ، وعن نقائه ، ونهاجم القائم فيه وننقيه ، بوعي ، من كل مايخدم الفرقة والضعف والبعثرة ، بذلك يكون توجهنا ، ووعينا ، هو الذي يؤهل التاريخ ، عبر فهمنا ، وتفسيراتنا ، لان يكون مادة داعمة لنضالاتنا الشاقة .

اننا حين نكون قوميين وحدويين لابد ان نتعامل مع التاريخ كتاريخ قومي ، مهما كانت حالة الرقعة التاريخية التي بين ايدينا ، وحين نكون اشتراكيين لابد من توظيف التاريخ لصالح الجماهير العريضة صاحبة المصلحة في نفي الاستغلال ، وأن ننجح في طرح التاريخ بوحدته القومية ،

تكون قد ارسينا اسس الوحدة باطارها التاريخي ، والتي تمدنا ببعض اساسيات الوحدة الفكرية ، بعيدا عن كل اسباب الفرقة التي انعكست على الحياة العربية ، ومازال آثارها ماثلة ، وتشكل اداة بيد القوى المناهضة للوحدة والتقدم . بهذا المعنى ، المنشود ، تصبح المدارس الفكرية ، والمذاهب ، والتعددية : ملامح بؤر فكرية استدعتها ظروف تاريخية ، مسوغة باستقراءاتها الخاصة ، وليس لها من الحجم ماهو اكبر من ذلك ، وبهذا يصبح التوجه النضالي ، المستقبلي هو الاساس ، لا الموروث المشبع بمواصفاته التعصبية ، الضيقة ، الهدامة .

ليس التاريخ مجرد مخزون لذاكرة الامة ، بل هو الوجدان حين ناخذ النصح مافيه ، مجسدا بعطاء الامة الحضاري ، الامر الذي يجعلنا نحرص على الا يتناول هذا التاريخ الا من كان مبرءا من الامراض الموروثة حتى لا يفشي ذلك الجرثوم ، خاصة وان اختلاط ماهو تاريخي بما هو ديني لدى جماهيرنا الشعبية مايزال مربكا ، وقابلا لشتى الارتسامات ، ولذا لابد من حماية التاريخ من العبث به ، مثلما نحمي حدود الوطن ، واقتصاده ، لانه احد بؤر الجمر ، ولان وطننا الجزء له تاريخ مجزء ، توجها ، واحداثا ، بحكم ماهو قائم ، ولابد من تدعيم الفكر القومي الاشتراكي بتاريخ قومي ايضا ، لا يقبل التجزئة التي فرضتها ظروف الضعف وعهود الدويلات ، والامارات ، بل يرى فيها صورة الخلل والضعف القومي ، لا صورة مستقلة مقومات وجودها ، دون ان ننخدع ، او ان ننجر الى المواقع المذهبية ، والطائفية التي هي نتاج الضعف والانحلال واندحار ماهو قومي ، وثوري في آن واحد .

ان المطالبة بهذا الالتزام يعني ان يكون لدينا منهج في فهم التاريخ ، وفي تعاملنا معه وان يكون هذا المنهج في محصلته النهائية ، وفي رؤيته ، يصب في مخيط التوجهات القومية الاشتراكية ، بكل مالها من معان وحدوية ، وجماهيرية ، وان تسخر كافة الطاقات الفكرية لخدمة هذه الاهداف ، وهذا يعني كنتيجة : الصدام الواعي مع موروثات المرتكزات الرجعية الثقافية ، لا فرق في ذلك بين كتاب مضى على تأليفه الف عام ،

وكتاب لم يمض على صدوره بضعة اشهر ، بل لابد من اعتبار الكتاب الحديث اشد خطرا واكثر ضررا لما فيه من ارتداد ورائي ، ولما قد يحتويه من احياء لمقولات يفترض فيها ان تنقرض لنضمن سلامة الامة والوطن ، ولياتي المستقبل على الصورة التي نريدها ، ثوريا ، وحدويا ، خاليا كل حالات الاستغلال ، والقهر ، والاستلاب . يقول احد المفكرين القوميين :

« ... ان تستوعب الماضي يعني ان تنظر اليه نظرة نقدية ، وان تنظر اليه نظرة عميقة ، نظرة ثورية تكتشف مافيه من عمق ثوري ، ومن عمق حضاري ... فالنهضة موقف حضاري ، لذلك يجب ان يتخطى الانسان فيه بمعادلة داخلية مرحلة الانحطاط ، اي مرحلة التجزئة والتخلف ، والا فانه من غير الممكن ان نتعامل مع الماضي من مواقع النهضة . »

ويقول ايضا :

« ان الماضي بقدر ماهو مليء بالايجابيات فيه اخطاء هي من طبيعة البشر لذلك فان الاخطاء والمواقع الصحيحة ، الايجاب والسلب كلاهما نحرص على ان يكون عاملا مساعداً لنا في مواجهة حاضرنا ومستقبلنا . الاخطاء دروس وعبر .. والايجابية هي عبارة عن حوافز وسند ودعم لتوجهنا المستقبلي . »

و .. يتابع :

« ... فعملية انبعاث الشخصية ، اي توحيدها من جديد ، لايمكن ان تتم الا من خلال العمل التاريخي الذي يكون فيه الماضي دوما في خدمة الحاضر وفي خدمة المستقبل . التاريخ يمضي الى امام ولا يرجع الى الوراء . »

ويقول آخر :

« ان التاريخ هو الوجود الايجابي للامم لا الوجود السلبي لها . »

انطلاقا من هذه الرؤيا لابد من ادراك قيمة العقيدة القومية الاشتراكية، لا في توحيد الفكرة فقط بل في توحيد النظرة للتاريخ ، بحيث تمحي اشكاليته التي تحرص عليها الرجعية المستفيدة من تلك الاشكالية ، وهذا يعني ضرورة اهتمامنا بالتاريخ ، ومن هذه الزاوية ، قدر اهتمامنا بالميادين التربوية ، فلا نسمح بتسريب الاراء التي لا تنسجم مع توجهنا النضالي القومي ككل ، مهما كانت قوة المسوغ ، غير المتكافئة ، ومهما بلغت صلابة الاراء المستند اليها .

حين يتصدى مؤرخ ، او باحث للتاريخ ، فلابد من ان يكون له مذهب من مذاهب التاريخ يأخذ به ويهتدي بنهجه ، والمذاهب التاريخية على تعددها تصدر عن احدى مدرستي الفلسفة الكبريين : إما « المثالية » وإما « المادية » ، وقد تتم المزاوجة بينهما ، وربما عن غير قصد ، كما فعل ابن خلدون ، فهو مثالي في ايمانه ، وفي الوقت ذاته لا ينفي سير التاريخ وفق قوانين معينة ، فهو كما يقول روجيه غارودي في حوار تم معه في مصر عام ١٩٧٠ : « المؤسس الحقيقي للتصور العلمي للتاريخ والاجتماع » ، ولم نجد في اي من المدرستين من يعتبر المذهب محركا للتاريخ ، ثمة من يقول ان القوة العليا ، القادرة ، هي المحرك ، وتفصل ذلك بحسب احدى المقولات الدينية ، وثمة من يعزي الاحداث لاسباب مادية ، كالاقتصاد ، حتى العصبية التي يعتبرها ابن خلدون اساسا في الحكم ، بشيء من اضفاء الفهم التفسيري المتقدم عليها ، لا يمكن تخصيصها بالمذهب ، او بالمذهبية الضيقة ، بل يمكن لمفهوم العصبية ان يحتوي تحت عباءته الواسعة ماهو اكبر من المذهبية ، بحيث نستطيع القول ان العصبية اذا فهمناها فهما خاصا فانها تقترب بعض الشيء من المفهوم الطبقي ، اذ تجمع العصبية ، عصبية المستفيدين ، ذوي المصالح في دائرة واحدة ، على اختلاف قربهم وبعدهم من المركز ، وليس الغاء الاستغلال ، وحكم الطبقات المنتجة شيئا مناهضا لفكرة عصبية المنتجين .

الذي استدعى بعض هذا الكلام ماورد في كتاب « الدكتورة امينة البيطار » مدرسة تاريخ العرب والاسلام بجامعة دمشق : « موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس الهجري »، الصادر عن دار دمشق للطباعة والنشر ، عام ١٩٨٠ ، فقد وقعت المؤلفة في تناقضات مدهشة ، ومثيرة لعدد من التساؤلات .

في احد عشر موضعا ، بل واكثر ، نرى المؤلفة تركز على المذهبية كمحرك ، فهي ترى ان الخلاف المذهبي بين اهل دمشق والفاطميين لم يترك فرصة للفاطميين ان يرتاحوا :

« .. الهب الخلاف المذهبي بين الطرفين حماس الدمشقيين السنة لقتال الفاطميين من الشيعة الاسماعيلية » ص ٤٣ .

« ... فقد كان سكان دمشق من السنيين المتحمسين ضد الفاطميين ومعتقداتهم » ص ٤٣ .

« .. فاستقطب حوله بذلك العناصر السنية المستاءة من الفتح الفاطمي » ص ٦٠ .

« ... ويخلصهم من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في عقائدهم المذهبية » ص ٦٧ .

« ... كما كان الخلاف المذهبي بين اهل الشام والسنيين والفاطميين الشيعة عقبة اخرى تحول دون التقارب بين الطرفين حتى ولو كان ذلك من اجل الدفاع ضد البيزنطيين » . ص ٦٩

« طغرلبك حامي السنة في ذلك الحين » ص ٣١٥ .

وتتكرر روح هذا الكلام في الصفحات : ١٢٩ ـ ٢٢٧ ـ ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ـ ٣٥٣ ـ ليس حصرا بل نمذجة ، ولست ادري كيف تغفل المؤلفة عن خطورة طرح فكرة ان الخلاف بين السنة والشيعة « حال دون التقارب بين الطرفين حتى ولو كان من اجل الدفاع ضد البيزنطيين » انظر الى تلك « الـ حتى » لترى كم فيها من الموحيات ، ثم هل ثمة ما يسوغ لاي

كان ، ومهما كانت الدوافع ومهما كانت المحرضات الجوانية ذات استجابة نفسية ، هل ثمة ما يسوغ التخاذل امام العدو ؟ في مثل هذا الموقف ليس ثمة اسماء كثيرة ، اما (وطني) مقاتل ، واما (خائن) متخاذل ، ولا اعتقد ان مانحن فيه الآن في مواجهة العدو الصهيوني مختلف كثيرا عن ذلك الموقف ، من حيث تحديد الوطنية بالمواجهة ، والخيانة بالتخاذل او بالصمت .

في الكلام السابق تبدو المذهبية محركا اساسيا للاحداث ، ثم لا تلبث المؤلفة ان تتكلم كلاما آخر ، مناقضا ، ومخالفا ، وصحيحا ايضا ، مما يجعل القارىء يواجه حيرة ، ترى اي كلاميها ياخذ . . .

في اشارة للعداء السافر بين الحمدانيين والفاطميين تقول :

« وهكذا نرى ان وحدة المذهب لم تكن عاملا في التقريب بين القوى المتطاحنة اذ ذلك ، وان المصالح المتعارضة لكل من هذه القوى هي التي كانت تحدد موقفها واتجاهها السياسي . »

وعن العلاقة بين القرامطة والفاطميين تقول :

« غير ان هذا الوفاق وهذا الاخلاص الذي تجلى بين الطرفين لم يدم طويلا ، ويمكننا ان نعزو ذلك الى التنافس السياسي على السيطرة على بلاد الشام بين الفاطميين والقرامطة . »

وفي مكان ثالث يبدو المحرك شيء آخر ، وهو الخضوع للخلافة العباسية الضعيفة ، اذ تقول :

« ويبدو ان البقاء في ظل الخلافة العباسية الضعيفة ، كان بمثابة القانون الاساسي الذي يتحكم في تحديد علاقة القوى السياسية الشيعية كالبويهيين ، والقرامطة والحمدانيين وغيرهم من القوى التي ظهرت اخيرا ـ بالخلافة الفاطمية القوية الفتية = هذه هي روح العصر التي تغلبت على الولاء المذهبي وفرضت هذا الاتجاه السياسي الواقعي » .

ان البقاء في ظل الخلافة العباسية الضعيفة لا يمكن ان يفسر لنا بحجج مقنعة سبب تلك الطاعة ، وخاصة على ضوء التوجهات التي تبدو اثيرة في التأليف لدى البعض. ولا يطول بنا المدى حتى تحيلنا الى ما اسمته بـ (روح العصر) ، التي تغلبت على الولاء المذهبي ، وكأن هناك عصورا اخرى تتغلب فيها روح تلك العصور بحيث تنقاد لولاءات هي خارج معطيات الصراع الاجتماعي !!. لاشك ان بعض التحركات كانت ترفع شعارات يغلب عليها طابع الدين ، أو المذهب ، كالغزو الاوروبي المبكر لبلادنا باسم الحروب الصليبية ، غير ان الاسباب الخفية لتلك الحروب لم يغفل عنها المؤرخون والباحثون فقد ارجعوها الى اسبابها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ولم يخدعهم شعار الصليب على اثواب المقاتلين .

ان المذهبية لا يمكن ان تشكل محركا ، قد تكون ورقة صالحة للعب ، اما ان تكون محركا ، ومحرضا ، للتحرك الجماهيري ، العام ، او الجزئي ، وخاصة فيما يدعي أنه ترجمة للرغبات الشعبية ، فذلك شيء بعيد ، لذا لابد من رد الامور الى اعتبارات ، وتفسيرات مقنعة ، تكون علمية وموضوعية .

لو كانت المذهبية عاملا في التحريك لكان من المفترض ان يتعاضد الفاطميون،والقرامطة،والحمدانيون،وحتى البويهيون الذين هم غير عرب، وكانوا جميعا في زمن واحد ، وتحت ظل راية واحدة هي الخلافة العباسية الضعيفة ، ولو انهم تعاضدوا لكان من الممكن ان يفرضوا الحل الذي يرونه والمواقف التي يقتنعون بها .

تقول المؤرخة في مكان آخر :

« ... ولم تكن لغلبة التشيع وحب آل علي من قبل بعض القبائل العربية أي اثر في انطواء هذه الامارات تحت لواء الفاطميين الاسماعيلية . » ص ٨ .

و .. تقول :

« ان علاقات الحمدانيين بالفاطميين كانت أصلا علاقات عداء على الرغم من ان الحمدانيين قد غلب عليهم التشيع . » ص ١٧٩

و .. تقول :

« ان الحمدانيين وقفوا موقفا معاديا من الدولة الفاطمية على الرغم من غلبة التشيع على الحمدانيين ، وهذا يدل على ان الميل العقائدي لم يكن كل شيء في العلاقات وانما كانت القضية السياسية تعلو على كل القضايا . »

« ان القضية السياسية هنا هي التي تبرز كاساس ، وكمحرك ، لدى المؤلفة ، ومثل هذا القول يـ[illegible] طرح السؤال التالي :

هل يمكن عزل القضية السياسية عن القضية الاقتصادية الاجتماعية.

قد يبدو مثل هذا الطرح غير منصف ، ولربما كان جوابه امرا بدهيا بحيث لا يسبب خلافا ، ولا يثير تساؤلا ، غير ان غياب تلك الرؤية ، ونقدانها ، يجعلنا محقين في اثارة ذلك السؤال ، لان الرؤية الاجتماعية الاقتصادية الروحية مفقودة في الكتاب ، ولعل من الجدير بالانتباه ان نتساءل عن اسباب عدم التركيز على الحس العربي ، بالرغم من امكانية الاهتداء اليه عبر العديد من الاحداث ، واعتباره مفتاحا لبعض الاضاءات الهامة ، قلت : « العربي » ، ولم اقل « القومي » ، بالمعنى المعروف للقومية هذه الايام ، كيف لم يتم الانتباه الى ذلك الحس في زمن اصطدمت فيه بشكل علني مصالح غالبية العرب مع غير العرب من المتسلطين ، خاصة بعد ان سيطر الاتراك على مفاتيح السلطة الحقيقية ، او ليس من المفترض ان يحرك هذا الامر الخطير الحس العربي ، فيتفق العرب من الذين يملكون المال والسيف والسلطة والنفوذ لانقاذ الحكم من سقوطه الاستسلامي ، الدليل ، وان نقول الحكم فلا نعني السلطة المنخورة ، بل نعني قبل كل شيء سيادة العرب على انفسهم في وطنهم .

ان الذي لا شك فيه ان الحكم يوم كان بيد العرب ، حقيقة ، لا شكلا ، كان هؤلاء الحكام ، من العرب قد انصرفوا للهو ، والملذات ، والثراء الفاحش ، على حساب كل الفقراء من (رعايا) تلك الدولة ، لا فرق في الفقر بين عربي وفارسي او تركماني ، كما ان اصحاب الضياع والنفوذ كانوا يعيشون في نعيم متشابه ، لا فرق في ذلك بين تركي وكردي .

ان المستفيدين مما هو (واقع) و (قائم) هم الذين كانوا يدافعون، او يتدخلون لابقاء الامور كما هي ، او لقلبها بما يتناسب مع مطامعهم الخاصة ، وهم في الفترة الزمنية التي نتحدث عنها المؤلفة كانوا من غير العرب ، من حيث الغلبة ، فقد كان السلاجقة الاتراك هم حماة كرسي الخلافة اي حماة سيطرتهم هم ، وحماة مصالحهم ، وبرغم ذلك كله فقد كان ثمة « حس عربي » تجلى في عدد من المواقف ، والاحداث ، كان يمكن ان يشكل منطلقا لرؤية اكثر جذرية ، واكثر نصاعة . اما الذين كانوا على راس سلطة ما من العرب ، فقد كانت مصالحهم ، وحماية تلك المصالح ، كالمحافظة على الامارة ،او الابهة الاجتماعية ، والنفوذ السياسي، والرغبة في التوسع : كانت تشغلهم عن بغداد ، مركز الخلافة ، وتلهيهم عما يجري في العاصمة الام .

عشائر بلاد الشام كانت تغير مواقعها ، ومواقفها ، بحسب قيمة الدفع .

الحمدانيون بالرغم من انهم كانوا قلعة الصدام في وجه المطامع البيزنطية ، فان ظروفهم الخاصة والعامة لم تكن تسمح لهم ، ولا تؤهلهم الا لما قاموا به ، ولم تلبث هذه الامارة ان تشرذمت بموت فارسها سيف الدولة الحمداني .

القرامطة اقاموا دولة في الجهة الشرقية ، قريبا من بغداد ، وامارتين في اليمن ، وكانت الحروب صارخة اما مدافعين واما مهاجمين .

الفاطميون بين قمع التمردات التي كانت تحدث ضدهم في بلاد المغرب تارة ، وحيث وصلوا في المشرق اخرى ، وبين طموحاتهم لمد الخلافة الى بغداد واسقاط الخلافة العباسية ، وما رافق ذلك من حروب طاحنة بينهم وبين القرامطة : كانوا في مد وجزر .

فاين هي المذهبية ، كمحرك ، من كل ذلك ؟!!

ان المصالح ، والمصالح وحدها هي التي كانت ترسم مسار التوجهات، وستظل ترسمها ، وحين نقول المصالح فاننا نعني المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والروحية ، بما فيها من تشابك ، وتواشج . رغم كل التشابكات ، والمحرضات ومضاداتها ، والتي قد يغلف بعضها ضباب كثيف ، ـ ولست افرض فرضا ، بل اراه كأمر ممكن ـ فقد كان رصد الحس العربي ، آنذاك ، بموحياته ، ودلالاته ، اهم بكثير ، واجدى من (نقل) او (اعتماد) التأويلات ذات النكهة المذهبية ، وخاصة في زمن دون آخر .

ان قصر تفسير الموقف ، في بعض ماورد ، لدى المؤلفة ، واعتماد الجانب الاوهى ، في بعض الاماكن ، جعل الكتاب يفقد الكثير من قيمته التحليلية ، التعليلية ، وأوقع المؤلفة في تناقضات مربكة فاقعة ، وكثيراً ماجمعت المعلومات ، وقدمتها خارج ابة رؤية منهجية تاريخية ، بل ربما بدا ايثار تطفيح الانفعال ما على غيره ، الامر الذي يصح في النقد الادبي ، لافي كتابة التاريخ .

اننا حين نكتب التاريخ ، او نتصدى لتقويمه ، لابد لنا من الاهتمام بناحيتين هامتين :

الاولى : ان نبعد الميل والهوى الشخصي ، وان نعتمد الموضوعية ، والعلمية والمنهجية .

الثانية : ان ندرك اهمية التاريخ القومية ، التربوية ، النفسية ، فنتعامل مع التاريخ من خلال هذه المسؤولية الخطيرة تعامل من يخلص

لبناء وحدة هذه الامة ، بالتاريخ المشتت ، المبعثر ، المتصارع ، وذلك لا يكون الا من خلال الرؤية القومية ، التقدمية التي تترفع عن كل ما كان سببا في اضعاف هذه الامة ، وفي تمزيق وحدتها ، لان حاجتنا هي في اقامة المجتمع العربي ، الحر ، الموحد الاشتراكي ، لافي اقامة مجتمع سني ، او شيعي ، واهمية ضرورة وحدتنا القومية تجعلنا مسؤولين عن النضال ، على كافة الصعد ، لإقامة ذلك المجتمع ، على اسس التصور الوحدوي ، الاشتراكي ، بما يقتضيه من عقائدية نضالية ، تصلح لحل اشكالاتنا بصورة عامة ، وعلى التاريخ ان يكون ــ حسب توظيفنا له ــ داعما ونصيرا لهذا التوجه ، وان نرفض بشدة كل مايتعارض مع ذلك الهدف .

ان سعي الفاطميين لادخال المنطقة العربية بكاملها تحت راية دولتهم لو تم ، لا يراه الباحث او المؤرخ القومي التقدمي الا من زاوية وحدة الوطن القومية ، وما تعنيه ، بغض النظر عن مذهبية هذا ومعتقدية ذاك ، فقد كان التسنن والتشيع في ذلك الزمن يتم حسب المصالح ، ومن يكون هنا اليوم قد يكون غدا جنا ، كما روت المؤلفة .

لقد كان خوف الامبراطورية البيزنطية كبيرا من قيام دولة قوية كبرى تمتد من مغرب هذا الوطن الى مشرقه ، ولذا قاومته بكافة الوسائل التي كانت تمتلكها آنذاك .

ان الذين هربوا الى بلاد الروم من العرب اثر دخول الفاطميين الى الشام لا يختلفون في شيء عن الذين يلتجئون هذه الايام للعدو الصهيوني، وان اختلفت الحجج والاقوال ، فكلاهما يركع على قدم العدو ، مافعله ابو الفضائل ولؤلؤ على مشارف حلب من ركوع للامبراطور البيزنطي يفعل مثله ، بشكل او بآخر سعد حداد ، والمتسللون لمقابلة قادة العدو الصهيوني ، للتنسيق معه ، وكل محادثة تجري بين قوي وضعيف ، حين يشهر القوي اسلحته ، او يخبئها ، تكون استسلاما من قبل الضعيف لإرادة من يمتلك القوة . فاذا كان لدينا كقوميين اشتراكيين مايسوغ لهؤلاء فعلتهم فلن نعدم ايماءات التسويغ لاولئك .

ضمن هذا التوجه ، او هذا الافتراض ، وهو ليس طلبا مجحفا ، ولا يتناقض مع العدالة تبدو بعض مواقف المؤلفة مجانبة ، وبدرجة كبيرة ، لهذه الروح التي نتوخاها ، لما في تلك الروح من تجسيد لنزوعنا القومي ، فهي تمر ببعض النقاط مرورا سريعا بالرغم من الرحابة التي تمتلكها تلك النقاط ، لمن يريد التبسيط او التعليل .

هنا لابد من الاشارة الى ان المصادر التاريخية القديمة تبسط بين ايدينا الكثير من الاحداث التي لم تكتب بالروح التي نرغب فيها ، بل كتبت بروح ذلك الزمن ، وفي اطار الشرزمة والولاءات المتعددة ، وهي في ظاهرها تحمل تلك التعددية ، تدخل فيها الاقليمية والفئوية، على اختلافها ، ولذا يمكن ان نعتمد هذه المصادر كمراجع فقط ، وبحذر دقيق ، ولابد من اخضاعها ، في حالة تفسير التاريخ ، واعادة كتابته ، الى التوجه العقائدي الذي نتوخاه ، فاذا لم نفعل ذلك ، لا نكون قد وافقنا على البواعث التي لا تنسجم مع تطلعاتنا الوحدوية والاشتراكية فقط ، بل ونكون قد قمنا بتكريسها بما يشبه الدعوة اليها، وهو مايجب ان نحذر منه حذرا بالغا .

ان التصدي للكتابة التاريخية ، وخاصة في الفترة التي تبحثها المؤلفة ، فترة ضعف الدولة العربية ، التي مهدت لسقوط بغداد فيما بعد ، هذا التصدي يوجب علينا ان نقف مما كتبه المؤرخون انذاك موقفا متسلحا بالوعي القومي ، وبالمنهج التاريخي ، المحدد ، كيلا نسقط بشكل او بآخر في المطب الذي سقط فيه ابناء زمن الشرذمة والضعف ، ولابد من اعتماد منهج تفسيري للتاريخ يقدم لنا الحقائق الموضوعية ، لا الميول والاهواء التي هي ناتج اشياء اعمق مما يطفو على السطح ، واعمق من مظهرية التكتلات الفئوية ، آنذاك ، والتي هي في حقيقتها تعبير عن صراع التشكيلية الاجتماعية القومية على خارطة ذلك الزمن ، بكافة ماتلك الخارطة من ابعاد .

في الختام أريد ان اشير الى ناحية اراها جد خطيرة ، وشديدة الدلالة والحساسية ، وهي ان الرجعية تستمد شيئا من قوتها ، ومن استمراريتها ، وتعميق جذورها من الموقف الذي تضع نفسها فيه القوى التقدمية .

بغض النظر عن علاقات الانتاج ، ووسائل الانتاج ، فان الرجعية تتحصن بما خلعته هي على مقولاتها من قداسة ، فهي منذ زمن طويل ضمنت ذلك الحق ، وزرعته في نفوس البسطاء ، ولها الكثير من الوسائل والمواقع ، التي تستطيع بها ، وعبرها ، ان تطرح فكرها بحرية كبيرة ، بينما نرى الفكر القومي ، التقدمي ، كثيرا مايشكو من الحصار الذي يعاني منه ، والرجعية مازال تلوح لاعدائها ، وتحافظ على سمات القداسة المدعاة التي منحتها لنفسها ، فهي تتعرض لكافة الافكار التي لا تنسجم معها تحت اكثر من اسم ، بينما لا يجد الفكر التقدمي الفسحة لان يطرح كل مقولاته ، ولو من باب الدفاع عن النفس ، خيفة ان يمس بعض المحذورات .

ان بعض ماهو ملح ، وهام ، وضروري في هذه المرحلة ان يفسح للفكر التقدمي التحرري من اجل ان يقدم طروحاته ، ومن اجل ان يبسطها ، لان الفكر يقارع بالفكر كما يحتاج كل سلاح لذات السلاح في المعارك العسكرية ، وان ثقتنا باكتساب الجماهير كبيرة جدا ، فقد سبق لهذه الجماهير في الخمسينات ، احد ازمنة النهوض الشعبي ، سبق لها ان وقفت الى جانب الطموحات الوحدوية الاشتراكية ، التقدمية ، وعزلت الرجعية فدحرتها بالفكر ، قبل ان تدحرها بالقبضة . اننا حين لا نؤثر ان نهاجم الفكر الرجعي في اعمق نقاط مقتله ، من اجل فضحه، وكشف لعبته القديمة ، الجديدة ، وتعرية ذلك الفكر ، فلا اقل من ان نعطي للفكر القومي ، والتقدمي فرصة طرح نفسه والدفاع عن الذات .

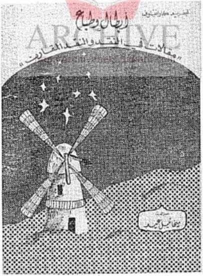
صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

أندريه دابيزيس



ترجمة : خليل شطا

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



اعلان عن جائزة ترجمة

تعلن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن جائزة تشجيعية تمنحها لافضل ترجمة (مجموعة قصصية) من احدى اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وذلك وفق الشروط التالية :

١ ـ ان تكون الترجمة قد تمت من اللغة الاجنبية الاصل الى العربية الفصحى .

٢ ـ ان تكون (المجموعة القصصية) المترجمة مطبوعة ولايقل عدد صفحاتها عن ١٥٠ صفحة .

٣ ـ ان تكون قد صدرت بين مطلع عام ١٩٧١ ونهاية عام ١٩٨٠ .

٤ ـ الا تكون قد نالت جائزة تشجيعية او تقديرية من اية جهة كانت .

٥ ـ ليس لهذه الجائزة التشجيعية اي اثر في حقوق الترجمة او حق التصرف بها .

٦ ـ يحدد مقدار الجائزة بالفي دولار امريكي او مايعادلها .

٧ ـ تبت باستحقاق صاحب ترجمة (المجموعة القصصية) الجائزة لجنة خاصة تشكلها المنظمة لهذا الغرض .

٨ ـ يرسل المترجم الى المنظمة (ادارة الثقافة) ص.ب ١١٢٠ تونس طلب ترشيح مع سبع نسخ من المجموعة القصصية المترجمة ونسخة واحدة من الاصل الاجنبي المترجم منه خلال مدة تنتهي بتاريخ ١٩٨٢/٩/٣٠ .